

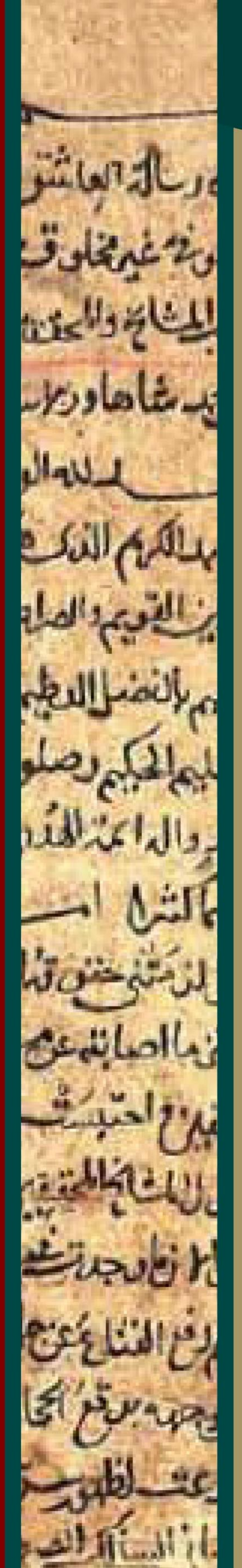
ISSN 3283–2636

علوم المخطوط

دورية علمية سنوية محكَّمة

العدد الخامس
٢٠٢٢

مركز المخطوطات
Manuscripts Center







دورية علمية سنوية محكَّمة

العدد الخامس

٢٠٢٢

مركز المخطوطات
Manuscripts Center

دورية
علوم المخطوط



حولية تراثيَّةٌ محكَّمة مطبوعةٌ (لها موقعٌ إلكتروني) تصدر عن مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية، تختص بنشر ما يتَّصل بعلوم المخطوطات، والدراسات والترجمات التراثية، والتحقيقات، بالإضافة إلى التعقُّبات والنقود.

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

علوم المخطوط. – ع5 (2022)- . – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، مركز المخطوطات، 2022.

مجلدات ؛ سم.

سنوي

ردمد 2636–3283

«دورية علمية سنوية محكمة»

1. المخطوطات-- دوريات. أ- مكتبة الإسكندرية. مركز المخطوطات.

ديوي –011.31 2020591848848

ISSN 3283–2636

رقم الإيداع: 24367/ 2022

طُبِع بمصر

قواعد النشر

- ترحب الدورية بنشر البحوث الجيدة والجديدة في الحقول الآتية: الكوديكولوجيا، دراسات في التراث العربي الإسلامي، تحقيقات، ترجمات لنصوص تراثية أو لتحقيقات، تعقُّبات ونقد للتحقيقات والدراسات التراثية.

- يجب أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار والمنهجية، وأن يكون البحث غير منشور من قبلُ بأيّ صورةٍ من صور النشر، وغيرَ مستلٍّ من كتابٍ منشور أو رسالة جامعية (ماجستير، دكتوراه).

- ألا يزيد عدد كلمات البحث على ١٠ آلاف كلمة، ولا يقل عن ٥٠٠٠ كلمة (للبحوث، والدراسات، والنصوص المحققة)، ولا تقل عن ٢٠٠٠ كلمة (للنقود، والمراجعات، وعرض الكتب، والترجمات).

- يُصدَّر كل بحث بملخص لا يزيد عن ١٥٠ كلمة، باللغتين العربية والإنجليزية.

- يقدَّم البحث مكتوبًا إلكترونيًّا، عبر البريد الإلكتروني للمجلَّة، مع سيرةٍ ذاتيَّة معبِّرة عن صاحبه. وتوضع الهوامش والإحالات في أسفل الصفحة إلكترونيًّا، وتُفصل بخط عن (المتن). ويكون تسلسل أرقام الهوامش متتاليًا متسلسلًا في البحث كله. وتُثبت المصادر والمراجع في آخر البحث، ويراعى في ثبت المصادر والمراجع – وكذلك في الهامش السفلي للصفحات – أن يكتب اسم المصدر أو المرجع أولًا، فاسم المؤلف، يليه اسم المحقِّق أو المراجِع أو المترجِم في حال وجوده، ثم دار النشر.. إلخ.

- التحكيم سريّ، ومُعَدٌّ على أنموذجٍ يخضع للمعايير الأكاديمية، وقرار إجازة نشر البحث أو رفض نشره قرارٌ نهائيّ. وفي حال الإجازة مع التعديل يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة – في مدة محددة – إذا كان قرار هيئة التحكيم بإجازة نشر البحث مشروطًا بذلك. أما في حال الرفض فإن هيئة التحرير تحتفظ بحقها في عدم إبداء الأسباب، واستثناءً يجوز لهيئة التحرير أن تزوِّد الباحث بالملحوظات والمقترحات التي يمكن أن يفيد منها في إعادة النظر في بحثه.

- تلتزم الدورية بإخطار الباحث بنتيجة صلاحية بحثه للنشر، ولهيئة التحرير إجراء أي تعديلات شكلية تراها مناسبة لطبيعة الدورية.
- المواد المنشورة في الدورية لا تعبر بالضرورة عن مركز المخطوطات أو مكتبة الإسكندرية، ويعد كاتب البحث مسؤولًا عمَّا ورد في النص الذي قدَّمه للنشر.

المراسلات:

توجه جميع المراسلات عبر البريد الإلكتروني الخاص بهيئة التحرير:

manuscripts.center@bibalex.org أو layla.khoga@bibalex.org

الفهرس

تصدير

يمثل التراث العربي المخطوط أحد الكنوز المتبقية والشاهدة على عظمة إنتاج العرب والمسلمين للمعرفة والعلم. ولكن بقاء جزء كبير من ذلك التراث مجهولًا، جعل من الضروري أن نسلط عليه الضوء، وعلى إسهامه في تاريخ الفكر الإنساني. وفي الواقع تعمل دورية «علوم المخطوط» التي تصدر عن مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية على الاهتمام بنشر الدراسات الرصينة في كل نواحي التراث العربي الإسلامي المخطوط. وفي هذا العدد الخامس للدورية، عمل القائمون على المجلة على اختيار مجموعة من الأبحاث المتخصصة في جوانب تراثية متخصصة تفيد الباحثين في كل أنحاء العالم، وترشدهم إلى تطور الفكر الحضاري والعلمي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وإلى جانب النشر الأكاديمي المتمثل في هذه الدورية، يعمل مركز المخطوطات على أن يصنع لنفسه مكانة مميزة من بين المراكز العالمية التي تهتم بالتوعية بالجوانب التراثية والحضارية. كما يعمل المركز من خلال باحثيه على الاهتمام بفهرسة وتوثيق المخطوطات العربية، ودراسة وترجمة كل ما يفيد الباحثين في معرفة الجوانب المشرقة في تاريخ العرب والمسلمين.

أ. د. أحمد عبد الله زايد

مدير مكتبة الإسكندرية

ورئيس مجلس إدارة الدورية

تقديم

لا تزال كثير من الرؤى التي وضعت لدراسة التراث الإسلامي تعاني من المجهولية وعدم الوضوح. ولهذا أجد لزامًا علينا أن نعمل على نشر الجوانب المختلفة والحقيقية للتراث العربي الإسلامي، خاصةً صورته المخطوطة، وهي الصورة الأصلية التي كُتب عليها ذلك الإرث المعرفي الكبير، والتي تبيِّن التطور الحقيقي للفكر العربي الإسلامي، من الناحية العقائدية والفقهية والعلمية.

ويقوم الباحثون في مركز المخطوطات التابع لقطاع التواصل الثقافي بمكتبة الإسكندرية بجهد كبير للمحافظة على رصيد المخطوطات التي تمتلكها المكتبة، إلى جانب اهتمامهم الكبير بإقامة أنشطة أكاديمية رصينة لبيان إسهام التراث المخطوط في تشكيل الوعي الحقيقي والصحيح لتاريخ العرب والمسلمين في العصر الحالي.

وأكرر أن دورية «علوم المخطوط» في عددها الخامس لا تزال مُحافظة على سَمتها العلمي، وعلى دراساتها المتنوعة في جوانب التراث العربي المخطوط.

د. محمد سليمان

رئيس قطاع التواصل الثقافي
والمشرف العام على الدورية

افتتاحية العدد

يضم هذا العدد من دورية «علوم المخطوط» مجموعة من البحوث الرصينة التي تدور في فلك الدراسات التراثية، ففي باب النصوص المحققة، يتحفنا الدكتور خالد محمد عبده بتحقيق علمي لـ«رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق»، وتعتني هذه المقالة برسالة العاشق إلى المعشوق في شرح مقولة الصوفي غير مخلوق، تلك المقولة التي حظيت باهتمام من أعلام التصوف الفارسي، ووجدت قبولًا في الأوساط الصوفية على مدار قرنين. وتأتي أهمية هذه الرسالة من كونها كاشفة عن أثر من آثار المدرسة الكُبراوية، فقد تابع فيها نجم الدين داية شيخه مجد الدين البغدادي واستفاد منه، وحاول أن يطور بعض أفكاره التي دوّنها في كتابه «تحفة البررة في المسائل العشرة».

وفي البحث المعنون بـ«قطعة جديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان» لابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ): وصف وتقديم وتعليق»، للدكتور عبد الجليل شوقي، يقدم الباحث أقدم قطعة جديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان» لعبد الواحد ابن الزملكاني، لم يتم اعتمادها من قبل، كُتبت بالغرب الإسلامي بمدينة ألمرية الأندلسية سنة ٨٥٧هـ؛ خلافًا لكل النسخ المعتمدة سابقًا في تحقيق سنة ١٩٦٤م، واصفًا إياها من جهة، ومقدِّمًا تعليقات حول جهود التحقيق التي قام بها كلٌّ من الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي من جهة أخرى.

أما البحث المعنون بـ«دراسة في مسار الكتابة العربية بخطي الكوفي والنسخ من خلال مخطوطات القرنين الثالث والرابع الهجريين»، للدكتور محمد حسن جمعة، فيحاول الباحث تتبع مسار الخطوط العربية من خلال محورَيْن رئيسيَّيْن، وهما الإشارات التاريخية من جهة، والمخطوطات المادية التي وصلتنا من جهة أخرى. وقد اختص البحث بدراسة خطَّي الكوفي والنسخ، لوجود علاقات مادية وتاريخية تجمع بينهما من جهة، ولكونهما من أهم خطوط الحضارة العربية والإسلامية من جهة أخرى.

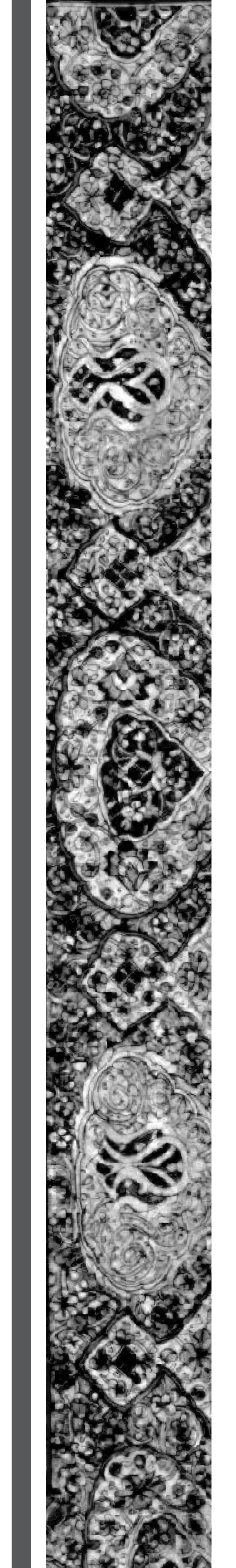
وفي الورقة المعنونة بـ«دراسة تحليلية لتقنيات ومظاهر تلف مخطوط قرآني ورقي يرجع للقرن الثاني عشر هجريًّا - تقريبًا»، يحاول مجموعة باحثين (فريق عمل) تحديد طبيعة الأضرار التي تصيب أوراق المخطوط وكيفية التعامل معها، وقد استعانت هذه الدراسة بالعديد من أجهزة الفحص والتحليل لفحص أهم مظاهر التلف السطحية التي لحقت به، لدراسة مورفولوجيا السطح، وللتعرف على نوع الفطريات التي أصابت المخطوط، وللتعرف على نوع الوسيط المستخدم للأحبار.

وفي قسم الترجمة نورد نصًّا مهمًّا من نصوص المستشرق ماكس مايرهوف، بعنوان: «طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا»، ترجمة الدكتور محمد علي الكردي.

وانتهاءً، فإن فريق العمل في تحرير الدورية يعمل دومًا على ضمان التنوع فيما ينشر بين دفتي كل عدد، في محاولة لسد النقص الذي تعاني منه المكتبة العربية في البحوث التراثية ذات الصلة بالتراث المخطوط.

د. مدحت عيسى

مدير مركز المخطوطات
ورئيس تحرير الدورية



دراسات التحقيق والفهرسة

رسالة العاشق إلى المعشوق
في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق

د. خالد محمد عبده[*]

ملخص البحث

تعتني هذه المقالة برسالة العاشق إلى المعشوق في شرح مقولة الصوفي غير مخلوق. تلك المقولة التي حظيت باهتمام من أعلام التصوف الفارسي، ووجدت قبولًا في الأوساط الصوفية على مدار قرنين. وإن تردد بعض المؤرخين في القطع بنسبتها لمؤلف بعينه؛ فمرة تُنسب إلى شيخ الإسلام الهروي الأنصاري الحنبلي صاحب منازل السائرين، وأخرى تُنسب إلى الإمام الخرقاني. وفي رسالتنا هذه نسبها أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي (نجم الدين داية) إلى الخرقاني، وقدم لها شرحًا وافيًا. وتأتي أهمية هذه الرسالة من كونها كاشفة عن أثر من آثار المدرسة الكُبراوية. فقد تابع فيها نجم الدين داية شيخه مجد الدين البغدادي واستفاد منه، وحاول أن يطور بعض أفكاره التي دوّنها في كتابه «تحفة البررة في المسائل العشرة».

الكلمات المفتاحية: الصوفي غير مخلوق – العاشق والمعشوق – المدرسة الكُبراوية – نجم الدين داية – مجد الدين البغدادي.

(*) باحث بكلية اللغات، جامعة إشبيلية، إسبانيا.

The Treatise of the Lover’s Message to the Beloved in Explaining that the Sufi Is an Eternal Being

Dr. Khaled Mohamed Abduh(*)

Abstract

This article deals with the Lover’s message to the Beloved in explaining the Sufi’s saying that Sufi is an eternal being. That saying received great attention from the eminent figures of Persian Sufism. It found acceptance in Sufi circles over the course of two centuries. Though some historians hesitated in attributing it to a specific author. It was once attributed to Sheikh al-Islam al-Harāwī al-Ansārī al-Hanbalī, the author of Manāzil al-Sa’irīn. While others attributed it to Imam al-Khirqānī. In this paper, Abū Bakr ʿAbdullāh b. Šāhāwir al-Rāzī (Najm al-Dīn Dāyah) attributed it to al-Khirqānī. He gave a full explanation for such an attribution. The importance of this treatise comes from the fact that it reveals part of the legacy of the Kubrawiyya school. In it, Najm al-Dīn Dāyah followed in the footsteps and teachings of his sheikh, Majd al-Dīn al-Baghdādī, and tried to develop some of his ideas, which he wrote down in his book Tuhfat al-Bararah fī al-Masā’il al-ʿAšara.

Keywords: Sufi is an eternal being – Lover and beloved – Kubrawiyya school – Najm al-Dīn Dāyah – Majdal-Dīn al-Baghdādī.

(*) Researcher at the University of Sevilla, Spain.

مفتتح

[إلى عُزير شمس رحمه الله، محبة ووفاء لحديثه الذي لم يُنشر عن الكُبراوية]

يذكر أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي الملقب بنجم الدين داية (٥٦٤-٦٥٤هـ/ ١١٦٨-١٢٥٦م) في مقدمة تفسيره للقرآن، طرفًا من رحلته في طريق الله طلبًا للعلم والتحقق، والتي بدأت أواخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان في سن السابعة والعشرين. خرج من الري بلدته، وسافر إلى الشام ومصر، وإلى أرض الحجاز، ورجع من طريق مدينة السلام بغداد، حيثُ أقام في بغداد مدة، ودخل خراسان وخوارزم، وبقي في خوارزم سنتين، ثم رجع إلى العراق مرة أخرى، وطوف بنواحيها، وسافر إلى أذربيجان، ثم رجع إلى خراسان كرَّةً بعد أخرى، طلبًا لسماع الأحاديث عمومًا، والتفاسير على وجه الخصوص، وبقي فيها سنين، ثم عاد إلى العراق، وبقي فيها إلى أنْ آن أوان هجوم التتارية، وذلك في سنة سبع وعشرة وستمائة، ثم سافر من العراق إلى أربيل والموصل وديار بكر، ودخل بلاد الروم، وطوف بها، وأقام بها مدة، ثم رجع إلى أذربيجان، وأقام بها إلى أن ترددت في البلاد أمورٌ ووقائع، وصفها بالعجيبة والغريبة. ووجد في أكثر هذه البلاد ونواحيها «المشايخ المعتبرين قدوة أهل السلوك، فضلًا عن أولياء الله من أصحاب الكرامات والزهاد والعباد والنساك والأئمة المحدثين». فزارهم، وتبرك بهم، واستفاد منهم، وقرأ عليهم. وقد كان كُلُّ واحد منهم آنئذٍ فريد دهره، ووحيد عصره.

أما المشائخ المعتبرون، والعلماء الراسخون الذين خُصوا بالتسليك ممن خدمهم نجم الدين داية، وصحبهم، واستفاد منهم، فأربعة هم سادة القوم، وقادتهم، وملوكهم، وسلاطينهم. فالأول منهم مجد الدين البغدادي، الذي وصفه بقوله: «شيخي وشيخ العالم وقدوتي، وقدوة الأمم في العرب والعجم، الذي هو سيدي ومولاي، ومن به في الله تولاي؛ الشيخ السعيد الشهيد، صفوة الله أبو سعيد شرف بن المؤيد بن أبي الفتح البغدادي، الملقب بالمجد ﵁، وقدس الله روحه. خدمته بخوارزم خمس سنين، وأخذت منه طريقة السلوك والسير إلى الله، ولي منه خرقة الولاية وإجازتها، وإجازة الحديث والرواية، ملازمًا في خدمته، متشرفًا بصحبته، إلى أن استُشهد ليلة الاثنين آخر

جمادى الآخرة سنة ست وستمائة، برّد الله مضجعه، ونور ضريحه، وجزاه الله عني خير جزاء. فإني ممن أحياه الله بأنفاسه الشريفة، له أيادٍ إليّ سابقة، أعد منها، ولا أعددها»[١].

وأما شيخه الثاني، فهو الإمام الرباني والشيخ النوراني نجم الدين الكُبرى، الذي عرفه قائلًا: «شيخي وشيخ شيخي مقتدى العالم بالحق، حجة الله على الخلق، أبو الجناب أحمد بن عمر بن محمد ابن عبد الله الخيوقي[٢]، المُلقب بالنجم الكُبرى، قدس الله روحه، وأكثر فتوحه. كان شيخي في الصحبة والسماع والرواية. استُشهد بخوارزم في شهور سنة سبع أو ثمان عشرة وستمائة».

وأما الثالث فالشيخ المطلق والمقتدي بالحق هادي الخلق، أبو محمد محمود بن خزاداذ بن أبي بكر العراقي، المُلقب بالتاج الأُشْنُهي[٣]، نوّر الله حفرته، ووسع عليه روضته. يقول عنه: «فقد صحبته بدهستان والري وهمدان مدة مديدة، واستفدتُ منه بهمذان سنين عديدة، ولي منه السماعات والإجازة بخطه في المستجازات. توفي بهمذان في شهور سنة عشرين وستمائة».

وأما الشيخ الرابع، فيصفه بقوله: «فهو شيخي أيضًا وشيخ المشايخ في وقته، مقتدى أهل زمانه، عديم المثل في أقرانه، أبو حفص عمر بن محمد السهروردي الملقب بالشهاب، قدس الله روحه، ونوّر ضريحه»[٤].

يؤكد النص السابق صلة المدرستين السهروردية والكُبراوية. ويكشف عن هذه الصلة بالنص المباشر الذي يسرده نجم الدين داية عن مشايخه في الطريق الصوفي. ويؤكد ما أشار إليه جيرهارد بورينغ Gerhard Böwering في مقاله عن أعمال شمس الدين الديلمي (ت٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) والتي رأى فيها حلقة وصل لسد الفجوة بين المدرسة الكبراوية والسهروردية[٥]. فقد نص نجم الدين

---

(١) أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي (نجم الدين داية)، **بحر الحقائق** (تركيا: المكتبة السليمانية، حسن حسني باشا ٣٧): ق ٤/ ب.

(٢) الخيوقي منسوبٌ إلى خيوق، بلدة من بلاد خراسان، والآن من تبع خوارزم. بكسر الخاء المعجمة من فوق بعدها ياء تحتها نقطتان وفتح الواو بالقاف. راجع علاء الدولة السمناني، **رسالة في ذكر أسامي مشايخي** (هارفرد: مطبعة جامعة هارفرد، ١٩٨٨): ٣.

(٣) ذكر السمعاني أن هذه النسبة إلى قرية أُشنة من بلاد أذربيجان. يُقال في النسبة إليها الأُشْنُهي. وربما بالهمزة الأشنائي. **الأنساب** (حيدر آباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٢): ١/ ٢٧٦.

(٤) نجم الدين داية، **بحر الحقائق** (تركيا: المكتبة السليمانية، حسن حسني باشا ٣٧): ق ٥/ أ.

(٥) نشير إلى مقال جيرهارد بوورينغ Gerhard Böwering, "The Writings of Shams Al-Dīn Al-Daylamī." *Islamic Studies* 26, No. 3 (1987): 231-236.



داية على أن تاج الدين الأشنهي، هو أحد مشايخه الكبار. لقد تلقى عنه، ولازمه سنين عددًا. ومن خلال تتبعنا لأعمال الديلمي[٦]، نقف على كون الأشنهي كان تلميذًا ومريدًا له، حتى إن عمل الأشنهي «غاية الإمكان في دراية المكان» نُسب إلى الديلمي للصلة الكبيرة بينهما[٧].

كما يفيدنا نص نجم الدين داية في تحديد تاريخ وفاة الأشنهي ومكانها (توفي بهمذان في شهور سنة عشرين وستمائة)، الذي لا يظهر بشكل محدد في أغلب المصادر التي تشير إلى حياته وآثاره[٨]، ناهيك عن جعلنا نتأكد من تاريخ وفاة مجد الدين البغدادي الذي يحدده التلميذ داية بقوله: «استشهد ليلة الاثنين آخر جمادى الآخرة سنة ست وستمائة». وهو ما ينفي أن تكون وفاة البغدادي في عام ٦١٦هـ وفق ما نص على ذلك في ترجمته[٩].

أظهر نجم الدين داية اهتمامًا بأعمال شيخه وكتاباته وأقواله، فسجل كثيرًا من مرويات شيخه مجد الدين البغدادي[١٠] في تفسيره للقرآن، وأورد جزءًا من الحكايات التي كان يرويها الشيخ للتلاميذ في مجالسه. وأفضل مثال على اهتمام داية بكتابات شيخه ما نقله من أفكار ونصوص في كتابه «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد»[١١]. لكنه أوردها في هذا الكتاب بالعجمية (الفارسية).

---

(٦) راجع خالد محمد عبده، «عبد الملك الديلمي في الدراسات الاستشراقية وشذرات من تفسيره الصوفي»، **مجلة الأبحاث**، Leiden: Brill 68 (2020): 5-46.

(٧) ناقش مجتبى شهسواري ما يتعلق بكتاب «غاية الإمكان في دراية المكان» في مقالته بالفارسية، **برخى يادداشتها درباره تفسير فتوح الرحمان في إشارات القرآن**، ومؤلف آن: شمس الدين محمد بن عبد الملك ديلمي همداني، دوره ٢٧، شماره ١٥٧، بهار ١٣٩٥: ١٥-١٦.

(٨) راجع علي الرضا قره بلوط، وأحمد طوران قره بلوط، حيث اكتفيا بذكر اسمه «محمود بن خداداد تاج الدين الأشنهي الهمداني الصوفي المتكلم. عاش في القرن الخامس الهجري تقريبًا». **معجم التاريخ، التراث الإسلامي في مكتبات العالم** (تركيا: دار العقبة، ٢٠٠١): ٣٥٨٢.

(٩) راجع عبد الرحمن الجامي، **نفحات الأنس من حضرات القدس** (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣): ٢/ ٥٨٤.

(١٠) لمجد الدين البغدادي مكانة مميزة في المدرسة الكبراوية، أحسن الإشارة إليها فريتز ماير في تحقيقه لعمل الشيخ نجم الدين كُبرى «فواتح الجمال وفوائح الجلال». وقد كان لكتاباته تأثير كبير في الصوفية اللاحقين، ومن هنا قال علاء الدولة السمناني (ت٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م)، في «رسالة الوارد الشارد الطارد شبهة المارد»: «وإن كنت تشتهي سلوك طريقتهم، فالواجب عليك أن تطالع «تحفة البررة في المسائل العشرة»، تصنيف الشيخ الشهيد مجد الدين البغدادي روّح الله روحه». حققت الرسالة Kübra Zümrüt Orhan، ضمن دورة التحقيق التي نظمها مركز البحوث الإسلامية التابعة لوقف الديانة التركي، ونشرتها في *İslâm Araştırmaları Dergisi*, 40 (2018): 95-173.

(١١) نُشر كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» أكثر من نشرة في إيران، ومن خلال تصفحنا لمخطوطات السليمانية في تركيا عثرنا على ترجمة له بعنوان: «إرشاد المريدين إلى المراد في ترجمة مرصاد العباد» لقاسم بن محمود القره حصاري، الحنفي (ت٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)، ويوجد «منتخب المرصاد» مترجم للعربية من الكتاب لا يُعرف مترجمه. تمكّنا من مطالعته بفضل إشارة

فلما رأى أن القارئ العربي قد حُرم فوائد كتابه، ألّف كتابًا بالعربية ليكون دليلًا للسالك مستعينًا بما استنبطه من إشارات القرآن، وتلويحات الأخبار، ورموز المشايخ الكبار، وجعل عنوانه «منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله»(١٢)، بدت فيه استفادته من شيخه مجد الدين البغدادي عميمةً، ففضلًا عن بنائه، نقل أكثر من عشرين ورقة من كتاب تحفة البررة، وتحديدًا في فصل السماع، ناهيك عما يتعلق بالشيخ والمريد(١٣).

ومن الأمور التي تُظهر تأثر نجم الدين داية(١٤) بشيخه مجد الدين البغدادي اهتمامه بأقوال الخرقاني، فقد أورد البغدادي جملة من أقوال الشيخ الخرقاني في «تحفة البررة». ومن ذلك:

سيد عبد التواب في أطروحته عن **التفسير الصوفي للقرآن الكريم** (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦): ٣٧١، والتاريخ المثبت لنسخ نص المنتخب ١٢٩٩هـ، وهو ضمن مجموع يشتمل على رسائل للإمام الغزالي (القاهرة: المكتبة الأزهرية، ٧٢٩ حليم مجاميع ٣٤٧٧٦). ومؤخرًا قدم علي أحمد إسماعيل ترجمة عربية كاملة للكتاب، صدرت بعنوان: «فلسفة التصوف والدعوة إلى الله في كتاب مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» (القاهرة: إيتراك للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢).

(١٢) نشر سعيد عبد الفتاح كتاب «منارات السائرين ومقامات الطائرين» في (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣). ثم أعاد نشره في (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠).

(١٣) أورد أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي (نجم الدين داية) ما يتعلق بالخلوة، نقلًا عن تحفة البررة مصدّرًا نقله بهذا النص: «وأما خلوة الأربعينية مع الحق فله شرائط وآداب، سنورد شرائطها كما أورد شيخنا السعيد الشهيد الرباني صفوة الله، أبو سعيد شرف الدين المؤيد البغدادي -رضي الله عنه- وقدس روحه- في الباب الخامس من كتاب تحفة البررة الموسوم به تبركًا بأنفاسه الشريفة، وتيمنًا بألفاظه اللطيفة. قال رضي الله عنه»، **منارات السائرين ومقامات الطائرين** (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣): ٤٠٤-٤٢٤. كما نقل نجم الدين داية فصل السماع من تحفة البررة خاتمًا نقله بهذا النص: «إلى هنا ما ذكره الشيخ الشهيد رضي الله عنه من كتابه الموسوم بتحفة البررة تيمنًا بميامن كلماته الشريفة وإشاراته اللطيفة متبركًا بنتائج أنفاسه العزيزة، ليكون الكتاب بطراز فوائده مطرزًا»، **منارات السائرين ومقامات الطائرين**: ٥١٥-٥٤٦.

(١٤) من الحكايات الطريفة التي تتصل بسيرة مولانا جلال الدين الرومي أن نجم الدين داية كان في قونية، وأُسند إليه الإشراف على أمور زاوية قيصرية. وطُلب منه أن يؤم المصلين، وكان مأمومًا به في الصلاة جلال الدين الرومي وصدر الدين القونوي. فتلا نجم الدين داية سورة «الكافرون»: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكَافِرُون: ١-٦]. وعقب الصلاة التفت الرومي إلى القونوي هامسًا في أذنه: في المرة الأولى حين تلا النجم ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ قصدني. وفي المرة الثانية قصدك! راجع: فروزانفر، **من بلخ إلى قونية: سيرة حياة مولانا جلال الدين الرومي**، ترجمة عيسى علي العاكوب (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦): ٨٧. وترد هذه الحكاية في المصادر الفارسية من باب الطُّرفة، لا من باب الحديث عن التكفير. ذلك أن العلاقة بين صوفية تلك الفترة اتسمت بالتقدير والاحترام. فقد أوصى الرومي (ت٦٧٢هـ) بأن يكون صدر الدين القونوي (ت٦٧٣هـ) هو مَنْ يُقيمُ صلاة الجنازة عليه عند موته. ونعلم زيادة على ذلك أن صدر الدين القونوي كانت صلته وطيدة بتلميذين لنجم الدين الكُبرى، هما سعد الدين بن حَمَوَيْه (ت٦٥٠هـ) ونجم الدين داية (ت٦٧٢هـ). راجع كلود عداس، **ابن عربي: سيرته وفكره**، ترجمة أحمد الصادقي، ومراجعة سعاد الحكيم (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠١٤): ٣٦٢.



«ذُكر أن طائفة أرادوا سفرًا، وأزمعوا على الذهاب، فخافوا على أنفسهم وأموالهم قُطاع الطريق، فذهبوا إلى خدمة الشيخ أبي الحسن الخرقاني، فقالوا: عزمنا السفر وأزمعنا على الرحيل[١٥]، ونخاف في الطريق من قطّاعها، فعلِّمنا شيئًا من الأذكار يحرسنا من كيد الأعداء، فقال الشيخ: سيروا على اسم الله، وإذا ظهر الخوف، فقولوا: «أبو الحسن الخرقاني» تنجوا.

فأنكرت طائفة منهم وقالوا: اسم الله تعالى وقوارع القرآن وآية الكرسي وأمثالها أولى من اسم واحد من المخلوقين، وقبلت طائفة، وانصرفوا منطلقين إلى السفر. فلما أدركهم الخوف وقطاع الطريق تخلص من تحصن باسم الشيخ، وهلك من ذكر اسم الله وتمسك بالآيات والدعوات، وأُغير على أمواله، فازداد تعجب الطائفتين. فلما رجعوا، سأل واحد منهم الشيخ عن هذه الواقعة، وقال: يا شيخ أليس اسم الله أعظم من اسم عباده؟ قال: نعم، قال: فكيف هذه الحالة؟ فقال الشيخ: إنكم ذكرتم اسمًا لم تعرفوا مسماه، فما ذكرتموه على الحقيقة، وإنهم/ ذكروا اسم من عرفوه وهو عارف بالحق، فكأنهم ذكروا الحق»[١٦].

تشير كثرة المرويات عن الخرقاني إلى مكانته عند الصوفية. ومما لفت نظر نجم الدين داية مقولة الخرقاني «الصوفي غير مخلوق». ولأنه ما وجد في مسموعاته ولا في منقولاته أن أحدًا من الصوفية من قبل قد رفع القناع عن جمال هذه المقولة التي وصفها بالبكر الغيبي؛ فقد شد الهمة وبدأ في شرحها في رسالتنا هذه، استجابة لطلب أحد السائلين.

آثار نجم الدين داية

إن ما وصلنا من مؤلفات نجم الدين داية عدد قليل، إذا ما قيس بحياته العلمية الثرية. فقد سبقت منه الإشارة إلى أنه ألّف كتابه «مرصاد العباد» قبل أكثر من ثلاثين سنة على تأليفه لكتاب «منارات السائرين». ومن شرح بدء حاله نعرف أنه صاحَب جُملةً من العلماء الأكابر، وأخذ عنهم. ولعل طريقته في التصنيف تنبئ عن قلم سيال، محب للبيان والشعر والرواية عن أعلام التصوف. وتتخلص آثار نجم الدين داية التي وصلتنا في العناوين الآتية:

(١٥) لعل الأصح: عزمنا على السفر وأزمعنا الرحيل.

(١٦) مجد الدين البغدادي، **تحفة البررة في أجوبة المسائل العشرة**، مخطوط السليمانية: آيا صوفيا، ١٦٩٥.

١- تفسير بحر الحقائق (بالعربية). وهو تفسير للقرآن الكريم تابع فيه نجم الدين داية التقليد الصوفي في تفسير القرآن على طريقة أهل الإشارة(١٧).

٢- رسالة الطيور (بالفارسية). نشرها محمد أمين رياحي(١٨).

٣- رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق. وهي موضوع هذا التحقيق.

٤- رسالة عشق وعقل (معيار الصدق في مصداق العشق) (بالفارسية). نُشرت هذه الرسالة أكثر من نشرة في إيران(١٩).

٥- مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد (بالفارسية). وهو أشهر كتبه وأوسعها انتشارًا في الأدبيات الفارسية، والتركية. نُشر أكثر من مرة في نسخته الفارسية الكاملة، ثم نُشرت منه منتخبات ومختارات، وتُرجم إلى التركية والعربية، كما أشرنا آنفًا.

٦- مرموزات اسدي در مزمورات داوودي (بالفارسية). وهو كتاب يشبه في مطالبه مرصاد العباد. حققه وقدم له محمد رضا شفيعي كدكني(٢٠).

٧- منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله. وهو النسخة العربية التي دونها المؤلف بعد ثلاثين عامًا من تأليفه لكتاب مرصاد العباد. حقق الكتاب سعيد عبد الفتاح، ونشره مرتين الأولى في الكويت، والثانية في مصر(٢١).

---

(١٧) الدراسة الوحيدة بالعربية -فيما نعلم- عن هذا التفسير هي دراسة سيد عبد التواب عبد الهادي، والتي نشرها بعنوان **التفسير الصوفي للقرآن الكريم** (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦). وقد تناول فيها منهج نجم الدين داية في التفسير معتمدًا على نسختين خطيتين للتأويلات النجمية، النص الجامع لتفسير نجم الدين الكُبرى ونجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني. فيما عدا ذلك لم يحقق تفسير نجم الدين داية، ولم يُنشر بالاعتماد على مخطوطاته.

(١٨) راجع نجم الدين داية، **رساله ي الطيور** (به انضمام رتبة الحيات)، به اهتمام محمد أمين رياحي، (تهران: انتشارات توس، ١٣٧١ق).

(١٩) نشرت الرسالة ضمن مجموعة رسائل بالفارسية تتضمن رسالة للهروي الأنصاري وخواجة المغربي، ورسالة نجم الدين داية تتقدم هاتين الرسالتين. راجع: **أركان عرفان «مجموعه چهار رساله مشهور» عقل وعشق،** شيخ نجم الدين رازى؛ **نور وحدت،** خواجه حوراء معروف به مغربى؛ **مباحثه شب و روز، رساله عقل وعشق،** خواجه عبد الله أنصارى (إيران، انتشارات نور فاطمة، ١٣٦١ق): ٥-٥٠.

(٢٠) راجع نجم الدين داية، **مرموزات اسدي در مزمورات داوودي** (تهران: انتشارات مؤسسهي مطالعات اسلامي دانشگاه مك‌گيل شعبهي، چاپ اول، ١٣٥٢ق).

(٢١) من اللافت للنظر كثرة مخطوطات كتاب منارات السائرين، والمنتخبات منه، والترجمات إلى التركية. وقد أشرنا فيما سبق إلى أرقام هذه المخطوطات وأماكن توفرها، مما يسهل على من أراد البحث في تاريخ هذا الكتاب وحضوره في المدونات الصوفية العربية والتركية والفارسية.



رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق

يسر الله لي الحصول على ثلاث نسخ خطية من هذه الرسالة. فشرعت في قراءتها. وترجح لدي أن يكون الأصل المعتمد لهذه النشرة نسخة مراد بخاري ٣١٨. وفيما يلي وصف للنُّسخ الخطية الثلاث وصور لها:

١- نسخة الأصل، وإليها نرمز بحرف الألف. وهي نسخة المكتبة السليمانية بتركيا: مراد بخاري، ٣١٨، بعنوان: «رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق». ويظهر العنوان في الورقة الأولى (٥١ ب). والمخطوط ضمن مجموع يتكون من ٦٧ ورقة. ويتألف مخطوط الرسالة من ٧ ورقات في كل واحدة منها ٢١ سطرًا. وهو كامل استوعب نص الرسالة. وجاء حاويًا لمقدمة التصنيف التي ينص فيها على طلب الشرح. وخط المخطوط واضح وإن كان النص غير مضبوط بالشكل. ولا ذكر للعنوان في تختيم الكتاب. وقد أنهى الناسخ هذه النسخة في أواخر صفر خُتِم بالظفر، سنة إحدى وتسعين وستمائة في بلدة تبريز، حسبما ذُكر في التختيم. وقد نسخه محمد بن الحسين الشيخ الخرقاني. ولا نعرف شيئًا عن هذا الناسخ سوى أنه كان في المدرسة السلطانية في تبريز في القرن السابع الهجري. وفي نهاية كل صفحة يمنى إشارةٌ إلى الكلمة الأولى من الصفحة التي تليها، الأمر الذي يؤكد صحة ترتيب الصفحات. ولا يُظهِر المخطوط أي أثر لملاحظات هامشية أو تعليقات توضيحية بين السطور، باستثناء التصحيحات التي يقوم بها الناسخ والاستدراكات التي تؤكد تصحيحه للنسخة وتحريره لها على نسخة أخرى لم يشر إليها.

٢- نسخة باريس، وإليها نرمز بحرف الباء. وبياناتها: ʿAbd Allāh Ibn Muḥammad Šāhwar Al-Asadī Nağm Al-Dīn Dāya. Risālat Al-ʿāšiq Ilā L-Maʿšūq. Arabe 760, 57-61، بعنوان: «رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح قول من قال الصوفي». ويظهر العنوان في الورقة الأولى (٧٥ ب). والمخطوط ضمن مجموع يتكون من ٩٨ ورقة. ويتألف مخطوط الرسالة من ٥ ورقات في كل واحدة منها ٩١ سطرًا. وهو كامل استوعب نص الرسالة. وجاء حاويًا لمقدمة التصنيف التي ينص فيها على طلب الشرح. وخط المخطوط واضح وإن كان النص غير مضبوط بالشكل. ولا ذكر للعنوان في تختيم الكتاب. والمخطوط بخط النسخ. وقد أنهى الناسخ هذه ضحوة نهار الجمعة، ثامن عشر شهر صفر من سنة ثلاث وخمسين

وثمانمائة، حسبما ذُكر في التختيم. ولا نعرف شيئًا عن الناسخ. كما لا يُظهِر المخطوط أي أثر لملاحظات هامشية أو تعليقات توضيحية بين السطور.

٣- نسخة المكتبة السليمانية بتركيا: جار الله، ٢٠٦١. وإليها نرمز بحرف الجيم. ولا تحمل الرسالة عنوانًا في بدايتها. والمخطوط ضمن مجموع يتكون من ٢٠٤ ورقات. ويتألف مخطوط الرسالة من ورقتين في كل واحدة منهما ٣٧ سطرًا. وهو كامل استوعب نص الرسالة. غير أنه جاء خاليًا من مقدمة التصنيف التي وردت في النسخ الأخرى، والتي ينص فيها على طلب شرح مقولة الصوفي غير مخلوق. والمخطوط بخط واضح. والنص غير مضبوط بالشكل. ولا ذكر للعنوان أو تاريخ النسخ أو اسم الناسخ في تختيم الكتاب. كما لا يُظهِر المخطوط أي أثر لملاحظات هامشية أو تعليقات توضيحية بين السطور، سوى بعض التصحيحات البسيطة.



بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

هذه رسالة العاشق إلى المعشوق في شرح كلمات الصوفي غير مخلوق، من تأليف السعيد الشهيد قطب المشايخ والمحققين نجم الملة والدين، أبي بكر عبد الله بن محمد شاهاور الأسدي الرازي، رحمة الله عليه رحمة واسعة[٢٢].

الحمد لله الواحد الأحد القديم، الوهاب الصمد الكريم، الذي هدى خواص عباده إلى حقيقة الدين القويم، والصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم بالفضل العظيم، والكرم الجسيم، وهو صراط الله العليم الحكيم. وصلواته على نبيه المصطفى، وحبيبه المُجتبى، محمد وآله أئمة الهدى، وأصحابه مصابيح الدُّجى، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فقد التمس مني بعض من ألزمتني حقوقُه إجابته في إسعاف مُلتمسه ملتزمًا إصابته، عن مسألة كلَّت ألسنة الفصحاء من العلماء المتقين، واحتبست عن ذكر شرح دقائقها، وحارت عقول المشايخ المحققين، واختنست عن كشف حقائقها. وإلى الآن ما وجدتُ في مسموعاتي ولا في منقولاتي أن أحدًا منهم رفع القناع عن جمال هذا البكر الغيبي، أو كشف عن وجهه برقع الحجاب الربوبي. ولعمري إن المخلوقات أُبدعت لظهور سر هذه المسألة. وهي ما نُقل عن الشيخ الرباني السالك الصمداني أبي الحسن الخرقاني قدس الله/ روحه، وزاد في الفردوس فتوحه، وهو قوله: الصوفي غير مخلوق[٢٣].

---

(٢٢) هذه الديباجة تفردت بها نسخة أ، وليست في ب وج.

(٢٣) راجع مجتبى مينوى، **أحوال وأقوال شيخ أبو الحسن خرقاني**، منتخب نور العلوم (تهران: كتابخانه طهورى، ١٩٨٠): ٨٠. فقد وردت عبارة الشيخ الخرقاني في هذا الموضع، وأشار مجتبى في هامش الصفحة إلى رسالتنا هذه التي شرح فيها نجم الدين داية العبارة. وقارن حسن حنفي، **من البقاء إلى الفناء: محاولة لإعادة بناء علوم التصوف** (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٩): ١/ ٢٣٥. على أن هذه العبارة تم شرحها منْ قِبَل الشيخ يوسف بن أيوب بن يوسف الهمداني (ت٥٣٥هـ) في رسالة بعنوان: «صفاوة التوحيد لتصفية المريد»، ونشرها عبد الجليل مسگر نژاد في **مجلة معارف مرداد - آبان ١٣٨٠** - شماره ٥٣: ١٥٣- ١٦٨. وفيها نسب الهمداني المقولة للشيخ الهروي الأنصاري (ت٤٨١هـ)، يقول في مقدمتها: «فقد اقترح عليّ بعضٌ من خيارِ الطلابِ وكبارِ الأصحابِ -جمعَ اللهُ شملهم وكثر في المسلمين مثلهم- أن أشرحَ الكلمةَ المرويةَ عن الإمامِ شيخِ الإسلامِ، أبي إسماعيل عبد الله محمد الأنصاري الهروي -قدس الله روحَه، وأدر عليه فتوحَه- وهي قوله: «الصوفي غيرُ مخلوقٍ». فتلقتُه

فاستخرتُ الله تعالى، وشرعت بعون الله وحسن توفيقه في تحرير مبانيها وتقرير معانيها، وأسأل الله تعالى أن يفتح عليّ أبواب فضله ورحمته، ويُثبت قدمي على الصراط المستقيم[٢٤] بنظر عنايته ونور رعايته، ويوفقني لإدراك حقائق حكمته، وتيسير بيان إرادته. والمأمول من كمال كرمه وعميم نعمه بأن[٢٥] يجيب دعائي، ولا يخيب رجائي. فأقول وبالله التوفيق:

إنا نحتاج في حل مشكل هذه المسألة للتفهيم والتفهم، وحفظ الفاهم عن المزلات عند التوهم إلى مقدمات ومُثل، يستعد بها الطالب الراغب لكشف حقائقها ورشف دقائقها. فاعلم[٢٦] أن الله تعالى لما أراد وأحب أن يُعرَف، خلق الخلق ليُعرَف، كما قال تعالى، حين سأله داود عليه السلام، فقال: يا ربِّ لماذا خلقت الخلق؟ قال تعالى: «كُنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرَف، فخلقتُ الخلق لأن أُعرَف».

فخلق بقدرته الكاملة وحكمته الشاملة شجرة المخلوقات بأسرها، علويها وسفليها، مُلكيها وملكوتيها، غيبيها وشهادتيها. ثم جعل ثمرتها آدم عليه السلام. فكما أن الثمرة تكون سلالة استُلت من جميع أجزاء الشجرة، كذلك كان آدم عليه السلام، استُلت من جميع أجزاء المخلوقات، غيبها وشهادتها/ فكان زبدة العالمين وخلاصتها، مع زيادة لم توجد فيها، وهي ما شُرِّف به آدم وأكرم بكرامته، من الروح المشرف بتشريف إضافته إلى الحضرة، وبالنفخة الخاصة، كما قال تعالى: ﴿**وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر: ٢٩].

ولما كان الله تعالى عالم الغيب والشهادة وأراد أن يُعرَف، فجعل[٢٧] من شخص آدم مرآة مركبة من الغيب والشهادة، قابلة للتجلي ذاته وصفاته، لها صورة كثيفة من عالم الشهادة، ومعنى لطيف

جماعةٌ بالقبولِ، وتنفرت عنه أقوام من أهل الفُضولِ. فذكرتُ نُبذًا من حقائقه، وشرحتُ نُتفًا من دقائقه، تثبيتًا للمقربين على إقرارهم، وتخريبًا على المنكرين قواعد إنكارهم، وإلى الله الرغبة في تزيينه وتحسينه. وسميتُ هذه الرسالة «صفاوة التوحيد لتصفية المريد»: ١٥٩. وقد كتب ولي الله ساكي وميثم خوئيني مقالة (بالفارسية) بعنوان «مفهوم «الصوفي غير المخلوق» با تأكيد بر تعبير بقا در دو مكتب هجويرى ومولوى» تناولا فيها المقولة وصداها في أعمال الهجويري (ت٤٦٥هـ) وجلال الدين الرومي. راجع **مجلة عرفان إسلامي**، دوره ١٤، شماره ٥٥، خرداد ١٣٩٧: ٨٩-١٠٨.

(٢٤) (الصراط المستقيم) في ب، وفي أ (صراط مستقيم).

(٢٥) (بأن) كذا في الأصل، ولعل الأصوب (أن).

(٢٦) من هذا الموضع بداية نسخة ج.

(٢٧) (فجعل) كذا في الأصل، ولعل الأصوب (جعل).



من عالم الغيب، مستعدة لقبول الفيض الإلهي بالتجلي، كما قال ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[٢٨]، فتجلى فيه، ليكون بالخلافة عالم الغيب والشهادة، حين يعرف نفسه أنها مرآة يتجلى الله فيها، فيعرف الله، فإنه من عرف نفسه بالمرآئية المتجلي فيها ربه، فقد عرف ربه بربه، كما قال عليه السلام: «عرفت ربي بربي»[٢٩].

وهذا سر قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. وحقيقة الأسماء هي ذات الله وصفاته، وغيرها من الأسماء. وتعليمها آدم بتجلي مسمياتها فيه. فافهمه جدًّا. ثم إنه تعالى لما جعله متصفًا بصفاته، فعلمه اسم وحدانية ذاته بوحدانية نفسه، لأنه كان وحدانيًّا في ذاته وصفاته، إذا لم يكن معه في المخلوقات آدم آخر، ولا جنس يشبه جنسيته. وعلمه بتجلي حياته فيه أنه حي، وبسمعه أنه سميعٌ، وببصره أنه بصيرٌ، وبكلامه أنه متكلمٌ، وبعلمه أنه عليمٌ/ وبقدرته أنه قادر، وبإرادته أنه مريدٌ، وببقائه أنه باقٍ.

وهذا تحقيق قوله ﷺ أن الله خلق آدم على صورته، أي على صفته. فإنه يُعبِّر عن الصفة بالصورة. يُقال صورة هذه المسألة كذا وكذا. ولهذا المعنى كان مختصًّا بالخلافة في الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. واختصاصه بالخلافة في الأرض بأنه جعل روحه مرآة قابلة لصفاته في عالم الأرواح خلافة عنه تعالى، بأن كان سميعًا بصيرًا متكلمًا حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا باقيًا. وجعل قلبه مرآة قابلة لصفات روحه في عالم الملكوت خلافة عن الروح. وكذلك جعل قالبه مرآة قابلة لصفات قلبه في عالم الأجساد، خلافة عن القلب بأن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا باقيًا. فإذا كمل شخص الإنسان ولم تصدأ مرآة قلبه برين صفات نفسه الأمارة بالسوء وصداء متابعة الهوى، يكون خليفة الله في أرضه، وآدم وقته.

كما كان داود عليه السلام مأمورًا به، لقوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. يعني لا تُصدأ مرآة قلبك بصداء الهوى،

---

(٢٨) (خلق آدم على صورته) في ب، وفي أ وج (خلق آدم). والحديث أخرجه البخاري في الاستئذان، حديث (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة، حديث (٢٦١٢).

(٢٩) تُنسب المقولة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكثيرًا ما توردها المصادر الصوفية وتستشهد بها، ومن ذلك ما أورده الفخر الفارسي الفيروزآبادي (ت٦٢٢هـ) في حديثه عن الإيمان، «وقال فيه أبو بكر الصديق: عرفت ربي بربي. رأى قلبي ربي. وقال علي بن أبي طالب: لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقينًا». راجع كتاب **جَمْحَة النهى من لَمْحَة المَها**، مخطوط المكتبة السليمانية، ولي الدين أفندي، ١٨٢٨، ورقة ٤٤/ ب. وانظر ما أورده القشيري حول هذه الفكرة في **الرسالة** (جدة، بيروت: دار المنهاج، ٢٠٢٠): ٤٣٤.

فتُحرم عن قبول نور الهدى، وذلك لأن الله تعالى لا يتجلى لشيء كما يتجلى لمرآة قلب الإنسان. فإنه ليس في العالم مصباح يستضيء بنار نور الله، فيظهر/ أنوار صفاته في الأرض خلافة عنه، إلا مصباح سر الإنسان. فإنه مستعد لقبول فيض نور الله، لأنه أُعطي مشكاة جسد فيها زجاجة قلبٍ، كأنها كوكبٌ درِّيٌّ من نور العقل، الذي هو شعاع زيت الروح، في زجاجة القلب، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ من شعاعِ العقل للعاقل معرفةَ الله، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نورِ الله، ولم يضئ. وجعل في زجاجة القلب مصباح السر، وفي مصباح السر فتيلة الخفي، وهو سر السر.

فإذا أراد الله أن يجعل في الأرض خليفة تجلى بأنوار جماله. وجلال المصباح سر الإنسان المنور بنور العقل، الذي لا سبيل له إلى المعرفة الحقيقية. فيكون نور التجلي نورًا على نور العقل. فيهدي الله لنوره فتيلة الخفي من يشاء[٣٠]. فيستنير مصباحه بنار نور الله. فيكون خليفة الله في أرضه. فيظهر أنوار صفاته في هذا العالم بالعدل والإحسان والرأفة والرحمة لمستحقيها، وبالعزة والقهر والغضب والانتقام لمستحقه، كما أخبر الله تعالى عن حال النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

ولا تظهر هذه الصفات لا على الحيوانات، ولا على الملائكة المقربين، لأنها من نتائج الأمانة التي/ عرضها الله على السماوات، أي على أهل السماوات وهم الملائكة، والأرض أي على أهل الأرض وهم الحيوانات، والجبال، أي على أهل الجبال وهم الوحوش والطيور، فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا لعدم استعداد حملها، وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ لوجود استعداد حملها[٣١].

والأمانة في الحقيقة هي الفيض الإلهي بلا واسطة، وهو الذي سماه[٣٢] الله تعالى نور الله، بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥]، وبقوله: ﴿نُّورٌ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥]. قال النبي ﷺ: «اتقوا فَرَاسَةِ المؤمنِ، فإنه ينظرُ بنورِ اللهِ»[٣٣].

---

(٣٠) يستمد نجم الدين داية هذا المعنى من الكتاب العزيز، من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

(٣١) الآية المشار إليها بتمامها: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

(٣٢) (سماه) في ب، وفي أ (سميه).

(٣٣) رواه الترمذي، حديث (٣١٢٧)، وقال: حديث غريب.



ثم الدليل على عدم استعداد الملائكة لحمل الأمانة التي هي نور الله بلا واسطة، أنهم خلقوا بنور روحاني لطيف غير مرشش عليه من نور ربه، وهو بمثابة زيت الروح في مصباح الإنسان، ولكنه بمعزل عن مشكاة الجسد، وزجاجة القلب، ومصباح السر، وفتيلة الخفي. فلما عرضت أمانة نور الله على زيت وجودهم النوراني الروحاني الغير[٣٤] المرشش برشاش نور الله، مع اعتزاز المشكاة والزجاجة والمصباح والفتيلة إلى زيت وجودهم لحملها، وأشفقن من سطوات جلالها وعظمتها.

وأما الحيوانات وإن كان لها مشكاة الجسد وزجاجة القلب، ولكن لم يكن لها زيتُ الروح العُلوي المنور بشعاع العقل، ولا مصباح السر، ولا فتيلة الخفي؛ فلم تستعد[٣٥]/ لحمل أمانة نار الله ونوره، وحملها الإنسانُ، لأنه خُلِق فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ[٣٦]، مستعدًّا لحمل أمانة نار نور الإلهية، بأن كانت فتيلة خفية في مصباح سره، موقدة من زيت روحه، المرشسش عليه نور نَارِ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ[٣٧]. ومنها قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلقَ في ظُلمةٍ ثم رش عليهم من نُورِه، فمن أصابه ذلك النورُ فقد اهتدى، ومن أخطأه فقد ضل»[٣٨].

فتنورتْ زجاجة القلب، واستنارت منها جميع مشكاة الجسد ظاهرًا وباطنًا، فأشرقت البشرية بنور ربها، فلم يبقَ لظلمات صفاتها مجال الظهور مع استعلاء نور شمس[٣٩] التجلي. ثم تبدل السير بالجذبة فالجذبة، تبعده البشرية عن أنانيته وتقربه إلى هُويته، على قضية «من تقربَ إليّ شبرًا تقربْتُ إليه ذراعًا» إلى أن تورث الجذبةُ مشاهدةً. فالمشاهدة أحضرته معه، وغيبته عن نفسه، إلى أن تثمر المشاهدة المعاينة. فالمعاينة تجمعه به، وتفوته عن نفسه، إلى أن ظهر العيان. فالعيان يسحقه، والعين يمحقه. ثم يحققه الحق ويزهق باطله، فيُكاشف بأنوار غيب الغيب، فيطالع

(٣٤) (الغير) كذا في الأصل، ولعل الأصوب (غير).

(٣٥) (تستعد) في أ، وفي ب (يستعد).

(٣٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

(٣٧) استمداد من قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ. ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦-٧].

(٣٨) أخرجه الحكيمُ الترمذي في **نوادر الأصول**، حديث (١٥٥٥)، ويُنظر ابن حجر، **إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة**، حديث (١١٩٠٤).

(٣٩) (شمس) في أ، وفي ب (الشمس).

أسرار الملك والملكوت بأداة ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ويُوله في تيه العظموت والجبروت.

فانمحت الجهاتُ حينئذٍ، وتلاشت الصورُ، وانطمست الأبعاضُ، وانعدمت/ الأجزاءُ، وبسطت[٤٠] عزة الوحدانية، وتجلى نور الصمدانية الربانية، فتدكدك جبل الإنسانية، وخر موسى الروحانية صعقًا، فاحترقت الغيرية بنار الغيرة، وارتفعت الشركة، وبقيت الوحدة متعززة برداء الكيمياء والعزة، متزرة بإزار العلاء والعظمة، وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

ولعمري إن هذا حال مَن كُوشف بأسرار كنتُ كنزًا مخفيًّا. فلما كُشف الغطاء وذهب الجفاء ورُفع الخباء[٤١] فطُويت الأرض والسماء؛ ظهر الخفاءُ ودام اللقاء فمَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ[٤٢]، ولا القلب ما روى. فرعى في رياض المعرفة، وشرب من حياض المحبة، وسُقي بكأس شراب طهور الجلال من دِن الوصال. فاستراح من ضروب القيل والقال وكثرة السؤال وتغير الأحوال، إذ تجافى عن المحاط المطلق المحيط به الغيب المحاط المحيط به غيب الغيب المحيط المطلق، فتحقق له حقيقة ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤].

كما قيل شعرًا :

أبــانَ الحــق ليسَ لهُ[٤٣] خَفا ... وبـاح الـسرّ وانكَشَف الغَطا
فنَفْسي زائلةٌ والــروحُ بـادتْ ... فلم يـبـقَ التــكـدُّر والصَّفا
تجلَّتْ سَـطْـوَة الجــبروتِ حتى ... فُنينا ثــمّ قــد فَـــنِيَ الفَنا
بــقــاءُ الحـــقِّ أفــنــانــا وأفــنى ... بـقـاءَ فنائنا ذاكَ البَـقـا[٤٤]

(٤٠) (وبسطت) في أ، وب (وانبسطت).

(٤١) (وذهب الجفاء ورُفع الخباء) في أ، وب (وذهب الجفاء ورُفع الجفاء).

(٤٢) استمداد من قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١].

(٤٣) (له) كذا في أ وب وفي مخطوط **منارات السائرين ومقامات الطائرين** (به) (تركيا: السليمانية، فيض الله، رقم ١٢٧٥) ورقة ٢٠/ أ.

(٤٤) في ب أثبتت الهمزة في (الغطاء، الصفاء، الفناء، البقاء). وقد أورد نجم الدين داية الأبيات في **منارات السائرين ومقامات الطائرين** منسوبة له (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣): ٦٠.



فهذا مقام الصوفي الذي أفنى ناسوتيته في لاهوتية الحق تعالى. فبقي معه بلا هو. كما قال تعالى في الحديث[45] الرباني/: «لا يزالُ العبدُ يتقربُ إلي بالنوافلِ حتى أحبهُ، فإذا أحببتُهُ كنتُ له سمعًا وبصرًا ويدًا ولسانًا، فبي يسمَعُ، وبي يُبصِرُ، وبي ينطق، وبي يبطِشُ»[46] الحديث.

فهذا يشير إلى كمالية مصافاة[47] الصوفي بينه وبين الله في إزالة كدورة ظلمة الخلقية، بمصقل كلمة لا إلٰه إلا الله عن مرآة القلب، حتى تجردت الكلمة عن كسوة الحروف. وانفتح في عين شمس القلب باب الهوية. وانغمس فيه المنغمس. وتبدلت ﴿ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فعلى قضية شيمة الكرم بقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. تتبدل الذاكرية بالمذكورية، والمذكورية بالذاكرية. فيفنى الذاكر المخلوق في الذاكر الغير المخلوق. ويبقى المذكور القديم خليفة الذاكرين. فلما صفا الصوفي عن كدورة المخلوقية بتجلي نور القدم حينئذٍ إذا طلبت الذاكر[48] وجدت المذكور. وإذا طلبت المذكور وجدت الذاكر:

فَــــإذا أبــصَرْتَــنـــا أبــصرتَــهُ وإذا أبـــصرتَـــهُ أبــصَرْتَــنـــا

وإذا أمعنت النظر وجدت الصوفي الحقيقي بهذه الصفة سيدَ الأولين والآخرين، محمد المصطفى صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين.

ومن بلغ من أمته هذا المقام السَّني فإنما يبلغ في ظل راية متابعة النبي ﷺ. فإن الله شرَّف أمته بقوله تعالى: ﴿لَّكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فإنه الصوفي الذي أُخرج ليلة المعراج عن قرب/ قاب قوسين المخلوقية بجذبة «ادْنُ مني واقعد بلا هو» على بساط قرب أو أدنى الخالقية في خلق «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبي مرسل»، أراد بالنبي المرسل وجوده

(٤٥) (الحديث) في ب، وفي أ (حديث).

(٤٦) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة بلفظ مقارب.

(٤٧) (مصافاة) في أ، وفي ب (مضافات).

(٤٨) (طلبت الذاكر) في ب، وفي أ (طلبت).

المخلوق. وهذا مقام العبدية الخالصة عن رق المخلوقات. وهذا مقامه المحمود، الذي اختُص به. فبعثه ربه إليه، حيث لم يبقَ له أنانية يُضاف إليه. وقد كان يقول ﷺ: «أما أنا فلا أقول أنا»(٤٩).

وبه فُضِّل على الأنبياء، لأنهم من بقايا الوجود المخلوق فيهم. يقولون يوم القيامة: «نفسي نفسي»، وهو ﷺ يقول عند فناء الوجود: «أمتي أمتي». وقد أخبر الله تعالى عن كمالية فناء الوجود المجازي المخلوق وبقائه بالوجود الحقيقي، الذي هو غير المخلوق، بقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]. وبقوله: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: ١٠].

فهو الذي كان روحه بذر شجرة الموجودات، إذ كان أول شيء تعلقت به القدرة، بقوله ﷺ: «أول ما خلق الله تعالى روحي»، وفي رواية «نوري»(٥٠). وهو الذي وجد رتبة كمالية الثمرية على شجرة المخلوقات، وإن كان الأنبياء كلهم ثمار شجرة المخلوقات، لأنهم وجدوا هذه الرتبة بتبعيته. إذ لو كان روحه بذر هذه الشجرة لكان شخصه ثمرة شجرة المخلوقات بالأصالة، وغيره من الثمرات تبع له. ولهذا كان يقول: «آدم ومَن دونه تحت لوائي/ يوم القيامة»(٥١). ويقول: «نحن الآخرون السابقون»(٥٢). يعني السابقين بالبذورية والآخرين بالثمرية. وإنما سُمي حبيب الله لأنه كان المشار إليه بقوله تعالى: «أحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لأُعرف»(٥٣).فكان هو العارف المحبوب، الفاني عن وجوده، الباقي بربه، حتى قال: «عرفتُ ربي بربي، ولولا فضل ربي ما عرفت ربي»(٥٤). هذا ما أردتُ اختصاره عن قصة طويلة. (شعر):

على هذِهِ النُّبْذَةِ القَصيرةِ فَاقْتَصِرْ   ففي قِصَّتي طُـولٌ وَأنْـتَ مَلُولٌ

---

(٤٩) لم نقف عليه بلفظه. لكن ثمة حديث مشابه يؤدي هذا المعنى «ما سُئِلَ رَسولُ اللهِ ﷺ شيئًا قَطُّ، فَقالَ: لَا». وهو في صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حُسن الخلق والسخاء؛ وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سُئِلَ رَسولُ اللهِ شيئًا فقال لا قَطُّ.

(٥٠) قال السيوطي في تخريج أحاديث شرح المواقف للجرجاني: لا يحضرني بهذا اللفظ. لكن في مسند ابن عمر المدني عن ابن عباس أن قريشًا كانت نورًا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام. يسبح ذلك النور. وتسبح الملائكة بتسبيحه. فلما خلق الله آدم أبقى في صلبه. قال رسول الله ﷺ: فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم. ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوين لم يلتقيا على سفاح قط. راجع السيوطي، **تخريج أحاديث شرح المواقف للجرجاني** (الكويت: دار الأقصى، ١٩٨٥) حديث رقم ١٢: ١٢-١٣.

(٥١) جزء من حديث، أخرجه أحمد في مسنده، حديث (٢٦٩٢).

(٥٢) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث (٢٣٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء بلفظ «فأحببتُ أن أُعرف، فخلقتُ خلقًا، فعرفتهم بي، فعرفوني»: ٢/ ١٣٢، حديث (٢٠١٦).

(٥٤) تُنسب العبارة في المصادر الصوفية إلى ذي النون المصري، وأوردها أبو طالب المكي بلفظ «وقيل لذي النون: بماذا عرفت الرب؟ قال: ربي أجلّ من أن يُعرف بشيء، ولكن عرفتُ ربي بربي، وعرفتُ ما دون ربي بربي». أبو طالب المكي، **علم القلوب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٤): ١٠١.

وكان من دعاء الصوفي الحقيقي ﷺ: «يا مُقلبَ القلوبِ ثَبتْ قلب عبدك على دينِك وطاعتك»[٥٨]. وقوله: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أقل من ذلك»[٥٩]. فإنه من وُكِّل إلى نفسه يعود الموشوم إلى طبعه من الأخلاق البشرية، بل السبعية والشيطانية، كما أن الشمس إذا وكلت الليل إلى نفسها ورفعت النظر عنها، تعود إلى ظلمتها الطبيعية. وقد عز جناب القدس الصمداني عن وصمة الاحتياج بالغير. وتنزه عن شين التغير. فلا يُقاس الملائكة بالحدادين[٦٠].

والدلائل على الفرق المذكور[٦١] أكثر من أن تُحصى وتُعد. فاقتصرنا على هذا المقدار[٦٢]. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله أجمعين.

تمت الرسالة على يَدَي الفقير الجاني محمد بن الحسين الشيخ الخرقاني، في أواخر صفر خُتِم بالظفر، سنة إحدى وتسعين وستمائة في بلدة تبريز[٦٣].

---

(٥٨) أخرجه الترمذي في جامعه، حديث (٣٥٢٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٥٩) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح. ورواه المناوي في فيض القدير، حديث (١٤٧٨).

(٦٠) هذا مثل في كل شيئين لا تساوي بينهما. راجع محمد بنشريفة، **تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب** (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦): ٤٦١.

(٦١) (على الفرق المذكور) في ج، وفي أ وب (عن الفاروق).

(٦٢) عند هذا الموضع تنتهي نسخة ج من دون خاتمة.

(٦٣) خاتمة نسخة ب (كُتب ضحوة نهار الجمعة، ثامن عشر شهر صفر من سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة).

- علاء الدولة السمناني، **رسالة في ذكر أسامي مشايخي** (هارفرد: مطبعة جامعة هارفرد، ١٩٨٨).
- علي أحمد إسماعيل، **فلسفة التصوف والدعوة إلى الله في كتاب مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد** (القاهرة: ايتراك للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢).
- علي الرضا قره بلوط، وأحمد طوران قره بلوط، **معجم التاريخ، التراث الإسلامي في مكتبات العالم** (تركيا: دار العقبة، ٢٠٠١).
- الفخر الفارسي، **جَمْحَة النهَى من لَمْحَة المَها**، مخطوط المكتبة السليمانية، ولي الدين أفندي، ١٨٢٨.
- القشيري، **الرسالة القشيرية** (جدة، بيروت: دار المنهاج، ٢٠٢٠).
- كامل مصطفى الشيبي، **شرح ديوان الحلاج** (كولونيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٧).
- كلود عداس، **ابن عربي: سيرته وفكره**، ترجمة أحمد الصادقي، ومراجعة سعاد الحكيم (بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠١٤).
- مجد الدين البغدادي، **تحفة البررة في أجوبة المسائل العشرة**، مخطوط السليمانية: آيا صوفيا، ١٦٩٥.
- محمد بنشريفة، **تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب** (المملكة المغربية: وزارة الثقافة، ٢٠٠٦).

ثانيًا: الأعجمية

- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، نجم الدين داية، **رسالهي الطيور** (به انضمام رتبة الحيات)، به اهتمام محمد أمين رياحي، (تهران: انتشارات توس، ١٣٧١ق).
- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، نجم الدين داية، مرموزات اسدي در مزمورات داوودي (تهران: انتشارات مؤسسهي مطالعات اسلامي دانشگاه مكگيل شعبهي، چاپ اول، ١٣٥٢ق).



- أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازي، نجم الدين دايه، **أركان عرفان** «**مجموعه چهار رسالة مشهور**» **عقل وعشق**، شيخ نجم الدين رازى؛ نور وحدت، خواجه حوراء معروف به مغربي؛ مباحثه شب و روز، رسالة عقل وعشق، خواجه عبد الله أنصارى (إيران، انتشارات نور فاطمة، ١٣٦١ق).
- مجتبى مينوى، أحوال وأقوال شيخ أبو الحسن خرقانى، منتخب نور العلوم (تهران: كتابخانه طهورى، ١٩٨٠).
- مجتبى شهسوارى، **برخى يادداشتها درباره تفسير فتوح الرحمان في إشارات القرآن**، ومؤلف آن: شمس الدين محمد بن عبدالملك ديلمى همدانى، دوره ٢٧، شماره ١٥٧، بهار ١٣٩٥.
- ولي الله ساكى وميثم خوئينى، «الصوفي غير المخلوق با تأكيد بر تعبير بقا در دو مكتب هجويرى ومولوى»، **مجلة عرفان إسلامي**، دوره ١٤، شماره ٥٥، خرداد ١٣٩٧، ٨٩-١٠٨.
- يوسف بن أيوب بن يوسف الهمداني، «صفاوة التوحيد لتصفية المريد»، تصحيح عبد الجليل مسگر نژاد، مجلة معارف مرداد - آبان ١٣٨٠ - شماره ٥٣، ١٥٣-١٦٨.
- Böwering, Gerhard. “The Writings of Shams Al-Dīn Al-Daylamī.” *Islamic Studies* 26, No. 3 (1987): 231-236.



صور المخطوطات

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
هذه رسالة العاشق الى المعشوق في شرح كلمات
الصوفية غير مخلوق من تأليف السعيد الشهيد
وقطب المشايخ والمحققين نجم الملة والدين ابي بكر عبد الله
بن محمد شاهاور بن اسد الرازي رحمة الله عليه رحمة واسعة
الحمد لله الواحد الاحد السلام الوهاب
الوهاب الكريم الذي هدى خواص عباده الى حقيقة
الدين القويم والصراط المستقيم صراط الذين انعمت
عليهم بالفضل العظيم والكرم الجسيم وهو صراط الله
العليم الحكيم وصلواته على نبيه المصطفى وحبيبه المجتبى
محمد وآله ائمة الهدى واصحابه مصابيح الدجى وسلم
تسليما كثيرا اما بعد فقد التمس مني بعض
من الذي ... خفق ... اجابته في اسعاف ملتمسه
ملتزما ما اصابتهم عن ... كلمات السنة الفصحاء العلماء
المتقين واحتبست عن ذكر شرح دقائقها جارت
عقول المشايخ المحققين من اختلفت عن كشف حقائقها
والى الآن ما وجدت في مسموعاتي ولا في منقولاتي ان احدا
منهم رفع القناع عن جمال هذا البكر الغيبي او كشف
عن وجهه برقع الحجاب الربوبية ولعمري ان المخلوقات
ابدعت لظهور سر هذه المسألة وهي ما نقل عن الشيخ
الرباني السالك الصمداني ابي الحسن الخرقاني قدس الله

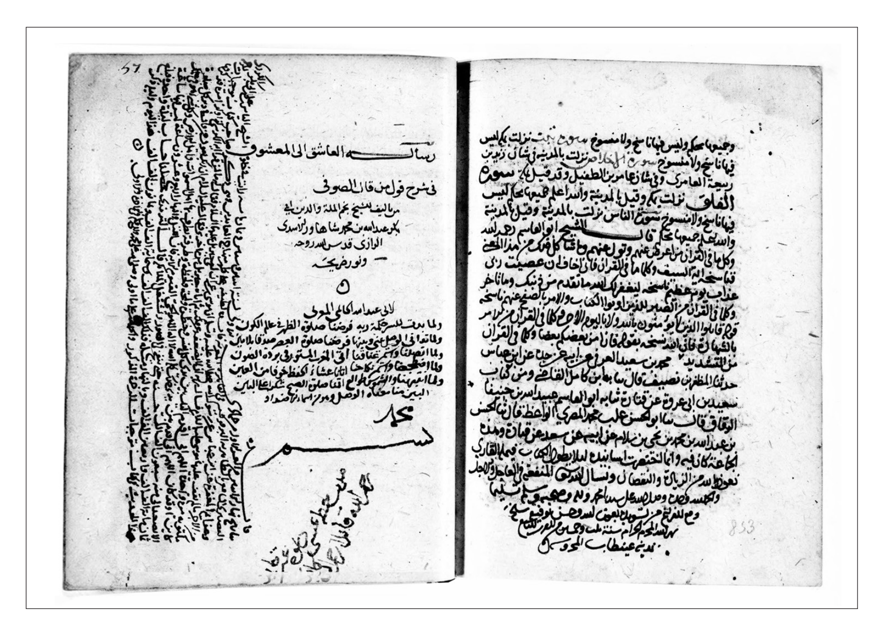
الصفحة الأولى من مخطوط مراد بخاري.



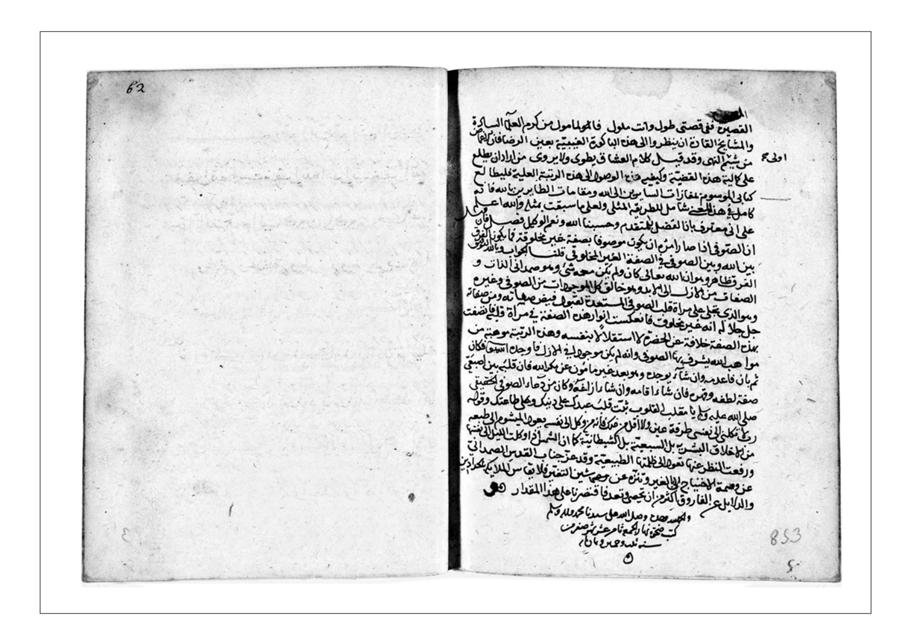
الموجودات من الصوفي وغيره وهو الذي تجلى على مرآة قلب
الصوفي المستعد لقبول فيض صفاته ومن صفاته جل جلاله
أنه غير مخلوق فانعكست أنوار هذه الصفة في مرآة قلبه
فانصبغت بهذه الصفة حالة فنائه عن الحضرة لا استقلالا لا
بنفسه وهذه الرتبة موهبة من مواهب الله شرف
بها الصوفي وأنه لم يكن موجودا في سر أزل فأوجده الله تعالى
فكان ثم بان فأعدمه وإن شاء أوجده وهو بعد غير مأمون
عن مكر الله فإن قلبه بين إصبعي صفة لطفه وقهره
فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه وكان من دعاء الصوفي
الأكمل صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلب
عبدك على دينك وطاعتك وقوله رب لا تكلني
إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك فإنه من وكل إلى نفسه
يعود المشؤوم إلى طبعه من أخلاق البشر تبديل السبعية
والشيطانية كما أن الشمس إذا وكلت الليل إلى نفسها
ورفعت النظر عنها تعود إلى ظلمتها الطبيعية وتقدس عن
جناب القدس لصفاته عن وصمة الاحتياج بالغير
وتنزه عن شين التغيير فلا يقاس الملائكة بالحوادث
والدلائل على ما دون الكثرة أن تحصى وتعد فاقتصرنا
على هذا المقدار والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين

تمت الرسالة على يد الفقير الكامل
محمد بن الحسين الشيخ الخرقاني
في أواخر صفر ختم بالظفر [illegible]
[illegible]

الصفحة الأخيرة من مخطوط مراد بخاري.



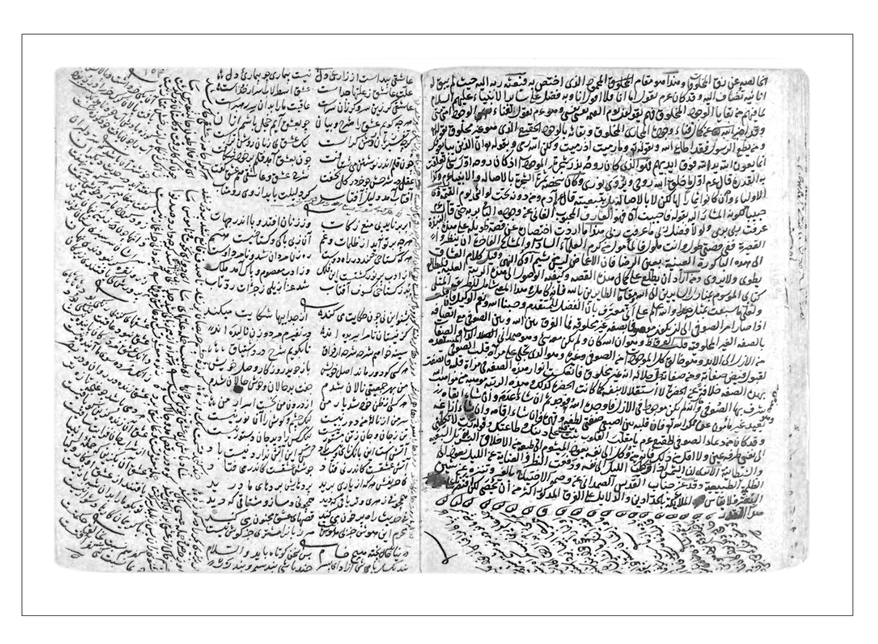
الورقة الأولى من مخطوط باريس.



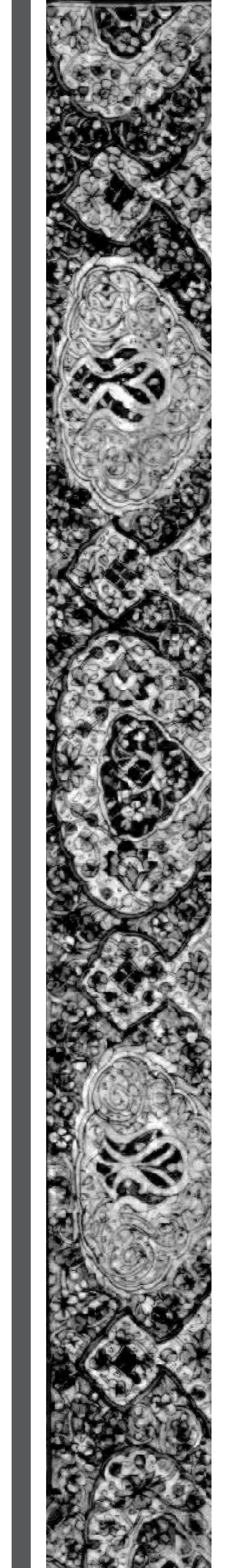
الورقة الأخيرة من مخطوط باريس.



الورقة الأولى من مخطوط جار الله.



الورقة الأخيرة من مخطوط جار الله.



دراسات التحقيق والفهرسة

قطعة جديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان» لابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ) وصف وتقديم وتعليق

د. عبد الجليل شوقي [*]

ملخص البحث

يعد كتاب «التبيان في علم البيان المطلـع على إعجـاز القرآن» لعبد الواحد ابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ) من أهم مصادر النقد والبلاغة القديمة، وقد عرف مخطوطه تحقيقين على الأقل: الأول سنة ١٩٦٤م على يد الباحثَين أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، والثاني سنة ٢٠٢٠م على يد الباحث مصطفى أبو الحجاج محمد النجار، باعتماد نُسخ مخطوطة مودعة في مكتبات وخزانات مختلفة.

وفي هذه الورقة العلمية، أقدم قطعة جديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان» لعبد الواحد ابن الزملكاني، لم يتم اعتمادها من قبل، كُتبت بالغرب الإسلامي بمدينة ألمرية الأندلسية سنة ٨٥٧هـ خلافًا لكل النسخ المعتمدة سابقًا في تحقيق سنة ١٩٦٤م، واصفًا إياها من جهة، ومقدِّمًا تعليقات حول جهود التحقيق التي قام بها كلٌّ من الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي من جهة أخرى.

(*) أستاذ بمختبر «تكامل المعارف في تحليل الخطاب»، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض بمراكش؛ وأستاذ التعليم العالي مؤهل؛ ومدير المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لجهة كلميم واد نون، المملكة المغربية.

وتتجلى أهمية هذه المقالة في:

- التعريف بهذه المخطوطة الجديدة لكل مقبل على تحقيق جديد لكتاب «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن»، سيما وأن هذه المخطوطة مؤرشفة تحت عنوان مضلل بالمكتبة الوطنية بتونس.
- تقديم ملاحظات وتعليقات حول منهجية تحقيق سنة ١٩٦٤م في ضوء هذه النسخة الجديدة، وفي ضوء المستجدات والاكتشافات التي عرفتها ساحة النقد والبلاغة العربية القديمة من تأليفات وتحقيقات.

الكلمات المفتاحية: ابن الزملكاني – التبيان في علوم البيان – النقد والبلاغة – الغرب الإسلامي.

A New Copy of al-Tībyān fī ʿIlm al-Bayān by Ibn al-Zamlakānī (d. 651 AH)

Description, Introduction, and Commentary

Dr. Abdeljalil Chaouki (*)

Abstract

The book of *al-Tībyān fī ʿIlm al-Bayān al-Muttaliʿ alā Iʿjāz al-Qur'ān* by ʿAbdul-Wāhid b. al-Zamlakānī (d. 651 AH) is considered one of the most important sources of ancient criticism and rhetoric. It was critically edited at least two times by collating its manuscript copies in various libraries and treasuries. The first was coauthored by the researchers Ahmed Matloub and Khadija al-Hadithi in 1964, and the second appeared in 2020 by the researcher Mustafa Abu Al-Hajjaj Muhammad Al-Najjar.

In this paper, I present a new copy of the manuscript of *al-Tībyān fī ʿIlm al-Bayān*, which was not edited before. It was written in the Islamic West in the Andalusian city of Almeria in 857 AH, contrary to all previously critically edited copies in the 1964 edition. The paper provides a description of the new copy on the one hand, and comments on the critical editing efforts undertaken by Dr. Ahmed Matloub and Dr. Khadija Al-Hadithi on the other hand.

(*) Research Professor, CRMEF Guelmim Oued Noun, Morocco; and Center of Knowledge Integration in Discourse Analysis, Faculty of Arabic Language, Cadi Ayyad University, Marrakech.

The importance of this paper is evident in:

- Introducing this new manuscript of *al-Tībyān fī ʿIlm al-Bayān* for future researchers, especially since this manuscript is archived under a misleading title at the National Library of Tunis; and
- Furnishing observations and comments on the methodology of the 1964 critical edition in light of this new copy, and in light of recent developments, discoveries, and publications in the field of ancient Arab criticism and rhetoric.

Keywords: Ibn al-Zamlakānī – al-Tībyān fī ʿIlm al-Bayān – Criticism and Rhetoric – Islamic West.

المقدمة

أ- نفاضة الجراب

يحصل أنه في رحلة صيد للنادر من الطرائد، أن تنال رماحنا غير ما نشتهي، ثم نكتشف بعد ذلك أنه من الثمين المطلوب، وإن كان غير ما ننشد، حتى إذا عدنا، ونفضنا الجراب، تناثر منه ما تقر به العين.

وهذا ما حصل لي، ففي سنة ٢٠٠٦م، وعندما كنت بصدد دراسة «المنزع البديع في تجنيس البديع» لأبي محمد القاسم السجلماسي (عاش ٧٠٤هـ)، بدا لي أن المتوفر من المعلومات حول هذا العالم ومؤلَّفه شحيح جدًّا، وبدا لي أن إضاءة هذه الزاوية المعتمة من تراثنا يقتضي الوصول إلى مخطوطات جديدة، سواء للسجلماسي أو لشيوخه أو لتلاميذه أو لمن تناول كتابه بالدراسة والشرح أو الاختصار والتلخيص.

وفي خضم هذا البحث، وقفت في كتاب «النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي» (يزن، ١٩٨٥م، ص: ٤٨٦)، على أن مُؤَلِّفه يشير إلى وجود مخطوط بالمكتبة الوطنية لتونس موسوم بـ«قطعة من السجلماسي في علم البيان والبديع» تحت رقم A-MSS-16066، ويعتقَد أنه اختصار لكتاب «المنزع البديع لتجنيس البديع»، من تأليف ابن ليون التجيبي (ت ٧٥٠هـ)، وهو الرجل الذي عُرِف باختصاراته المتعددة لعديد من المؤلفات؛ على الرغم من تأكيد علال الغازي -محقق كتاب «المنزع البديع»- أن هذا المختصر مفقود. فتحركتْ فيَّ حمية الحماسة والرغبة في الوصول إلى هذا السِّفْر المخطوط؛ وبدأت في سلك المساطر الإدارية لجلب نسخة منه.

بعد فترة من المراسلات مع المكتبة الوطنية بتونس، حصلت على الميكروفيلم الخاص بهذه القطعة من المخطوط، وقمت بنسخه ورقيًّا؛ وبدأت في قراءته. ففوجئت أن هذا المخطوط لا يمكن أن تكون له أية علاقة مع «المنزع البديع»، اختصارًا أو شرحًا، سواء من خلال البنية الداخلية للنص، أو من حيث منهجية التأليف، مستعينًا بمعرفتي وملازمتي اللصيقة بالمنزع وصاحبه منذ سِنِي التكوين بالدراسات العليا المعمقة، فقد كان أحد محورَي رسالتي لنيل هذا الدبلوم نهاية ٢٠٠٦م.

ولمَّا لم يكن ما في الجراب هو المقصود، وضعت هذا المخطوط جانبًا، وواصلت مشوار البحث في سلك الدكتوراه، لكن بقي في النفس حاجة؛ حول هوية هذا المخطوط، وحول صاحبه المجهول، إلا أن مشاغل البحث العلمي الأكاديمي والإكراهات المهنية أبعدتني عن النظر فيه ومدارسته.

ومنذ ذلك التاريخ بقي السؤال مطروحًا: ما الذي دفع الباحث يزن للاعتقاد بذلك؟ وهو الذي لم يتوسع في طرح الموضوع، وإنما اكتفى بإشارة عابرة في هامش التوثيق، مغلقًا إياها بقوله: «ولعل هذا المختصر هو الموجود في المكتبة القومية التونسية، رقم ١٦٠٦٦ باسم متن السجلماسي» (يزن، ١٩٨٥م، ص: ٤٨٦).

ويبدو أن الأسباب التي دفعت الباحث يزن للاعتقاد بوجود مختصر للمنزع بهذه المكتبة من تأليف ابن ليون التجيبي هي:

- وجود جملة على وجه المخطوط: «قطعة من السجلماسي في علم البيان والبديع»؛ ووجود عبارة في أسفل الصفحة الأخيرة: «تأليف الشيخ الإمام العالم القاسم بن محمد بن عبد الله الأنصاري السجلماسي في البيان والبديع»؛ وحجم المخطوط الأصغر من حجم المنزع، دفعه للاعتقاد أنه مختصر له.
- إنهاء الناسخ المخطوطَ بعبارة: «تم بتاريخ العاشرة لشهر جمادى الأول من عام سبعة وخمسين وثماني مئة (٨٥٧هـ) بمدينة ألمرية أحاطها الله والحمد لله أفضل الحمد سبحانه»، وكأنه ربط بين مدينة ألمرية موطن ابن ليون التجيبي وجهوده في التلخيص.

وأما الأسباب التي قد تكون وراء أرشفة هذا المخطوط ونسبته للقاسم السجلماسي بالمكتبة الوطنية لتونس، فمن المحتمل:

- أن تكون جملة «قطعة من السجلماسي في علم البيان والبديع» مكتوبة بخط قيِّم الخزانة، أو مَن هو مكلف بأرشفة المخطوطات. ولا أدري على أي أساس بنى توصيفه هذا للمخطوط دون قراءته.



- أن تكون المكتبة اشترت هذا المخطوط على هذا الحال؛ والعنوان مكتوب من طرف ناسخ هذا المخطوط أو مالكه؛ جهلًا، أو خطأً، أو طمعًا في ربح مادي لأنه يعرف قيمة السجلماسي لدى العلماء والباحثين.

ب- نية التحقيق

وفي سنة ٢٠٢٢م، قررت أن أقوم بتحقيق هذه القطعة من المخطوط، لكن بعد شهور من الجهد المضني، توصلت إلى أن هذه القطعة ما هي إلا قطعة من مخطوط كتاب «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» لعبد الواحد ابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ).

وحيث إن هذا المؤَلَّف قد حُقِّق مرتين على الأقل منذ أول تحقيق في ١٩٦٤م، بدا لي أن أصرف النظر عن تحقيقه، إلا أن الملاحظات التي دونتها خلال رحلة دراسة وتحقيق هذه القطعة قد يكون لها فائدة للباحثين المقبلين على إعادة تحقيق هذا المؤلف، فضلًا عن الإسهام في تصحيح الأرشفة على مستوى المكتبة الوطنية بتونس.

وتتجلى أهمية هذه القطعة من مخطوط «التبيان في علم البيان» في أنها مكتوبة بخط مغربي، ومنسوخة بالغرب الإسلامي (ألمرية) في زمن (٨٥٧هـ) القريب إلى زمن التأليف (٦٣٧هـ).

وسأقوم في هذه المقالة بتوصيف هذه القطعة من المخطوط والتعليق عليها، ثم أقدم ترجمة لابن الزملكاني في ضوء المعارف المتراكمة في المعاجم والتراجم وسائر المؤلفات، ثم أعلق على بعض المحاور المرتبطة بمنهجية تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، في ضوء هذه القطعة الجديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان».

أولًا: توصيف القطعة الجديدة من مخطوط «التبيان في علم البيان»

تتوفر المكتبة الوطنية بتونس على قطعة من مخطوط موسوم بـ«قطعة من السجلماسي في علم البيان والبديع» تحت رقم A-MSS-16066، وتقدمه المكتبة سواء في فهارسها أو على موقعها الإلكتروني(١) بـ«كتاب في علم البيان والبديع للسجلماسي» تحت الرقم نفسه.

حصلت على هذه القطعة من المخطوط من خلال مراسلة المكتبة الوطنية بتونس واقتنائه على حامل ميكروفيلم، ثم قمت بنسخه ورقيًا بالمركز الوطني للتوثيق بالرباط(٢).

هذه القطعة عبارة عن ٤٤ ورقة، أي ٨٨ صفحة، وكل صفحة تضم ستة عشر (١٦) سطرًا.

من خلال الورقة الحافظة، نجد أن صاحب المخطوط قد أوقفه على المكتبة الأحمدية بالجامع الأعظم بتونس بوصفه مقر خزائن الكتب الموقوفة، في أواخر محرم الحرام ١٢٥٧هـ، وتم وضعه بدار الكتب الوطنية بتونس (المكتبة الوطنية بتونس).

---

(١) https://www.bibliotheque.nat.tn.

(٢) https://cnd.hcp.ma/.

الورقة الحافظة.

تبتدئ القطعة التالية للمخطوطة على النحو التالي: «زيد منطلق، كان كلامك مع من لا يعلم انطلاقًا لا من زيد ولا من غيره، فأنت تفيده ذلك...». وهذه البداية تصادف الفن الثالث الموسوم بـ«الفن الثاني في خبر المبتدأ»، من الركن الثاني الموسوم بـ«في مراعاة أحوال التأليف».

بداية نص المخطوطة.

وتنتهي القطعة بانتهاء الكتاب؛ حيث تتضمن الصفحة الأخيرة:

١- تاريخ ومكان نسخ هذه المخطوطة في القرن التاسع للهجرة عام ٨٥٧هـ بمدينة ألمرية بالأندلس؛ «تم بتاريخ العاشرة لشهر جمادى الأول من عام سبعة وخمسين وثماني مئة (٨٥٧هـ) بمدينة ألمرية أحاطها الله والحمد لله أفضل الحمد سبحانه». كما نرى أن هذه الصفحة لا تحمل اسم الناسخ أو المؤلف كما هي عادة النساخ والمؤلفين في بعض المخطوطات.

٢- طابع «دار الكتب الوطنية بتونس».

٣- إضافات ليست من نفس خط الناسخ:

- الإضافة الأولى في أعلى الصفحة: «الشيخ السجلماسي في البيان والبديع».
- الإضافة الثانية في أسفل الصفحة: «تأليف الشيخ الإمام العالم القاسم بن محمد بن عبد الله الأنصاري السجلماسي في البيان والبديع».
- الإضافة الثالثة في أسفل الصفحة: جدول ونص مكتوبان بنفس خط الإضافة الثانية غير مقروأين.





الصفحة الأخيرة.

كُتِبت هذه النسخة بخط مغربي جميل وواضح ومقروء، مشكول شكلًا غير تام، مع غياب الأخطاء اللغوية والنحوية، مما يدل على أن ناسخها يتسم بالدقة في النسخ، بل وقد يكون من ذوي الاختصاص العلمي، كما أن هذه القطعة تبدو بحالة جيدة، لم تنل منها الأَرَضَة شيئًا يُذكَر.

كما نلاحظ أن ناسخ هذه القطعة قام بمراجعتها، وعمد إلى استدراك ما نقص أو سقط من خلال إضافات في الحواشي، وأحيانًا يصحح المادة العلمية من الأخطاء.

وعلى غرار طريقة العلماء المغاربة في الكتابة، يتم إثبات الكلمة الأولى الموجودة في بداية السطر الأول من الورقة الموالية، في حاشية نهاية السطر الأخير من الورقة السابقة لها، وذلك للتنبيه على ما قد يحصل من ضياع الأوراق أو بترها أو تبدل ترتيبها، علمًا أن هذه النسخة تحمل ترقيمًا حسب الأوراق مخالفًا لخط القطعة، ويبدو أن واضعه هو صاحب الكتاب الذي أوقفه على الجامع

الأعظم عام ١٣٥٧هـ، أو قَيِّم دار الكتب بتونس، وذلك لأن هذا الترقيم يشمل الورقة الحافظة الأولى التي لا تعد جزءًا من المؤَلَّف.

وقد عرف هذا المخطوط بترًا في بدايته:

الركن الأول: في الدلالات الإفرادية (مبتور)

- الباب الأول: في الحقيقة والمجاز (مبتور)
- الباب الثاني: في الفرق بين الإثبات بالاسم والفعل والمعرفة والنكرة (مبتور)
- الباب الثالث: في مفردات شذَّت عن الضوابط (مبتور)

الركن الثاني: في مراعاة أحوال التأليف

١- الفن الأول: في تقديم الاسم على الفعل وتأخيره (مبتور)

وتتكون هذه القطعة من المخطوط من المحاور المتبقية التالية:

٢- الفن الثاني: في خبر المبتدأ (بُتر منه حوالي سطر واحد في أول هذا الفن)

٣- الفن الثالث: في تقديم بعض الأسماء على بعض

٤- الفن الرابع: في المجاز الإسنادي

٥- الفن الخامس: في التشبيه

٦- الفن السادس: في الإيجاز ويسمى الإشارة

٧- الفن السابع: في التأكيد

٨- الفن الثامن: في الحذف

٩- الفن التاسع: في المنصوبات

- الفصل الأول: في المفعول به
- الفصل الثاني: في تنازع الفعلين
- الفصل الثالث: في الحال
- الفصل الرابع: في التمييز



١٠-الفن العاشر: في معرفة الفصل والوصل

- الضرب الأول: عطف المفردات
- الضرب الثاني: عطف الجملة على الجملة، وهي في ذلك على نوعين:
  - النوع الأول: أن تُعطف جملة على جملة
  - النوع الثاني: أن تُعطف جملة على جملة لا موضع لها في الإعراب

١١-الفن الحادي عشر: في معرفة أسباب التقديم والتأخير

١٢- الفن الثاني عشر: في قوانين كلية تتعرف بها أحوال النظم

- القانون الأول: فيها يتحقق به بيان العبارة
- القانون الثاني: في دلالة الكلام
- القانون الثالث: في جهة إضافة الكلام إلى قائله
- القانون الرابع: في معرفة الفصاحة والكلام الفصيح لا يعدو قسمين:
  - القسم الأول: تعزى المزية فيه إلى اللفظ المفرد:
    - الكناية
    - التمثيل الجاري على حد الاستعارة
    - كل ما كان فيه مجاز واتساع
  - القسم الثاني: تعزى المزية فيه إلى النظم: معرفة أحوال النظم

الركن الثالث: في معرفة أحوال اللفظ وأسماء أصنافه

١- الصنف الأول: التجنيس

٢- الصنف الثاني: الترصيع

٣- الصنف الثالث: الاشتقاق

٤- الصنف الرابع: التطبيق

٥- الصنف الخامس: لزوم ما لا يلزم

٦- الصنف السادس: التضمين المزدوج

٧- الصنف السابع: الالتفاف

٨- الصنف الثامن: الاعتراض

٩- الصنف التاسع: اللف والنشر

١٠- الصنف العاشر: التقسيم

١١- الصنف الحادي عشر: التعديد

١٢- الصنف الثاني عشر: التخييل

١٣-الصنف الثالث عشر: وهو أن تتفق أجزاء الكلمتين تكملان القرينتين وزنًا ولفظًا في الحرف الأخير

١٤-الصنف الرابع عشر: رد العجز على الصدر

١٥- الصنف الخامس عشر: المساواة

١٦-الصنف السادس عشر: العكس والتبديل

١٧-الصنف السابع عشر: الاستدراك والرجوع

١٨-الصنف الثامن عشر: الاستطراد

١٩- الصنف التاسع عشر: الاستهلال

٢٠- الصنف الموفي عشرين: التخلص

٢١- الصنف الحادي والعشرون: الترديد؛ سمي هذا الصنف التعطف أيضًا

٢٢- الصنف الثاني والعشرون: التتميم

٢٣-الصنف الثالث والعشرون: التفويف

٢٤-الصنف الرابع والعشرون: التجاهل

٢٥-الصنف الخامس والعشرون: الهزل

٢٦-الصنف السادس والعشرون: التنبيه

ذلكم هو الوصف الموجز لشكليات هذه القطعة من المخطوط كما هي عليه الآن بالمكتبة الوطنية بتونس.



ثانيًا: ترجمة عبد الواحد ابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ)

بالرجوع إلى المصادر والتراجم نجد أن عبد الواحد ابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ) حجبته شهرة ابنه أبي الحسن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري الزملكاني (ت ٦٩٠هـ)، وبشكل أكبر شهرة حفيده كمال الدين أبي المعالي بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري الزملكاني (ت ٧٢٧هـ)، فلم تهتم هذه المصادر به اهتمامها بابنه وحفيده، بل وإن كثيرًا من الباحثين قديمًا وحديثًا وقعوا في الخلط بين الجد والأب والحفيد، نظرًا لتشابه النَّسَب: الزملكاني، نسبة إلى مدينة زملكا الشامية، ونظرًا لتشابه الوظائف التي شغلوها في الدول القائمة في عصر كلٍّ منهم.

أ- حياته

سأقف عند التراجم التي تناولت عبد الواحد ابن الزملكاني وفق ترتيب زمني ينطلق من الأقرب إلى عصره وصولًا إلى المصادر الحديثة:

١- أَقْدَمُ ترجمة لعبد الواحد ابن الزملكاني وقفت عندها تعود لأبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) في كتابه «الذيل على الروضتين»، حيث أثبت تاريخ وفاته في ٦٥١هـ بدمشق، وأثنى عليه بقوله: «كان فاضلًا عالمًا خيرًا متميزًا في علوم متعددة» (المقدسي، ١٩٨٤، ص: ١٨٧)، وذكر وظيفته في القضاء بصرخد، ووظيفته في التدريس ببعلبك.

٢- ترجم له تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ) في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى»، نقلًا عن أبي شامة المقدسي، ثم ذكر أنه جد كمال الدين محمد بن علي الزملكاني، وأضاف: «كانت له معرفة تامة بالمعاني والبيان، وله فيه مصنف، وله شعر حسن» (السبكي، (د.ت)، ٢/ ٣١٦).

٣- تناول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ابن الزملكاني في كتابه «البداية والنهاية» في معرض الترجمة لابنه علي (ت ٦٩٠هـ) (ابن كثير، (١٩٩٧)، ١٨/ ٢٨٦)، وفي معرض الترجمة -كذلك- لحفيده كمال الدين أبي المعالي (ت ٧٢٧هـ)، ونعته بـ: «الإمام العلامة كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري الزملكاني» (ابن كثير، (١٩٩٧)، ١٧/ ٦٣٤)، ولم يترجم له

ضمن وفيات سنة ٦٥١هـ. وقد أفرد لابنه ترجمة قصيرة، في حين أفرد لحفيده ترجمة مطولة، تتبع فيها مساره العلمي والمهني، واعتبره شيخًا من شيوخه، استشهد به في كتابه، وذكر له جملة من المؤلفات.

٤- ترجم له السيوطي (ت ٩١١هـ) في «بغية الوعاة» (السيوطي، (١٩٦٥)، ج٢/ ١١٩)، بالاستناد إلى ترجمة تاج الدين السبكي، والذي نقل بدوره عن أبي شامة المقدسي.

٥- لم يترجم له عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٧٨هـ) في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس»، واكتفى بذكر الأنشطة العلمية والمهنية لحفيده كمال الدين أبي المعالي استنادًا إلى كتاب البداية والنهاية، كما لم يترجم لابنه علاء الدين علي (النعيمي، (١٩٩٠)، ج١ وج٢).

٦- ترجم له ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ) في كتابه «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ضمن وفيات ٦٥١هـ، ووصفه بأنه «صاحب علم المعاني والبيان، كان قوي المشاركة في فنون العلم، خيرًا، متميزًا، ذكيًّا» (ابن العماد، (١٩٨٦)، ج٧/ ٤٣٨)، وذكر وظيفته في القضاء والتدريس، كما أشار إلى أن عبد الواحد هو جد كمال الدين أبي المعالي الشهير.

خلاصة القول؛ إن شخصية عبد الواحد ابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ) لم تكن مشهورة شهرة حفيده كمال الدين أبي المعالي (ت ٧٢٧هـ)، كما أن ما أوردته كتب التراجم المذكورة أعلاه لم يخرج عما جاء لدى أبي شامة المقدسي، وإضافات السبكي بعده، وأهم ما قدمته هذه التراجم هي سنة وفاته، وعلمه بالبديع والبيان، وتصنيفه لمصنف فيه، وقوله لشعر حسن، وذكر بعض وظائفه.

ب- مؤلفاته

لم تورد كتب التراجم قبل القرن الحادي عشر، أي بعد وفاته بأكثر من أربعة قرون، أيَّ اسم من مؤلفات عبد الواحد ابن الزملكاني، فقد اعتبره السبكي (ت ٧٧١هـ) من أصحاب المعاني والبيان، وله مصنف فيه، لكنه لم يذكر اسم المصنف المقصود؛ كما أن يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت ٧٤٩هـ) نسب كتابًا اسمه «التبيان» لمؤلف اسمه «عبد الكريم»، في سياق حديثه عن الكتب الأربعة التي اعتمدها: «أولها كتاب «المثل السائر» للشيخ أبي الفتح نصر بن عبد الكريم



المعروف بابن الأثير، وثانيها كتاب «التبيان» للشيخ عبد الكريم. وثالثها كتاب «النهاية» لابن الخطيب الرازي، ورابعها كتاب «المصباح» لابن سراج المالكي» (العلويّ، (١٤٢٣هـ)، ص: ٣-٤)، وقد رأى محقق «الطراز» أن المقصود بـ«التبيان» كتاب «التبيان في علوم البيان المطلع على إعجاز القرآن»، وأن المقصود بـ«عبد الكريم» هو عبد الواحد بن عبد الكريم ابن الزملكاني، وسايره في ذلك محققا التبيان.

وأول مَن نسب كتاب «التبيان في علم البيان» لعبد الواحد ابن الزملكاني، هو حاجي خليفة (ت ١٠٦٨هـ) في كتابه «كشف الظنون» (حاجي خليفة، (د.ت)، ١/ ٣٤١)، تحت مسمى «التبيان في علم البيان»، دون ذكر الجزء «المطلع على إعجاز القرآن».

وأول من نسب الكتاب تحت مسمى «التبيان في علوم البيان المطلع على إعجاز القرآن» بشكل صريح لعبد الواحد ابن الزملكاني، هما محققاه: الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي سنة ١٩٦٤م، ثم تلقف المعلومة بعدهما الباحثون وأصحاب التراجم، ومنهم الزركلي (ت ١٩٧٦م) في كتابه «الأعلام» (الزركلي، (١٩٨٠)، ج٤/ ١٧٦).

كما نسب المحققان (مطلوب والحديثي) مؤلفات أخرى لعبد الواحد ابن الزملكاني، لم أعثر عليها في كتب التراجم التي اطلعت عليها؛ منها ما وقف الباحثان عنده مخطوطًا، ومنها ما وقفا عند عنوانه في كتب التراجم، ومنها ما أورداه من دون توثيق، ومنها:

- المفيد في إعراب القرآن المجيد، وهو مخطوط؛ منه نسخة في دار الكتب بالقاهرة (ابن الزملكاني، (١٩٦٤)، ص: ١٢).
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، نسخة من المخطوط في معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية (ابن الزملكاني، (١٩٦٤)، ص: ١٣)، ونسب حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون (حاجي، (د.ت)، ٢٤١/١)، كتاب «البرهان في إعجاز القرآن» لحفيد عبد الواحد: كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد (٧٢٧هـ).
- رسالة في الخصائص النبوية، وهو كتاب نقل المحققان عنوانه عن صاحب معجم الأعلام (الزركلي، (١٩٨٠)، ج٤/ ٣٢٥).

- عجالة الراكب في ذكر أشرف المناقب (غير موثق).
- المفضل على المفضل (غير موثق).
- المنهج المفيد في أحكام التوحيد (غير موثق).

ج- نثره

لا نعرف للرجل مصنفات منشورة في النثر، إلا رسالة واحدة وردت في كتابه «التبيان في علم البيان»، ومما جاء في القطعة الجديدة لمخطوط التبيان، يقول ابن الزملكاني:

«مَا قُلْتُهُ فِي رِسَالَةٍ منها:

ينهي المملوك أنَّه لمَّا اقتحم الكؤود * التِي هيَ بالاستعدادِ تبخلُ وبالإيعاد تجود * فلم يقْطعْها حتى رجع نضوًا على نضوٍ ونقضًا على نقضٍ * نَفَسُه من الصعودِ متصاعِد * وشبا قيامه عن قطع المسافة متقاعِد * وهو مع ذلك مُفَكِّرٌ في مفارقةِ الأهلِ والوطن * والخِلِّ والسكن * يقدِّم رِجْلًا وَيُؤَخِّر أُخرَى * وَيَسْتَوْكِفُ الدَّمْعَ فيرقصُ عشرًا عشرًا * ليشفي جَوى علَّتِه * ويَسْقِي صَدَى غُلَّتِه * فبينما هو كذلك إذْ طَلَعَ غَمَام مُسِفّ * متراكم غير مشف، كالقاصدِ إلى الوفاقِ والمحصل للإيقاف * يَتَأَوَّهُ تَأَوُّه الثَّكْلَان * ويُشِيرُ وَمِيُضه إلى ما انْطَوى عليه مِنَ الأحْزانِ * فَحِينَ انْتَظَمَ الجَمْع، وأخذ في اسْتِرَاقِ السَّمْع * وافَى المملُوك يُنْشِد * والشوقُ بينَ ضُلُوعِهِ يغير وينجد *

رَعَى اللهُ أيامًا مَضَتْ لِي بِجِلِّق ... بِأطيبِ حَالَاتٍ وأَجْمَلِ رونقِ

وَرَبْوَتُها تُري السرورَ بحُسنِها ... وفِي بُرْدَيِ سَلْسَالُ ماءٍ مصفقِ

*

دِيَارٌ لَهَا وقْتُ الرَّبيعِ مناسمٌ ... وأشجارُها فِيهَا كسُندسِها الخُضْرِ

وأمَّا أَيَّامُ الخَرِيفِ فَإنَّهَا ... شَبِيهةُ عشَّاقٍ بأثوابِها الصُّفْرِ

*

فَلَمْ يُتِم الإنْشَاد * إلَّا وزفيرُه قَدْ زَاد * فأرْخَى الغَمَامُ عزاليه * وَانْفَجرَ بِصَوْبِ مَا فيه * فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِر وتعَقّد به الثَّرى * فَأَرْوَتْ مِنْه الغُدْرَان وانْهَدَمَت القُرى * فَحِينَ رَأَت الجِبَال



مَا هَال * وأَنَّهُ مِمَّا تُضْرَبُ بِه الأَمْثَال * استَدْعَت قوسَ قُزَح لتَنْدف أقطانه * ولكن جعلَ للملوكِ البطانة * ولمْ يَأْلُ فِي ذلك جهدًا * ولا رَاعَى قَسَمًا ولا عَهْدًا * إلى أَنْ خَفَّت الأمْطَار شيا * وحَمَل المَاء عَلى المعوز ريّا * فأنشأ المملوك الرِّذَاذ * مَا كَان بقلبه قد لاذ * وعليه قَدْ حاذ * فاسترجع وفَكَّر * وأخذ لله يَتَشَكَّر * فَنُودِي في سرِّه أَلَّا عَلَيك * والصاحبُ عملوه لديك * يفري أوصَال الكُرَب * ويكسر النَبْع بالغرب * ويُخْلِصك مِن براثنِ الدهر * ويَعُودُ عَلَيْك بِعَسَاكِرِ النصر * ويردُّ سيف البردِ مبلولًا * وفارس الثلج مكبولًا مغلولًا * بفوائده السَّنية * ومواهبه العلية * فَتَرجع وحقائبك تثني * وحسنُ حالك يصرّح به ولا يُكْني *

بَحْرٌ فَإنْ غَرِقَتْ سَفِينَة سَائِلٍ	فَبِسَيبه وبِجُده وَنَوالِه
أَسَدٌ فريستُه إغاثة أملٍ	أَخْنَى عَلَيه الدَّهر في تِجْوَالِه
جَبَلٌ عَلَى الأبطالِ عِنْدَ نِزالِهم	يَا وَيْح من يُدعى ليومِ نِزَالِه
السَّعْدُ في نظراتِه والموتُ في	سَطَواته وَالفَضْلُ من أفضَالِه
عَجَبًا أَبُو الحُسَيْن الوزير غضنفر	والخَائِفُون أفاءهم بظِلالِه
أَبَت المَكَارِمُ أَنْ تَجُودَ لدهرِها	بمثالِه وَلِغَيْرِه بِخِصَالِه
الصَّاحِبُ النَّدبُ الجَوَادُ وَمَنْ لَهُ	شَرَفٌ بِنَجْدَتِهِ وحُسْنِ فِعَالِه
نسب الجَزيل مِنَ النَّوَالِ وَعِنْدَهُ	أن الجَزِيلَ القِلَّ في إِقْلالِه
فَاقَ الأَنَامَ مفَاخرًا ومآثر	فَلِذَاكَ لَفْظِي باهرٌ بِجِلالِه
يَجِدُ الحياءَ تَفَضُّلًا مِن مُجْتَدٍ	ويرى له الأنْعَامَ عند سؤالِه
فاللّه كَالِئُكَ الذِي لاَ غَيْره	بمحمدٍ وبصحبِه وبِآلِه».

(ابن الزملكاني، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، الورقة ٣٨-٣٩)



د- شعره

وأما شعره، فلم يورد أي مترجم شعرًا للرجل، وذكر السبكي (ت ٧٧١هـ) أن له شعرًا حسنًا، ولم يذكر له ديوان شعر، ولم يورد له نتفًا من شعره. وكل ما نتوفر عليه هو أبيات شعرية وردت في الرسالة المذكورة أعلاه من كتابه «التبيان في علم البيان»، بالإضافة إلى قصيدة مخطوطة[٣] تتضمن اثني عشر بيتًا، منها بعض الأبيات الموجودة في الرسالة المذكورة سابقًا، ونقدم هذه الأبيات هنا على أن نقوم بتحقيق هذه المخطوطة في مقال قادم إن شاء الله، بعد أن حصلت على نسخة منها من جامعة ليدن الهولندية:

أَطَرْفُكَ أم هاروتُ يَعْقِدُ لِـي سِحْرًا ... أرِيقُكَ أم طَالُوتُ يَعْصِرُ لي خَمْرا

وما العَيْشُ إلا أنْ أرَى لَكَ عاشِقًا ... وما الموتُ إلا أنْ تُعَذِّبْني هَجْـرا

أيا مُرِيدًا أمشي مُتَـمايِـلًا ... أم قَـدُّكَ الصَّـعْدَةُ السَّمْرا

جَمَالُكَ يَكْسُو كُلَّ حِينٍ مَلاحَةً ... وَمَنْطِقُكَ الأَسْمَاعُ يَمْلَـؤها دُرّا

عِـذَارُكَ لام كلَّ صَـدْغِكَ صاده ... ولا غَرْوَ أنْ تَضْحَى العُيُونُ به سَهَرا

وفي فيكَ أم عقد اللآلِئ مُـنَظَّمٌ ... كأنَّ ظَلامَ الليلِ في ضَوْئِهِ ظُـهْرا

ألَيْسَ بِبِـدَعٍ أنْ يَصِيدَ قُلُوبَنَا ... وأنْ تَكْثُرَ القَتْلَى وأنْ تَرْقُصَ الأسْدَا

بنفسي أيـام مَـضَـتْ لِي بِجِلَّق ... بِـأرض زملكا يا أخي وفي مقرى

فرَبْوَتُها تُـربي الـسُّرورَ وتحتها ... يَزِيدُ يَزِيدُ الوَجْد فيه وفي الشَّقْرا

وفي بَـرَدَى سَلْسَالُ مـاءٍ مصفق ... وثورى لَهُ ثَغْرٌ تَبَسَّم في ثَـغْـرا

ولا تنسَ دارّ يا فَـان نَسِيـمُها ... يضوِّعُه مِسْكًا تحمّله عِطْـرا

وما الشيحُ والقَيْصوم في أبرقِ الحِمى ... إذا سطَّرَ المَنْثورَ والوَرْدَ عن سَطْرا

---

(٣) حصلت على نسخة من مخطوطة «قصيدة الإمام محمد بن خطيب زملكا رواية نصر محمد عرش»، منسوبة لعبد الواحد بن الزملكاني، تحت رقم OR.2478، موجودة بمكتبة جامعة ليدن بهولندا.



ثالثًا: تعليق حول منهجية تحقيق كتاب «التبيان في علم البيان» في ضوء المخطوط الجديد

أ- تحقيق نسخ كتاب «التبيان في علم البيان»

وقفت عند تحقيقين لكتاب التبيان: التحقيق الأول قام به كلٌّ من الباحثَين أحمد مطلوب وخديجة الحديثي سنة ١٩٦٤م وهو منشور[٤]، والتحقيق الثاني قام به مصطفى أبو الحجاج محمد النجار سنة ٢٠٢٠م، وهو منشور[٥]، لكن لم أستطع الحصول على نسخة منه على الرغم من البحث عن سبل اقتنائه.

- **النُّسخ التي اعتمدها المحققان**

اعتمد الباحثان مطلوب والحديثي على نسخ قد تكون منسوخة عن المخطوط الأصلي أو عن نسخ أخرى، والثابت أنهما لم يعتمدا الكتاب الأصلي بخط مؤلفه أو إجازته له، وهذه النسخ هي:

- نسخة كتبت سنة ٧٢٢هـ بخط إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الغزي الشافعي، موجودة في المكتبة التيمورية بدار الكتب بالقاهرة، وفي معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورة منها. وقد اتخذها المحققان أصلًا في التحقيق.
- نسخة كُتبت سنة ٧٨٩هـ موجودة في مكتبة شهيد علي بالقاهرة بمصر.
- نسخة مصورة عن نسخة مكتبة شهيد علي بمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية.
- نسخة كُتبت سنة ١٣٢٨هـ، موجودة بدار الكتب بالقاهرة، وهي منقولة عن النسخة الأولى (نسخة ٧٢٢هـ).

---

(٤) ابن الزملكاني، **التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، ١٩٦٤، بغداد.

(٥) ابن الزملكاني، **التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**، قرأه وعلق عليه مصطفى أبو الحجاج محمد النجار، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٢٢، القاهرة، (٢٢٤ صفحة).

تلكم هي النُّسخ التي اعتمدها المحققان في إخراج كتاب «التبيان في علم البيان» سنة ١٩٦٤م، وإن كان الأمر يتعلق فقط بنسختَي كلٍّ من المكتبة التيمورية (٧٢٢هـ) ومكتبة شهيد علي (٧٨٩هـ)، وتعد نسخة المكتبة التيمورية أقدم نسخة على الرغم من أن ابن الزملكاني قد فرغ من كتابة التبيان سنة ٦٣٧هـ (ابن عميرة، (١٩٩١)، ص: ١٤).

- **نسخ معروفة لدى المحققَين ولم يعتمداها**

- نسخة بالولايات المتحدة الأمريكية؛ ذكر المحققان أن الأستاذ كوركيس عواد ذكر في كتابه «جولة في دور الكتب الأمريكية» (كوركيس، (١٩٩١)، ص: ٧٦) أن نسخة من التبيان توجد بمكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية تحت رقم ٢٢٥، وقد وقفت عند ذلك في هذا الكتاب، لكن بعد رجوعي إلى فهرس المخطوطات على الموقع الرسمي لهذه الجامعة[٦]، لم أجد أي أثر لهذه المخطوطة.
- نسخة بإيران؛ لم يتمكن المحققان من الحصول على مخطوطة موجودة بخزانة المشهد الرضوي بإيران، وقد حصلت على نسخة من هذا المخطوط[٧]، والذي يوجد بمكتبة المجلس الإسلامي تحت رقم ٢٦٠٥. ويتضمن هذا المخطوط قصيدة لعبد القاهر الجرجاني وكتاب دلائل الإعجاز، وابتداءً من الورقة ٢١٣ يوجد «التبيان في علم البيان»، بخط مشرقي جميل وواضح، ولم يرد فيه أي تاريخ نسخ، لكن بالرجوع إلى مخطوط دلائل الإعجاز نجده نسخ في ١١٠١هـ على يد الفقيه محمد بني المحتاقي، وهي نسخة تشبه النسختين اللتين اعتمدهما المحققان، وتتفق معهما في الاختلافات التي أشرنا إليها مع القطعة الجديدة من المخطوط.

- **نسخ غير معروفة لدى المحققَين**

ذكر محمد بن شريفة (ابن عميرة، (١٩٩١)، ص: ١٤) أن نسخًا من مخطوط «التبيان في علم البيان»، توجد بكلٍّ من:

---

(٦) الموقع الرسمي لجامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية: https://www.yale.edu/.

(٧) «مخطوط دلائل الإعجاز ومعه التبيان»، مكتبة المجلس الإسلامي، مجلد ٢٠٥، تسجيل ٢٦٠٥، إيران.



- مكتبة دير الأسكوريال بإسبانيا؛ توجد نسختان تحت رقم ٢٢٣ وتحت رقم ٢٦٣، وتتجلى أهمية نسخة الأسكوريال رقم ٢٢٣ في كونها تضمنت تاريخ الانتهاء من كتابة التبيان، حيث فرغ صاحبه من تأليفه في عشرين يومًا من شهر رمضان المعظم سنة ٦٣٧هـ.
- الخزانة العامة بالرباط بالمملكة المغربية؛ توجد نسخة تحت رقم ٣٥٠٧د.

• **آخر نسخة مكتشَفة**

تعد نسخة المكتبة الوطنية بتونس موضوع هذه المقالة (نسخة ٨٥٧هـ) من النسخ غير المعروفة لدى المحققين، ولم يشر إليها أي باحث قبل هذا المقال، والتي تبقى قريبة نسبيًّا إلى عصر المؤلف، وإن كانت أحدث من النسختين اللتين اعتمدهما المحققان مطلوب والحديثي. كما تتجلى أهميتها في كونها مكتوبة بالغرب الإسلامي بالأندلس بمدينة ألمرية، وتعكس اهتمام علماء هذه الجهة من العالم بكتاب التبيان نَسْخًا ودَرْسًا، كما فعل ابن عميرة (ت ٦٥٨هـ) في كتابه «التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات».

ب- تحقيق نسبة كتاب «التبيان في علم البيان» لابن الزملكاني

لم يرد في متن كتاب «التبيان في علوم البيان» ما يدل صراحة على مؤلِّفه، سواء في المقدمة أو في المتن أو في الخاتمة، الشيء الذي يدفع أي محقق لاعتماد دلائل أخرى لإحكام الربط بين الكِتاب والكَاتب، سواء أكانت دلائل داخلية أم خارجية.

اعتمد الباحثان مطلوب والحديثي في نسبة كتاب «التبيان في علوم البيان» لعبد الواحد ابن الزملكاني على ثلاث دلائل:

أولًا: دليل داخلي متعلق بالتناص: حيث ربطا بين قصيدة شعرية مخطوطة[٨] لابن الزملكاني والأبيات الشعرية التي استشهد بها مُؤَلِّف الكتاب لنفسه في ثنايا مُؤَلَّفه؛ ويتعلق الأمر بأربعة أبيات شعرية مشتركة.

---

(٨) نسخة من مخطوطة «قصيدة الإمام محمد بن خطيب زملكا رواية نصر محمد عرش»، منسوبة لعبد الواحد ابن الزملكاني، تحت رقم OR.2478، موجودة بمكتبة جامعة ليدن بهولندا.

- **تعليق**:

يستند هذا الدليل إلى صحة نسبة القصيدة الشعرية المخطوطة لعبد الواحد ابن الزملكاني، لأن هذا الربط يثبت بالضرورة ربط كتاب «التبيان في علم البيان» بعبد الواحد ابن الزملكاني.

وبالرجوع إلى هذه القصيدة المخطوطة نجد أن في عنوانها نسبة لـ«محمد بن خطيب زملكا» (ابن الزملكاني، (مخطوطة غير محققة)، ص: العنوان)، وفي متنها ما ينسبها إلى «عبد الواحد ابن الزملكاني»: «أنشده الإمام كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد بن عبد الكريم... بن خطيب زملكا الأنصاري السماكي الشافعي رحمه الله» (ابن الزملكاني، (مخطوطة غير محققة)، ورقة: ٠١)، ويبدو أن عنوان هذه القصيدة قد سقطت منه لفظة «أبو»، إذ إن عبد الواحد ابن الزملكاني يكنى بأبي محمد وفي ضوء القطعة الجديدة من مخطوط التبيان، يلاحظ اختلاف بين نسخ المحققين والقطعة الجديدة في الأبيات الشعرية التي تنسب لصاحب التبيان، فقد جاء في تحقيق مطلوب والحديثي بيتان منسوبان لمؤلف الكتاب:

بنفسي أيام مَضَتْ لِي بِجِلِّق بِأرض زملكا يا أخي وفي مقرى
فرَبْوَتُها تُربي السرورَ وتحتِها يَزيدُ يَزيدُ الوَجْد فيه وفي الشَّقْرى

في حين جاء البيتان في القطعة الجديدة من المخطوط على الشكل التالي:

رَعَى اللهُ أيامًا مَضَتْ لِي بِجِلِّق بِأطيبِ حَالَاتٍ وأَجْمَلِ رونقِ
وَرَبْوَتُها تُري السرورَ بحُسنِها وفي بُرْدَيِ سَلْسَالُ ماءٍ مصفقِ

وهذا الاختلاف بين هذه النسخ قد يكون له أثر على عملية تحقيق نسبة الكتاب لصاحبه، سيما وأن البيتين الأولين يبرزان تذكر الشاعر لأيام مضت له ببلدته زملكا، في حين أن أبيات القطعة الجديدة يغيب عنها ذلك.

إن قوة هذا الدليل مرتبطة بمدى صحة نسبة القصيدة المذكورة لعبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني، لأن هذه القصيدة تحتاج بدورها لتحقيق.



ثانيًا: دليل داخلي تاريخي: حيث ربط بين حدث إهداء الكتاب للوزير أبي الحسن علي الأمين الذي ذكره المؤلف في المقدمة، وأبيات شعرية منسوبة لابن الزملكاني في مدح هذا الوزير.

- **تعليق**:

يصرح ابن الزملكاني في مقدمة التبيان أن كتابه هذا أهداه إلى «وزير الشام أبي الحسن علي الأمين» (ابن عميرة، (١٩٦٤)، ص: ٣٢)، وتتأكد هذه العلاقة بين الرجلين من خلال القصيدة التي مدحه فيها، والتي استشهد بها في التبيان:

بَحْـرٌ فَـإِنْ غَرِقَتْ سَفِيـنَة سَائِلٍ   فَبِسَيبه وبِجُـــــودِه وَنَـــوالِه
أَسَـــدٌ فريســتُه إغاثـــة أمـلٍ   أَخْـــنَى عَلَيه الدَّهـــر في تِجْـــوَالِه
جَبَلٌ عَلَى الأبطالِ عِنْدَ نِزالِـــــهم   يَا وَيْـح من يُـدعى ليوم نِـــزَالِه
السَّعْدُ في نظراتِه والـموتُ فـــي   سَـطَـوَاتـه وَالـفَـضْـلُ من أفضَالِه
عَجَبًا أَبُو الحُسيْن الوزير غضنفرٌ   والخَائِفُـــون أفـاءهـم بظِلالِه
أَبَـت المَكَـارِمُ أَنْ تَجُـودَ لدهرِها   بمثــالِه وَلِغَـيْرِه بِخِـــــصَالِه
الصَّاحِبُ النَّدبُ الجَـــــوَادُ وَمَنْ لَهُ   شَرَفٌ بِنَجْدَتِهِ وحُسْـــــنِ فِعَالِه
نسب الجَزِيل مِنَ النَّـوَالِ وَعِنْدَهُ   أن الجَـزِيـلَ الـقِـلَّ في إِقْــلالِه
فَـاقَ الأَنَـامَ مفَـاخرًا ومآثـــرًا   فَلِذَاكَ لَفْظِي باهرٌ بِجِـــــــلالِه
يَجِدُ الحياء تَفَضُّلًا مِـــن مُجْـــتَدٍ   ويرى له الأنْعَام عند سؤالِـــه
فالله كَالِئُكَ الذِي لاَ غـــَـيْره   بمحـمــدٍ وبصحبِـه وبِــآلِه

وهذه العلاقة بين ابن الزملكاني ووزير الدولة الأيوبية أبو الحسن الأمين، تؤكدها الشواهد التاريخية لهذه الدولة التي تأسست بداية القرن السادس الهجري.

إن صحة هذا الدليل قد يتسرب لها الوهن من حيث كون الوزير أبي الحسن قد يكون له من الأدباء والشعراء الآخرين من يهدي له الكتب ويمدحه كذلك.

ثالثًا: دليل خارجي إخباري: أورد يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت ٧٤٩هـ) في كتابه «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» خبر اعتماده على أربعة كتب: «أولها كتاب «المثل السائر» للشيخ أبي الفتح نصر بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، وثانيها كتاب «التبيان» للشيخ عبد الكريم، وثالثها كتاب «النهاية» لابن الخطيب الرازي، ورابعها كتاب «المصباح» لابن سراج المالكي» (العلوي، (١٤٢٣هـ)، ص: ٣-٤)، وفي هذا الخبر نجد أن كتابَ «التبيان» يُنْسَب لمُؤَلِّفه «عبد الكريم».

- **تعليق**:

نسب يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت ٧٤٩هـ) في الطراز كتابًا اسمه «التبيان» لمؤلف اسمه «عبد الكريم»، لكنه لم يذكر العنوان الكامل للكتاب، إذ يوجد العديد من الكتب التي تسمى بالتبيان، أو قد توجد كتب أخرى ما زالت مفقودة تسمى بهذا الاختصار، كما أنه لم يورد اسم صاحب هذا الكتاب بشكل مفصَّل كما فعل مع المؤلفين الثلاثة الآخرين (الشيخ أبو الفتح نصر ابن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، وابن الخطيب الرازي، وابن سراج المالكي)، بل اكتفى باسم «عبد الكريم».

وعلى الرغم من ذلك تبقى قرينة لفظة «التبيان» قائمة في دلالتها على كتاب «التبيان في علوم البيان المطلع على إعجاز القرآن»، وتبقى قرينة «عبد الكريم» قائمة في دلالتها على عبد الواحد ابن الزملكاني، على اعتبار أن عبد الواحد هو: ابن عبد الكريم، وافتراض سقوط لفظة «ابن».

ج- استدراكات حول نسبة التبيان

وبعقب هذه الدلائل التي ساقها المحققان، نقدم بعض الدلائل الأخرى التي تغني هذه النسبة بين التبيان وعبد الواحد ابن الزملكاني، منها:

- ما جاء به محمد بنشريفة، حيث ذكر نصًّا منسوبًا لأبي عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الفاسي (ت ٧٧٩هـ) مكتوبًا بخطه في نسخة في ملكه استنسخها لنفسه بتاريخ ٧٢٤هـ: «كتاب التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن تصنيف كمال الدين أبي محمد عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري المعروف بالسماكي رحمه الله»



(ابن عميرة، (١٩٩١)، ص: ٣٨)، وهو أقوى دليل على نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه، ومن أهم الشواهد على نشاط وحركية التبادل الفكري والعلمي بين المشرق والمغرب.

- ما جاء به حاجي خليفة (ت ١٠٦٨هـ) في كتابه «كشف الظنون» في القرن الحادي عشر هجريًّا، حيث نسب التبيان لابن الزملكاني بقوله: «التبيان في علم البيان للشيخ عبد الواحد بن عبد الكريم المعروف بابن الزملكاني المتوفى في سنة إحدى وخمسين وستمائة» (حاجي خليفة، (د.ت)، ص: ٣٤١/١).

خلاصة القول؛ لم يرد في كتاب التبيان ما يفيد نسبته إلى عبد الواحد بن عبد الكريم ابن الزملكاني الجد بشكل صريح وواضح، على غرار العديد من مصادر النقد والبلاغة، ولم يذكر أصحاب المعاجم والتراجم القدماء أسماء مصنفاته النقدية والبلاغية، إلا ما كان من إشارة السبكي أنه كان للرجل مصنف واحد في البديع والبيان، وإشارة يحي بن حمزة العلوي أن مؤلف التبيان هو عبد الكريم، وإشارة حاجي خليفة في القرن الحادي عشر هجريًّا لهذه النسبة.

وأما في الدراسات النقدية الحديثة، فقد وجدت أن الباحثين مطلوب والحديثي هما أول من نسب للرجل كتاب «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» سنة ١٩٦٤م، معتمدين في هذه النسبة على الدلائل الثلاث التي ذكرناها سابقًا، ثم تبنى هذه النسبة كل مَن جاء من بعدهما من المؤلفين والباحثين.

وفيما يخص عنوان هذا الكتاب، فقد ذكره ابن الزملكاني في المقدمة بقوله: «وقد سميته كتاب التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» (ابن الزملكاني، (١٩٦٤)، ص:٣٣)، وأشار إليه -كذلك- في متن الكتاب بقوله: «تضمَّنت ترجمة هذا الكتابِ أنَّ علمَ البيانِ مُطَّلِع على إعجازِ القرآنِ» (ابن الزملكاني، (١٩٦٤)، ص: ١٩٣)؛ لكن ما يثير الانتباه أن هذا العنوان لم يذكره أحد من القدماء قبل القرن الحادي عشر هجريًّا، سواء أكان مقترنًا باسم مؤلفه عبد الواحد ابن الزملكاني أو غير مقترن به، على الرغم من شيوعه بالمشرق والمغرب وأهميته في الدرس النقدي والبلاغي العربي القديم، واهتمام النقاد والبلاغيين به ردًّا ونقدًا.

د- الاهتمام بكتاب «التبيان في علم البيان»

يعد أبو المطرف أحمد بن عميرة (ت ٦٥٨هـ) واحدًا من النقاد القدماء بالغرب الإسلامي الذين تناولوا كتاب التبيان بالرد(٩)، من خلال كتابه «التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات»(١٠). ولذلك ستكون شهادة ابن عميرة مهمة في إغناء المعلومات المرتبطة بالعلاقة بين التبيان ومؤلفه، وسيكون سياق تأليف «التنبيهات» مهمًّا في فهم سياق تأليف «التبيان».

انتهى صاحب «التبيان» من تأليف كتابه سنة ٦٣٧هـ، وتوفي ابن عميرة سنة ٦٥٨هـ، وهذا يدل على أن إحدى وعشرين سنة كانت هي مدة وصول الكتاب إلى الغرب الإسلامي وقراءته من طرف ابن عميرة، وكتابة رده عليه من خلال كتاب «التنبيهات»؛ وهي إشارة مهمة إلى سرعة التلقي والتواصل بين جناحي العالم الإسلامي (المشرق والمغرب).

وبالاطلاع على كتاب «التنبيهات»، نجد أنه يفتقر إلى مقدمة يشرح فيها ابن عميرة منهجه في التأليف وغرضه من ذلك، ويبسط فيها هوية معارضه صاحب «التبيان» وظروف توصله وتلقيه لهذا النص النقدي. وغياب هذه المقدمة فوّت علينا فرصة الحصول على شهادة ابن عميرة في الكتاب ومُؤَلِّفه.

كما نجد أن ابن عميرة استهل كتابه «التنبيهات» بالحديث عن معارضه بضمير الغائب المجهول، يقول: «ابتدأ الكلام في الدلالات الإفرادية...» (ابن عميرة، (١٩٩١)، ص: ٥٥)، واسترسل في كتابه متجاهلًا اسم معارضه، متحدثًا عنه بضمير الغائب: «قال»، «وقوله»... وهي مسألة تفتح الباب واسعًا أمام التأويلات:

- ابن عميرة لم يكن يعرف مؤلف الكتاب، وأنه كان يرد على مجهول.

---

(٩) رد صاحب كتاب «التنبيه على زخرف التمويه في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن»، إبراهيم بن محمّد الخزرجي الأنصاري الجزري الأندلسي، الذي كان حيًّا سنة ٦٨٤هـ، رد به على أبي المطرف بن عميرة، وذكر بنشريفة في مقدمة تحقيقه لكتاب التنبيهات أن هذا الكتاب مفقود.

(١٠) تحقيق محمد بنشريفة، دار الثقافة للنشر، ط١، ١٤١٢/ ١٩٩١م.



- تجاهل ابن عميرة ذكر ابن الزملكاني انتقاصًا منه أو تفاديًا للخصومة العلمية معه، سيما وأن ابن عميرة كان عنيفًا في رده.
- ابن عميرة تَهُمُّهُ المادة العلمية في «التبيان» أكثر مما يَهُمُّهُ مؤلفه «ابن الزملكاني».

لم يسهم كتاب «التنبيهات» في تقديم إضاءة حول «التبيان»، وهو الذي أُلِّف خصيصًا للرد عليه، في إطار المثاقفة والتلقي بين النصوص النقدية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وقد تكون لمقدمة «التنبيهات» المفقودة أهمية بالغة في إماطة اللثام عن معلومات مهمة حول النص المُعارَض (التبيان).

الخاتمة

بلغ عدد النسخ المخطوطة المعروفة اليوم لكتاب «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» في مختلف المكتبات والخزانات ثماني نسخ، اعتمد الباحثان مطلوب والحديثي في تحقيقهما للكتاب سنة ١٩٦٤م على أربع نسخ تعود لأصلين، في حين أن ثلاث نسخ عَرَّف بها الباحث محمد بنشريفة، بعد ذلك في سنة ١٩٩١م. ويكشف كاتب هذه المقالة العلميـة سنة ٢٠٢٣ -بحمد الله- عن النسخة الثامنة، الموجودة في المكتبة الوطنية بتونس تحت عنوان مضلل، هو: «قطعة من السجلماسي في علم البيان والبديع».

ولأنني لم أطلع على تحقيق عام ٢٠٢٠م لكتاب «التبيان في علوم البيان»، فيبدو أنه في ضوء تعدد النسخ التي ظهرت بعد تحقيق ١٩٦٤م أصبح من المفيد إعادة تحقيق هذا الكتاب تحقيقًا يعمق البحث في نسبة الكتاب لعبد الواحد ابن الزملكاني، ويعيد تدقيق المتن النقدي في ضوء النسخ الجديدة.

التوصيات

١- دعوة المكتبة الوطنية بتونس إلى إعادة أرشفة مخطوط «قطعة من السجلماسي في علم البيان والبديع» وفق هذا التحقيق، وتحويل اسمه إلى: «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» بما يسهم في إشاعة المعلومة الصحيحة.

٢- دعوة الباحثين إلى إعادة تحقيق مخطوط «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» تحقيقًا علميًّا يأخذ بعين الاعتبار كل النسخ الموجودة وفي ضوء الكتب والتراجم المستجدة.

٣- إتاحة ما في المكتبات الوطنية والخزانات من المخطوطات للباحثين بشكل سهل وبأثمنة رمزية أو مجانًا.

٤- إنشاء بوابة عربية لتجميع المخطوطات وأرشفتها وفهرستها وإتاحتها للطلبة والباحثين في الجامعات ومؤسسات البحث العلمي.

٥- تطوير تخصص «طب المخطوطات» بالعالم العربي، وإنشاء مصحات لترميم وعلاج المخطوطات المتضررة وإنقاذها.



المصادر والمراجع

أولًا: الكتب والمقالات

- ابن الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم، (١٩٦٤)، **التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن**، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد.
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد، (١٩٨٦)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط١، دمشق.
- ابن عميرة، أبو المطرف أحمد، (١٩٩١)، **التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات**، تحقيق محمد بنشريفة، دار الثقافة للنشر، ط١.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القريشي الدمشقي، (١٩٩٧)، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر.
- يزن، أحمد، (١٩٨٥)، **النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي**، مكتبة المعارف، ط١، الرباط.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، (د.ت)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بلكيه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- الزركلي، خير الدين، (١٩٨٠)، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت.
- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، (د.ت)، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحام، دار إحياء الكتب العربية.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، (١٩٦٥)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي وشركاؤه، ط١.



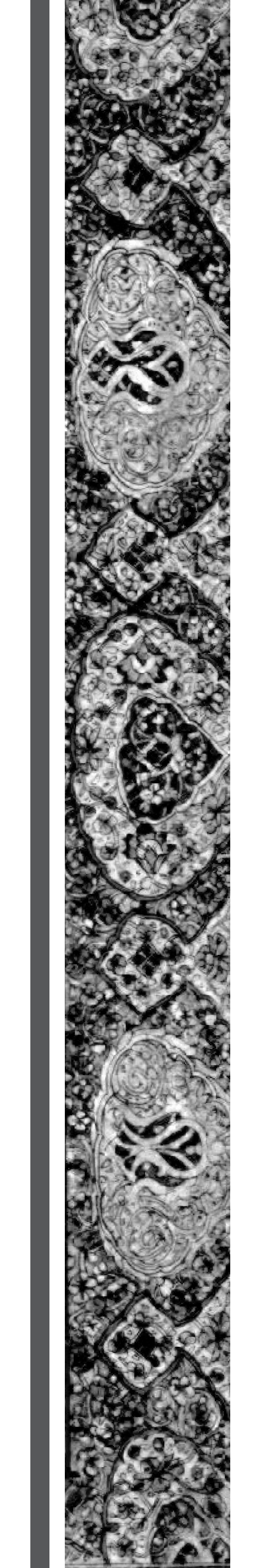
- العلويّ، الحسيني يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم، (١٤٢٣ هـ)، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، دار الكتب الخديوية، مصر.
- عواد، كوريس، (١٩٩١)، **جولة في دور الكتب الأمريكية**، مطبعة الرابطة، بغداد.
- المقدسي، أبو شامة، (١٩٨٤)، **الذيل على الروضتين**، صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري، دار الجيل: ط٢، بيروت.
- النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، (١٩٩٠)، **الدارس في تاريخ المدارس**، فهرسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت.

ثانيًا: المخطوطات

- ابن الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم، قطعة من مخطوط التبيان في علم البيان، موجودة في المكتبة الوطنية بتونس تحت مسمى: «قطعة من السجلماسي في علم البيان والبديع» تحت رقم A-MSS-16066، تونس.
- ابن الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم، «مخطوط دلائل الإعجاز ومعه التبيان»، مكتبة المجلس الإسلامي، مجلد ٢٠٥، تسجيل ٢٦٠٥، إيران.
- ابن الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم، نسخة من مخطوطة «قصيدة الإمام محمد ابن خطيب زملكا رواية نصر محمد عرش»، تحت رقم OR.2478، موجودة بمكتبة جامعة ليدن بهولندا.

ثالثًا: المواقع الإلكترونية

- الموقع الإلكتروني الرسمي لجامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية:
https://www.yale.edu
- الموقع الإلكتروني الرسمي للمكتبة الوطنية بتونس:
https://www.bibliotheque.nat.tn
- الموقع الإلكتروني الرسمي للمركز الوطني للتوثيق:
https://cnd.hcp.ma



دراسات خطوط المخطوطات وتطورها

دراسة في مسار الكتابة العربية بخطي الكوفي والنسخ من خلال مخطوطات القرنين الثالث والرابع الهجريين

د. محمد حسن جمعة(*)

ملخص البحث

لا يخفى على المشتغلين بقضايا المخطوط العربي الإشكالات التي يواجهونها حين يتعلق الأمر بخطوط المخطوطات؛ وذلك لتداخل الخطوط بعضها في بعض خاصة في مراحل تكوينها ونشأتها الأولى، وعدم ذكر الأولين لسمات أسلوبية وفنية واضحة تميز أنواع الخطوط.

ولذلك يحاول هذا البحث تتبع مسار الخطوط العربية من خلال محورَيْن رئيسيَّيْن لا غِنى لأحدهما عن الآخر، وهما الإشارات التاريخية من جهة، والمخطوطات المادية التي وصلتنا من جهة أخرى، في محاولة لخلق تصور واضح عن مسار الخطوط العربية وتطورها.

وقد اختص البحث بدراسة خطَّي الكوفي والنسخ، لوجود علاقات مادية وتاريخية تجمع بينهما من جهة، ولكونهما من أهم خطوط الحضارة العربية والإسلامية من جهة أخرى.

وشمل البحث ثلاثة محاور رئيسة، وهي:

- الكتابة العربية قبل الإسلام وبعده.
- الكتابة بخطَّي الكوفي والنسخ.
- مسار الكتابة بخطَّي الكوفي والنسخ من خلال المخطوطات.

الكلمات المفتاحية: خطوط – الحضارة العربية والإسلامية – مخطوط – الخط الكوفي – خط النسخ.

(*) مراجع اللغة العربية ومحررها، مكتبة الإسكندرية؛ وباحث ماجستير، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

Tracing the Developments of Kufi and Naskh Scripts

Through the Manuscripts of the Third and Fourth Centuries of the Hijra

Dr. Mohamed Hassan Gooma[*]

Abstract

The challenges posed by identifying script types are well known for those involved in Arabic manuscript studies. This is due to overlapping script features, especially in early stages of formation and inception. Moreover, early scholars did not establish clear stylistic and artistic features that distinguish different scripts.

Therefore, this research attempts to reconstruct an autonomous path into Arabic script formation via two indispensable methods, namely: revisiting historical references, and examining surviving manuscripts.

The research focuses on the study of the Kufi and Naskh scripts, due to their shared history on one hand, and because they are among the most dominant scripts of the Arab and Islamic civilization on the other hand.

The research is divided into three main parts, namely:

- Arabic writing before and after Islam.
- Writing in Kufi and Naskh scripts.
- Reconstructing the course of writing in Kufi and Naskh scripts through studying manuscripts.

Keywords: Scripts – Arab and Islamic civilization – Manuscript – Kufi – Naskh.

(*) Editor and Reviewer of Arabic Language, Bibliotheca Alexandrina; and Master's Researcher, Institute of Arabic Manuscripts in Cairo.

مقدمة

تظل مشكلة الخط العربي مشكلة معقدة في التاريخ، تناولها كثير من المؤرخين بالرواية تارة، وبالتخمين تارة أخرى. ويرجع ذلك إلى أن تاريخ الشعب العربي في الجاهلية وعلاقاته آنذاك بالشعوب الأخرى من حوله لم تُقيِّد كتابًا، وكل ما وردنا منها نتف يسيرة جدًّا[١]، تكمن أغلبها في ذكر الأولين لأسماء خطوط عديدة دون توضيح السمات الأسلوبية والفنية لكل خط من الخطوط، خاصة في مرحلة تكوين الخطوط ونشأتها وعدم تمييز بعضها عن بعض.

ولذلك، فإن تتبع التطور التاريخي للخطوط مما يُفنى فيه الأعمار، فلا الإشارات التاريخية تسعفنا في تكوين تصور واضح عن خط من الخطوط، ولا المخطوطات الأولى التي وصلتنا كافية لوضع هذا التصور. ولذلك، فإننا نجد عزوفًا واضحًا من الكتاب والمؤلفين على مدار الأزمنة والعصور عن تناول هذه القضية بحقها، إذ دارت معظم الدراسات في المدارات التاريخية نفسها، مع بعض الاجتهادات التي لا تقوم في أغلبها على حقائق مادية ملموسة من المخطوطات.

وبناءً على ذلك كان هذا الموضوع البحثي، الذي يحاول البحث في الخطوط العربية، من خلال اتباع مسار يجمع بين اللمحات التاريخية والمخطوطات المادية معًا. ولكي لا يضل البحث سعيه وسط ما ذكرنا من صعوبات تواجه كل طارق لباب هذا الجزء من العلم، فقد آثرت أولًا: أن يقتصر البحث على أهم خطين من خطوط الحضارة العربية والإسلامية، وهما خطّا الكوفي والنسخ. ولم يكن الجمع بينهما في بحث واحد عفوًا، وإنما لوجود علاقات مادية وتاريخية تجمع بينهما، كما سيحاول البحث توضيح ذلك. كما آثرت ثانيًا أن أبتعد قدر الإمكان عن الخلافات والوقوف بدلًا منها على تلك الإشارات التاريخية التي تتوافق مع العقل ومنطق الأشياء، وما مالت إليه نفسي لصحته بدوام النظر والرجوع إلى المصادر في مظانها. وخدم هذا كله في تقديري ما اتخذته لنفسي من خط، محاولًا في جزئيه التطبيقي والنظري ألا أحيد عنه، وأن خروجي عنه إنما يكون بقدر الحاجة إلى استكمال القول فيه.

---

(١) يُنظر: عبد الصبور شاهين، **تاريخ القرآن**، ط.٣، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م: ١٠٥.

وكي يؤتي هذا البحث أُكُله، فقد آثرت أن أقسمه إلى ثلاثة مباحث رئيسة؛ تناول المبحث الأول مسار الكتابة العربية في الفترة التي سبقت الإسلام وبعده، وحاول المبحث الثاني أن يركز بشكل أدق على مسار الخطين الكوفي والنسخ من خلال ما وردنا من إشارات تاريخية مبعثرة هنا وهناك، ليأتي المبحث الثالث فيقدِّم تصورًا مختلفًا حول مسار الخطين، ولكن من خلال ما وقفت عليه من مخطوطات مادية تشترك فيما بينها بحدود زمانية ومكانية محددة، ليكون التصور أوقع وأصدق، فحاولت أن أربط بينها وبين ما وصلنا من اللمحات التاريخية بهدف خلق وحدة واحدة من التفكير، يُرجى من خلالها الوصول إلى نتائج حقيقية وجادة.



المبحث الأول

الكتابة العربية قبل الإسلام وبعده

المطلب الأول: الكتابة قبل الإسلام

عرف العرب الكتابة قبل الإسلام، فالعرب في العصر الجاهلي إبان الفترة التي سبقت الإسلام بقليل، كانوا يُعنَون بتسجيل الأحداث اليومية المهمة التي لها علاقة وثيقة بسواد الناس كتسجيل العهود، وكتابة المواثيق، وتثبيت الأحلاف، وتثبيت الصكوك التي كثيرًا ما استُعملت في حساب الأعمال التجارية والحقوق، إضافة إلى اهتمامهم بكتابة الرسائل المتبادَلة فيما بينهم[٢].

وقد عرفوا الخط من خلال التجارة التي كان يمارسها القرشيون مع الأنباط من ناحية، ومع إقليم السواد في العراق من ناحية أخرى. كما عرفوا أنواعًا من الخطوط نتيجة هذه التبادلات التجارية كالخط النبطي والحيري والأنباري، وبانتهاء الخط إلى المدينة ومكة وشيوعه منهما إلى جهات أخرى عرف باسميهما فيما عرف من الأسماء[٣].

وكانت هذه الخطوط على اختلافها لا تخرج عن نوعين رئيسيين: نوع شديد الجفاف مولَّد من خطوط العبرانيين والتدمريين، وكلها اقتطاع من الأم الآرامية المربعة، ونجد أمثلة على هذا النوع من الخطوط في النقوش الحجرية كنقش النمارة وزبد وحران، التي نقش الأنباط عليها أخبار ملوكهم وأمرائهم وحوادثهم الجسام تخليدًا لذكراهم. ونوع آخر لين يميل إلى الاستدارة، فكان بذلك أكثر مطاوعة وأسرع إنجازًا، فأدوا به أغراضًا عاجلة ودوّنوا به مذكراتهم اليومية، وكتبوا به المراسلات. غير أننا لا نعرف على وجه التحقيق ذلك النوع من الخط، ولكن الذي نعرفه من

---

(٢) يُنظر: كامل سلمان الجبوري، **موسوعة الخط العربي: الخط الكوفي (تاريخه، أنواعه، تطوره، نماذجه)**، ط. ١. لبنان: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م: ٣٩.

(٣) يُنظر: إبراهيم جمعة، **قصة الكتابة العربية**. القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٤٧م: ٢٢.

وصف ابن النديم للخطوط العربية الأولى أن خط المدينة كان أنواعًا منها المدور والمثلث والتئم، ومعنى ذلك أن العرب عرفوا الخط المستدير قبل الإسلام[٤].

ومن ثم، فقد دفعت الحاجة بالعرب في سياق تجارتهم مع الأنباط وغيرهم أن يستخدموا هذا الخط الأقرب إلى الاستدارة منه إلى الجفاف؛ لأن تدوين المعاملات التجارية من ناحية، وتدوين الأغراض اليومية من ناحية أخرى، يحتاجان إلى هذه النوعية من الخطوط.

هذا ما يمكننا أن نقف عليه من تصور للخطوط العربية قبل الإسلام، إذ إن «الخطوط التي كتب بها العرب في أول أمرهم تذكرها المصادر العربية بأسماء مختلفة، ولم ترد إشارة إلى خصائص تلك الخطوط غير القليل، ومنها ما أورده ابن النديم في الفهرست (سنة ٣٨٥هـ)[٥]. ولم يُظهِر أيًّا من الفوارق بين تلك الخطوط، والمرجَّح أنها كانت فوارق تجويد في أشكال الحروف لا فوارق في خصائصها. وأكثر الأسباب تأثيرًا هو أن العرب لم يتوفر لديهم من الاستقرار وأسباب الرفاهية بحيث تأخذ الكتابة أهميتها لديهم، فلم يحدث هذا التنوع في الخطوط العربية إلا عندما انتشرت المراكز الثقافية مثل الكوفة والبصرة والشام والفسطاط... ولذلك يمكننا القول بوجه عام إن أقدم الكتابات العربية ترجع إلى أصلين استنادًا إلى خصائصهما الشكلية، وهما التدوير والتربيع، أو التقوير والبسط، أو اللين واليابس»[٦].

وهذا ما يتفق كذلك مع طبيعة الأشياء، فالخط الذي يُكتب به على الحجر والعمائر وشواهد القبور سيختلف لا شك عن هذا الخط الذي سيُكتب به في سياق تدوين يومي للأحداث والمعاملات التجارية، إذ يحتاج الأول إلى آلات للنقش والدق، فينتج عنها حروف جافة ذات زوايا حادة، فلا تتوافر فيها تلك المرونة -إلا بقدر ما- كما ستتوافر عند استخدام أدوات كتابية أخرى كالبوص أو ما شابه، بحيث يتيسر للكاتب أن يكتب رسالته بشيء من الليونة والسرعة، وكذلك التاجر حين يُثبت حسابه وما إلى ذلك.

---

(٤) يُنظر: المرجع السابق: ٢٣-٢٤.

(٥) ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة: المطبعة الرحمانية: ٨ وما بعدها.

(٦) عبد الله بن عبده فتيني، «تاريخ فن الخط العربي من نشأة الكتابة إلى نشأة البنية الجمالية»، **أشغال الندوة العلمية لأيام الخط العربي الثانية: فن الخط العربي بين العبارة التشكيلية والمنظومات التواصلية** (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون – بيت الحكمة، مايو ٢٠٠٦م): ٧١-٧٢.



المطلب الثاني: الكتابة بعد الإسلام

حين جاء الإسلام «وأدرك النبي قيمة الكتابة وفهم خطرها، فجعل يطلق سراح الأسير في بدر إذا علّم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة، وكان أقرب الناس إلى نفس الرسول كتّاب الوحي، ولا غرو فالكتابة هي الوسيلة الوحيدة لتدوين كلام الله وأحاديث رسوله، والتدوين هو وسيلة البقاء ووسيلة الذيوع والانتشار»(٧).

ولم يكن اهتمام الإسلام بالكتابة في حد ذاتها بل تجاوز ذلك إلى الاهتمام بالخط الذي يُكتب به -على الرغم من عدم تأكدنا التام من سمات خطوط بعينها في تلك الفترة المبكرة-. ولذلك، نجد أن الكتّاب «قد تنافسوا فيما بينهم في تجويد الخط؛ وذلك لأن النبي كان يختار أجود الكتّاب خطًّا لكتابة رسائله التي يرسلها إلى ملوك الأرض للدخول تحت راية الإسلام»(٨).

ويبدو أن الخطوط الجافة كذلك قد تجاورت بجانب الخطوط اللينة في تلك الفترة المبكرة لظهور الإسلام، إذ يرى محمد عبد العزيز مرزوق أن هناك نوعين من الخطوط زمن النبي ﷺ وقصد بهما الخطين اليابس واللين. ليس هذا فقط بل إنه مال إلى الاعتقاد بأن كتّاب النبي كانوا يعيدون ما كتبوه بالخط اللين بإملاء النبي الكريم عليهم ليعودوا فيكتبونه بالخط الجاف ذي الطبيعة الرسمية(٩).

وهذا الرأي لا يتعارض على كل حال مع رأي الدكتور إبراهيم جمعة الذي لا يظن أن كتّاب الوحي قد كتبوا بهذه الصورة اليابسة التي نراها على الأحجار النبطية المكتشفة في زبد وحران والنمارة، كما لا يتصور أن يكون الخلفاء الأوائل تراسلوا مع عمالهم بهذا الخط الجاف(١٠).

وأيًّا ما يكون التصور ووجهة النظر سواء أكتب كتّاب الوحي بهذا الخط اللين ثم كتبوا بالخط اليابس الذي يتوافق مع جلال القرآن حسب تصورهم في هذا الوقت، أو أنهم لم يكتبوه

---

(٧) يُنظر: إبراهيم جمعة، **قصة الكتابة العربية**: ٣١.

(٨) سهيلة ياسين الجبوري، **الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق**، بغداد: مطبعة الزهراء، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م: ٢٩.

(٩) يُنظر: محمد عبد العزيز مرزوق، **المصحف الشريف: دراسة تاريخية وفنية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م: ١٦-١٧، هامش١.

(١٠) إبراهيم جمعة، **قصة الكتابة العربية**: ٢٥-٢٦.

سوى بالخط اللين، فإن ما لا خلاف عليه وفق ما نظن هو أن الخط اليابس في تلك الفترة قد جاور الخط اللين، كما كان الحال قبل الإسلام، وكما سيستمر على مدار العصور الإسلامية التالية.

مات النبي وتولى أبو بكر الخلافة وتعرض لفتنة الردة مما اضطره إلى حفظ القرآن، وما نظنه في تلك الفترة أن المصحف قد جُمع تحت وطأة الخوف على ضياع القرآن، فدفعهم هذا إلى السرعة في نقله من الصدور إلى السطور، فكُتب بخط أسرع يميل إلى المطاوعة والتدوير. وهي الظروف نفسها المتشابهة لفتنة عثمان، إذ مع انتشار الإسلام واتساع رقعته في عهده «أدرك ما لتدوين القرآن من أثر في حفظه وضبطه وذيوعه، فجمعه في مصحف فريد عُرف بالمصحف الإمام، وهو المصحف الذي أمر بنسخه وإشاعته في الأمصار»[١١]. «وهو أول استخدام الكتابة العربية بأصولها الأولى التي احتفظت بالرسم النبطي في كثير من صور الكلمات وكُتب بالخط المقور المستدير»[١٢].

وقد نفهم سبب الكتابة بهذا الخط المستدير من السياق التاريخي آنذاك، إذ كان الوقت وقت فتنة تكاد تعصف باستقرار الإسلام ولُحمة المسلمين، وذلك حين اختلفت الأمصار في قراءة القرآن. فمنطق الأشياء يقضي أن الوقت ليس فيه متسع لكتابة عدة نسخ بتلك الحروف الجافة اليابسة التي تستغرق الوقت والجهد. ولعل هذا يدفعنا إلى التشكيك مع من شكَّك في تلك المصاحف المنسوبة إلى عثمان، والمكتوبة بالخط الجاف الأقرب إلى الخط الكوفي مستقر القواعد والنِّسَب بين الحروف.

وعلى كل حال، فـ«من المعلوم أنه لم يُكتب شيء من الكتب في ذلك العهد إلا القرآن، فإنه لم تكد مصاحف عثمان بن عفان تصل إلى الأمصار حتى تلقفها النُّساخ، فأجادوا نقلها وتنافسوا في كتابتها، حيث كثر سوادهم في الأمصار، واتخذ نساخ كل صقع طريقة لهم في الكتابة، وحينئذ أخذ الخط يترقى ويتفرع شأن كل حيٍّ»[١٣].

ونحاول في المبحث التالي الوقوف على مسار أهم ما أنتجته الحضارة العربية من خطوط، وأعني بهما الخطين الكوفي والنسخ؛ حيث بلغا حظًّا وافرًا من الاهتمام والتطوير والتفريع.

---

(١١) إبراهيم جمعة، **قصة الكتابة العربية**: ٣٤.

(١٢) سهيلة ياسين الجبوري، **الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق**: ٣٤.

(١٣) عبد الفتاح عبادة، **انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي**. القاهرة: مطبعة هندية بالموسكي، ١٩١٥م: ١٢-١٣.



المبحث الثاني

الكتابة بخطي الكوفي والنسخ

المطلب الأول: الكتابة بالخط الكوفي

كان أول الافتنان والابتكار بالخط العربي في الكوفة في خلافة علي بن أبي طالب ﷺ. وكانت أكثر انتشارًا منها في المدن الأخرى. ومن باب التغليب سُمي الخط الذي يُكتب به على المنابر والمحارب والعمائر وفي المصاحف والنقود (بالخط الكوفي)[١٤] لِما بلغ من جودة وإتقان وهندسة وانتظام[١٥].

وقد بقي الخط العربي فترة من الزمن على حالته القديمة، غير بالغ مبلغه من الإحكام والإتقان في زمن الرسول والخلفاء الراشدين؛ لانشغال المسلمين بالحروب حتى زمن بني أمية، فابتدأ الخط يسمو ويرتقي، وكثر عدد المشتغلين به. وفي أواخر أيامهم تفرع الخط الكوفي إلى أربعة أقلام، اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة المحرر (ت ١٣١هـ)، كان أكتب أهل زمانه، ثم اشتهر بعده في أوائل الدولة العباسية رجلان من أهل الشام انتهى إليهما الرئاسة في جودة الخط، وهما الضحاك ابن عجلان وإسحاق بن حماد[١٦].

واستمر الخط الكوفي على رأس الخطوط المستخدمة في القرون الأولى، حتى بعد انتقال الخلافة من الكوفة إلى دمشق وقيام الدولة الأموية، وانتقال مركز العناية بالكتابة العربية إلى الشام، ظل الخط الكوفي محتفظًا بمكانته، خصوصًا في كتابة المصحف. وحين عادت الخلافة إلى العراق

---

(١٤) يعد ابن النديم في كتابه الفهرست من أوائل من نقل هذا المصطلح نقلًا عن محمد بن إسحاق حيث ذكر: «قال محمد بن إسحاق: فأول الخطوط العربية الخط المكي وبعده المدني ثم البصري ثم الكوفي». وكذلك ورد هذا المصطلح في رسالة أبي حيان التوحيدي في علم الكتابة. ينظر: ابن النديم: **الفهرست**، مصر: المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ: ٨؛ أبو حيان التوحيدي، **من رسائل أبي حيان التوحيدي: رسالة في علم الكتابة**، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠١م: ٢٧٩.

(١٥) سهيلة الجبوري، **الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق**: ٣٥.

(١٦) عبد الفتاح عبادة، **انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي**: ١٣.

في بغداد زمن العباسيين «توجهت العناية في تجويد الخط الكوفي هناك؛ حيث أخذ في التطور السريع والإجادة في الرسم وجمال الشكل، حتى أصبح له جمال خاص، لِما أُدخل عليه من ابتكار وتحسين»[١٧].

وظل الخط الكوفي «أكثر الخطوط شيوعًا في كتابة المصاحف حتى تنوعت الأقلام وظهرت أنواع أخرى من الأقلام الثقال في العصر العباسي.. ولكن هذا الخط القديم بقي الخط المفضل لكتابة القرآن»[١٨]، وكذلك الكتابة على المساجد والمآذن والقباب، والقصور والقلاع.

وقد تجاور مع الخط الكوفي اليابس خط لين آخر «تبرز أهميته في بداية أمره في بداية العصر الأموي؛ حيث كان مخصصًا في بداية أمره لكتابة الوثائق الأقل أهمية، ثم بدأ يكتسب أهميته الخاصة من خلال استخدامه في الموضوعات الرسمية. وقد استُعمل من قِبل النسّاخ والوراقين والمصنفين والمترجمين الذين مثّلوا حركة التأليف والترجمة التي تعاظمت وانتشرت بسرعة، وبرزوا كأصحاب حرفة جديدة لها أهميتها»[١٩].

أما في العهد العباسي فقد ظل هذا الخط اللين «في خدمة الدواوين الرسمية والمكاتبات اليومية والأغراض العلمية، وذلك لمرونته وسرعة كتابته. وصار الخط في العصر العباسي بشكل عام ممثِّلًا للطابع الإسلامي، ودليلًا على الحضارة الإسلامية، وامتزج بالعقيدة، فكان التبرك بكتابة الآيات القرآنية أمرًا لا يكاد يخلو من عمل فني أو مسجد أو منارة وفي الأقطار الإسلامية كافة»[٢٠].

ولذلك، فإن العقل لا يتصور أن تكون الكوفة قد اقتصرت على ما عُرف بالخط الكوفي ذي الزوايا الحادة والجاف وقنعت به؛ «لأن الكوفة –حاضرة العالم الإسلامي في وقت من الأوقات– لم تكن لتستغني عن خط مرسَل تدوَّن به المراسلات، وهي البلد التي لا تفتأ تصدر عنه الكتب إلى عمال الدولة وولاتها، وهيهات لخط يابس أن يؤدي مهمة التراسل، وهي المهمة التي تحتاج

(١٧) سهيلة الجبوري، **الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق**: ٤٣.

(١٨) إبراهيم جمعة، **دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع أخرى من العالم الإسلامي**، دار الفكر العربي، ١٩٦٩: ٧١.

(١٩) عبد الله بن عبده فتيني، «تاريخ فن الخط العربي من نشأة الكتابة إلى نشأة البنية الجمالية»: ٧٦.

(٢٠) هدى فرج القطعاني، **الوراقة والوراقون في الدولة العباسية وأثرها في الحضارة الإسلامية (٢٣٢-٤٤٧هـ/ ٨٤٦-١٠٥٥م)**، رسالة ماجستير. ليبيا: جامعة بنغازي، ٢٠١٦-٢٠١٧م: ١١.



بطبيعتها إلى السرعة والمطاوعة، فلا بد والحال كذلك أن تكون الكوفة قد حذقت إلى جانب الخط اليابس الذي عُرف باسمها خطوطًا لينة، هي صور من خطوط الحجاز تطورت أو بقيت على حالتها التي كانت عليها، تأدت بها الأغراض اليومية وأعمال الدولة وخدمة الحركة العلمية التي عُرفت بها هذه الحاضرة العريقة»[٢١].

عرفت الكوفة إذن نوعين أساسيين من الخط؛ «نوع يابس ثقيل صعب الإنجاز تؤدَّى به الأغراض الجليلة، ونوع آخر لين تجري به اليد في سهولة، وهو الخط الذي انتهى إلى الكوفة من المدينة، وقد سُمِّي النوع الأول اليابس بالخط التذكاري، الذي استُخدم في التسجيل على المواد الصلبة كالأحجار والأخشاب لإثبات الآيات القرآنية والأدعية وتاريخ الوفيات، ويتميز هذا الخط بالجمال والزخرفة، وأحيانًا بخلوّه من النقط وترابط الحروف. وسُمِّي النوع الثاني اللين بخط التحرير الذي كان للمكاتبات والتدوين والتأليف»[٢٢].

«وقد يكون هذا القدر من التدليل كافيًا للقضاء على النظرية القديمة التي ظلت تقول إن الخط اللين المستدير سلالة من الخط الكوفي اليابس ذي الزوايا، ومما لا شك فيه أن هذا الخط المخفف اللين هو الأصل في الكتابة المستديرة التي انتهت إلينا باسم الخط النسخي»[٢٣].

فما أصل خط النسخ إذن ما دام أنه ليس متطورًا من الكوفي؟ هذا ما سنحاول الوقوف عنده في المطلب التالي.

---

(٢١) إبراهيم جمعة، **دراسة في تطور الكتابات الكوفية**: ٢٠.

(٢٢) المرجع السابق: ٢٨.

(٢٣) نفسه: ٥٧.

المطلب الثاني: الكتابة بخط النسخ

إننا في حقيقة الأمر لا نعلم بشكل واضح أصل خط النسخ كما «لا نعلم بالتحديد أصول كثير من الخطوط، كما أن أي نوع من الخطوط لم يوجد دفعة واحدة ولا بشكل مفاجئ حتى نتمكن من تحديد تاريخ ظهوره بشكل دقيق؛ فقد استدعى كل نوع من الخطوط سيرًا بطيئًا وتدريجيًّا، ولا شك أن كل خط خضع لتجارب ومحاولات قرون وسنين عدة إلى أن تجلى الخط وتكامل»[٢٤].

وعلى الرغم من ذلك، فقد ذهب طائفة من العلماء العرب إلى أن خط النسخ قد أُخذ من الخط الكوفي، وأن الخط الكوفي أصل له[٢٥]. وقد اختلفوا في الزمن الذي اشتُق فيه هذا الخط من الخط الكوفي؛ فيذكر صاحب كشف الظنون ما نصه: «ومن الوزراء الكتاب أبو علي محمد بن مقلة المتوفى سنة ثمانٍ عشرين وثلاثمائة (٣٢٨هـ)، وهو أول مَن كتب الخط البديع[٢٦]، ثم ظهر صاحب الخط البديع علي بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة (٤١٣هـ)، ولم يوجد من المتقدمين مَن كتب مثله ولا قاربه، وإن كان ابن مقلة أول مَن نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة، وله بذلك أفضلية السبق، وخطه أيضًا في نهاية الحُسن، لكن ابن البواب هذَّب طريقته، ونقَّحها، وكساها طلاوة وبهجة»[٢٧].

---

(٢٤) عادل الألوسي، **الخط العربي: نشأته وتطوره**، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨: ٤١.

(٢٥) من هؤلاء الذين ذهبوا لهذا الرأي النويري (ت ٧٣٣هـ)، وكذلك ما نقله القلقشندي (ت ٨٢١هـ) عن صاحب كتاب «إعانة المنشئ»، وغيرهما. ينظر: النويري، **نهاية الأرب في فنون من ذهب**، ج. ٩، ط. ١، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٣هـ: ٢٢٠؛ القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج. ٣، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م: ١٧.

(٢٦) لابن مقلة دور متشعِّب في ميدان الخط العربي نجمله على النحو التالي:

– أول من هندس حروف الخط العربي ووضع لها القوانين والقواعد، ولم يصل إلينا خبر مصنَّف قبله فعل هذا.

– أنه ابتكر مصطلحات في الخط لم يُسبق إلى مثلها، مثل مصطلحات (حسن التشكيل)، وهي: التوفية، والإتمام، والإكمال، والإشباع، والإرسال، ومصطلحات (حسن الوضع)، وهي: الترصيف، والتأليف، والتسطير، والتنصيل.

– أنه أول من وضع قواعد دقيقة في ابتداءات الحروف وانتهاءاتها، وفي علل المدات، وفي أصناف بري القلم.

– أنه حرر لنا نصًّا نفيسًا عن أجناس الأقلام والخطوط وتطورها زمن الأمويين والعباسيين، وهو نص أورده البطليوسي، فكشف به جانبًا مهمًّا في تطور الأقلام والخطوط، كما حرر لنا نصوصًا مهمة عن أصناف الكتاب ومراتب المكاتبين. ينظر: هلال ناجي، **ابن مقلة: خطاطًا وأديبًا وإنسانًا، مع تحقيق رسالته في الخط والقلم**، ط. ١، بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩١م: ٢٣.

(٢٧) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج.١، بيروت: تصوير مؤسسة التاريخ العربي – دار إحياء التراث العربي: ٧١١.



ويُفهم من هذا أن الناس كانوا قبل عصر ابن مقلة يكتبون الخط الكوفي، وهو خط صعب معقد مؤسَّس على زوايا قائمة، وكان زيادة على ذلك غامضًا... حتى جاء ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٧هـ فنقل الخط نقلة جديدة، وغيَّر الخط الكوفي إلى الخط النسخي، ووضع للخط النسخي قاعدة جميلة، وربما كان هذا سببًا في سهولة النسخ وكثرة كتبه[٢٨].

ومن الممكن الرد على من ارتأى أن الخط النسخي مشتق من الخط الكوفي أو أنه من اختراع أو من ابتداع ابن مقلة أو غيره، من خلال ما ذكره القلقشندي حين قال: «فإنا نجد في الكتب بخط الأولين فيما قبل المائتين ما ليس على صورة الكوفي، بل يتغير عنه إلى نحو هذه الأوضاع المستقرة، وإن كان هو إلى الكوفي أميل لقربه من نقله عنه»[٢٩].

وكما أن الخط النسخي لم يُشتق من الكوفي، فإن ابن مقلة لم يبتدع الخط النسخي ابتداعًا، ودليل ذلك على سبيل المثال النسخة الموجودة في المكتبة الخديوية التي هي من رسالة الإمام الشافعي، والتي كُتبت سنة ٢٦٥هـوخطها أقرب إلى الخط النسخي المتعارف عليه الآن منه إلى الخط الكوفي[٣٠]. وهذه صورة إحدى لوحاتها.

(٢٨) يُنظر: أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م: ٤٣٠.

(٢٩) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج. ٣، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م: ١٥. وقد ذكر القلقشندي مصطلح «النَّسخ» وعنى به نوع الخط صراحةً نقلًا عن صاحب «إعانة المنشئ» فقال: «قال صاحب إعانة المنشئ: وولَّدا –الوزير أبو علي محمد بن مقلة وأخوه أبو عبد الله– طريقة اخترعاها وكتب في زمانهما جماعة فلم يقاربوهما. وتفرد أبو عبد الله بالنَّسخ والوزير أبو علي بالدَّرج»، المصدر نفسه: ١٧. وقد سُمي الخط بهذا الاسم نظرًا لكثرة استخدامه في نسخ الكتب ونقلها، وذلك لسهولة الكتابة به، كما سنبين ذلك تفصيلًا في المبحث الثالث.

(٣٠) يُنظر: سهيلة الجبوري، **الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق**: ٤٥.

لوحة من لوحات رسالة الإمام الشافعي المكتوبة سنة ٢٦٥هـ.



وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الخط النسخي كان مستعملًا قبل زمن ابن مقلة. وكل ما قام به ابن مقلة وفقًا لمثل هذه المسودات والاكتشافات المكتوبة بالخط المستدير، هو أنه «وضع لحروف الخط النسخي قواعد وقوانين خاصة في وضعها وأشكالها. وأدخل على الخط النسخي تحسينات كبيرة بعد أن كان مختلًّا، وأدخله في كتابة المصاحف وكتابة الدواوين، وكذلك جوّد فيه أخوه أبو عبد الله الحسن بن مقلة، وهو أكتب من أخيه في خط النسخ»[٣١].

وجاء بعد ابن مقلة ابن البواب الذي كان من أشهر الخطاطين، وسار على نهج ابن مقلة، وطوَّر في أسلوبه، وعُين خطاطًا في جامع المنصور ببغداد. وقد ركز ابن البواب على ترشيق الحروف وتليينها، واستعمل الخط النسخي وخطوطًا أخرى في كتابة القرآن الكريم، كما استعمل خط الثلث لكتابة عناوين السور، وعني بالزخرفة المواجهة للكتابة، ولا سيما عند نسخ فاتحة الكتاب، وعمل الفواصل الجميلة الصغيرة، واهتم كذلك بالتزيين بالذهب[٣٢].

هذا عن مسار الخطين إذن، حاولنا تتبع مسار كلٍّ منهما على حدة، فهل ترانا وصلنا لشيء يذكر؟ وهل تُرانا ربطنا بين الإشارات التاريخية بشيء من المنطق كما وعدنا؟ لقد حاولنا في الصفحات السابقة تتبع مسار الخطين، ووضعناهما في إطار عام يقسم الخطوط بشكل واسع إلى جافة ولينة، ولكلٍّ منهما استخدامه، ولكننا بعدُ لم ننظر في استخدام الخطين بشكل عملي في المخطوطات التي وصلتنا في محاولة لتتبع مسارهما معًا من خلالها، وهذا ما سأتناوله تفصيلًا في المبحث التالي.

---

(٣١) المرجع السابق: ٤٧.

(٣٢) يُنظر: عادل الألوسي، **الخط العربي نشأته وتطوره**: ٣٦.

المبحث الثالث

مسار الكتابة بخطي الكوفي والنسخ من خلال المخطوطات

المطلب الأول: تصور آخر لمسار الخطين

إن كنا قد علمنا أن ثمة سمتين للخطوط سارا جنبًا إلى جنب، وهما سمتا اليبس والتدوير، وعلمنا كذلك أن خط النسخ ليس مأخوذًا من الخط الكوفي، ووقفنا على أن خط النسخ كان موجودًا قبل ابن مقلة، وأن دور ابن مقلة كان مقتصًرا على تحسين هذا الخط وتجويده، إن كنا قد علمنا هذا كله فسيظل هناك حلقات مفقودة، ويظل المشهد ناقصًا، وثمة أسئلة كثيرة مطروحة تحتاج إلى تصور وربط الخيوط بعضها ببعض بناءً على ما سبق ذكره.

ونتساءل بدءًا ذا بدء عن نوع الخط الذي استخدمه الوراقون حين انتشر التأليف وكثر الانتساخ؛ هل استخدموا الخط الكوفي اليابس الذي كان مستخدَمًا بكثرة في كتابة القرآن، بوصفه الخط الشريف الذي يتناسب مع شرف العلوم الشرعية والحديث؟ وهل طوّروا فيه -إن كانوا يستخدمونه في الانتساخ فعلًا- فلجأوا إلى تليينه بدرجة ما ليتناسب مع سرعة كتابة المؤلفات الضخمة؟ أو أنهم احتفظوا فيه باليبوسة نفسها؟ أو أنهم وبدافع الرغبة منهم في تيسير الانتساخ استدعوا الخط المدوَّر اللين الذي كان مستخدَمًا في الدواوين والكتابات اليومية والمعاهدات بوصفه خطًّا سهلًا يتناسب مع السرعة المطلوبة في مثل هذه الأمور؟ وهل تكفي المخطوطات والشواهد التي وصلتنا في تلك المرحلة المبكرة من نشأة الخطوط لكي نبني عليها تصورًا واضحًا؟

وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات يجب أن نضع تصورًا لأنفسنا وفقًا لجميع ما سبق من معطيات، فنحن هنا أمام إيمان راسخ أن الخطوط اليابسة قد تجاورت بجانب الخطوط المدورة، وأنه كان لكلٍّ خط منهما استخدامه، وهو الاستخدام الذي يخضع وفق تصوري لمبدأ السهولة؛ فالخط اليابس أسهل عند كتابته على النقش الحجري منه إلى المدور، لصلابة أدوات الحفر



والنقش، فلا يتيسر لها إحداث دورانات بشكل سلس وسهل إلا بدرجة محدودة. ومبدأ السهولة نفسه انطبق على الخطوط المدوّرة التي كانت تُستخدم لتيسير أمور دنيا الناس، وإقامة تجارتهم، وتبادل معاهداتهم، والكتابة في دواوينهم.

وقد اكتسب الخط اليابس وفقًا لذلك بمرور الزمن قدرًا من الاحترام والتبجيل يتناسب مع ما كُتب به، إذ كانت هذه النقوش تُكتب في الأغلب الأعم لتخليد ذكرى عظيم لديهم أو على المعابد والأديرة، فاكتسب من هنا هذا النوع من الخط قدَره. ولعل هذا ما يفسر سبب كتابة المصاحف الأولى بالخطوط اليابسة على اختلاف أنواعها وأشكالها. وفي المقابل لم يتحقق هذا القدر من الاحترام والتبجيل في بداية الأمر مع الخطوط المدورة لارتباطها بنمط الحياة اليومية القائم على السرعة وإنجاز المهام ولو كانت بدون الدقة والضبط اللازمين.

ولكن كانت نقطة التحول حسب تصوري «في القرن الثاني للهجرة، لا سيما بعد نصفه الأول -أي بعد بناء بغداد سنة ١٤٥هـ- حيث كان الاتجاه العلمي للثقافة والفكر صوب تمييز العلوم بعضها عن بعض»[٣٣]، فقد أشار الذهبي إلى أيام حكم أبي جعفر المنصور قائلًا: في سنة ١٤٣هـ«شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير... وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودُوِّنت كتب العربية، واللغة والتاريخ وأيام الناس.. وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة»[٣٤].

و«هذا النص يفتح الباب واسعًا أمامنا لنرى الأهمية القصوى لوجود الوراقين، لأن مثل هذه العلوم، وهي تمر بفترة جديدة ومرحلة متقدمة -هي مرحلة التدوين- يتطلب نقلها من مصر إلى آخر، ومن مكان لسواه، لذلك كانت مهنة الوراقة هي المطلب الحضاري الذي وجب وجوده لمسايرة هذه الحالة، وقد كان سوق الوراقين بعدما أُنشئت بغداد واحدًا من مشاهير الأسواق، والوراقون فيه سادة الموقف الثقافي»[٣٥].

---

(٣٣) خير الله سعيد، **وراقو بغداد في العصر العباسي**، ط.١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م: ١٧٩.

(٣٤) شمس الدين الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت ٧٤٨هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط.٢، ج.٩، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م: ١٣.

(٣٥) خير الله سعيد، **وراقو بغداد في العصر العباسي**: ١٨٠.

ولنضع أنفسنا هنا موضع الوراقين؛ فبأي خط سيكتبون في هذا الخِضَم الهائل من التأليف والنَّسْخ؟ كان أمام الوراقين وفقًا لما سبق وذكرناه نوعين من الخطوط؛ خط جاف يُكتب به القرآن الكريم، ممثَّل في الخط الكوفي المستقرة قواعده في زمان مبكر، وخط لين يُكتب به في الدواوين وما شابه.

وأتصور بدايةً أن الوراقين دخلوا في صراع الاختيار، وثمة خلفية ثقافية ضاغطة في اتجاه أن الحرف اليابس أكثر وقارًا وإجلالًا يتناسب أكثر مع ما ينسخونه من كتب شرعية وحديثية وأدبية وعلوم كثيرة نشأت على مائدة القرآن الكريم، بخلاف الخط المدور السهل الذي يتناسب أكثر مع طبيعة النساخة والسرعة.

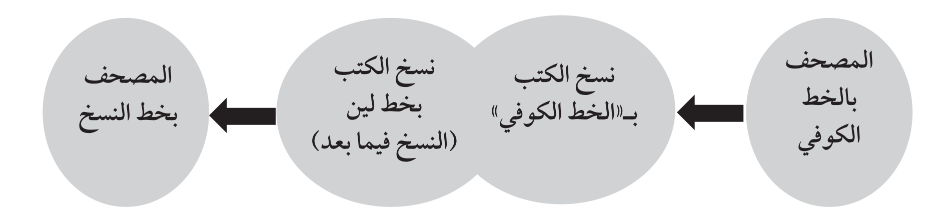
ونلحظ من طرف خفي مؤشرات على هذه الأزمة الثقافية من خلال المناهج الوسطية التي وضعها الوراقون لأنفسهم؛ «حيث أكدوا على عدم المبالغة في تحسين الخط، واهتموا بصحته وتصحيحه، وأشاروا إلى أهمية تجنب التعليق جدًّا -وهو خلط الحروف التي ينبغي تفرقها- والابتعاد عن المشق أي سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف، واختاروا لأقلامهم أنواعًا من القصب، وأكدوا على ألا يكون القلم صلبًا جدًّا فيمنع سرعة الجري ولا رخوًا فيسرع إليه الحفى»[٣٦].

فهم في سعيهم هذا يحاولون دائمًا التوسط في الأمور كلها، وهو التوسط الذي ينسحب كذلك على الخطوط نفسها. إذ بدا لي من خلال مطالعة المخطوطات الأولى التي وصلتنا أنها مكتوبة بخط كوفي اكتسب ليونة تتناسب إلى حدٍّ كبير مع السرعة في الانتساخ، وعدم مراعاة الدقة التامة لقواعد الخط الكوفي، وهي القواعد التي كانت مستقرة وثابتة لكثرة ما ورد إلينا من نصوص قرآنية قديمة في تلك الفترة.

ويمكن إجمال الفكرة التي أحاول أن أوصلها في أن الخط الكوفي الذي كان يُكتب به القرآن في القرون الأولى انتقل من نسخ القرآن إلى نسخ الكتب. ولأنه خط جاف صعب لا يتناسب مع سرعة النشر والبيع آنذاك فقد أجروا على الخط الكوفي الصلب ليونة تسمح لهم بسرعة الانتساخ، ثم استدعوا بعد حين الخط اللين الذي كان يُستخدم أكثر ما يستخدم في

(٣٦) المرجع السابق: ٢٣٠.

المكاتبات اليومية والدواوين، فبدأوا ينسخون به الكتب، بوصفه خطًّا أكثر ليونة ومطاوعة لهم في الكتابة السريعة. وحدث في ظل تجاور الخطين معًا الكوفي والنسخ (فيما بعد)، نوع من التفاعل والتأثير والتأثر بينهما، حتى بدأ النسخ يستقل بذاته شيئًا فشيئًا، خاصة بعد وضع قواعد محددة أوصلته لكتابة المصحف الشريف، ليكون بذلك المصحف بالخط الكوفي والمصحف بخط النسخ نموذجين علويين، وما بينهما خطوط نساخية عاشت جنبًا إلى جنب، وتأثرت بالنموذج الأعلى وأثرت فيه، فلا تنقطع بذلك الصلة بين الخط بوصفه فنًّا من ناحية، وبوصفه أداة لنقل المضمون على أي شكل يكون من ناحية أخرى، ويوضح الشكل التالي ما أرمي إليه:



هي فرضية إذن تصورتها من خلال إعمال النظر والربط بين الإشارات التاريخية القليلة الواردة إلينا. ولكن يبقى التدليل عليها واجبًا من خلال ما وصلنا من مخطوطات في تلك المرحلة الأولى من مراحل النساخة العربية. لعل جماع الأمرين معًا -أعني الإشارات التاريخية الواردة والمخطوطات المادية الملموسة- يكون كاشفًا لمسار الكتابة في المرحلة المبكرة في تحولها من الخط الكوفي إلى خط النسخ.



المطلب الثاني: التدليل على التصور من خلال المخطوطات

كثر الانتساخ في الفترة العباسية -خاصة في القرنين الثالث والرابع- حين استقرت أمور الدولة، وهدأت الحروب، وازدهر التدوين ونَسْخ الكتب وصناعتها بوجه عام كما ذكرنا، وتولُّد الخطوط بعضها من بعض والافتنان بها. ولذلك فقد تراءى لي أن أقتصر على مخطوطات تلك الفترة، حتى لا يتشعب الموضوع، وتضيع الفكرة الرئيسة وسط عدد لا نهائي من المخطوطات القديمة، وعشرات الآراء المتضاربة والمختلفة.

وقد آثرت كما حددت الفترة الزمنية أن أحدد كذلك المكان، فآثرت ألا تبتعد المخطوطات المتَّخذَة محلًّا للدراسة والاستشهاد على مركز الخلافة العباسية ببغداد، في محاولة لخلق وحدة في التفكير، وإيجاد مسوغات لفكرة التأثير والتأثر بين الحواضر القريبة بعضها من بعض؛ «فبقدر ما يكون عدد المخطوطات المسجلة قد نسخ نحو العصر نفسه، وفي المنطقة نفسها، ويقدِّم الخصائص الكتابية نفسها، بقدر ما تكتسب المجموعة المكوَّنة صلابة وحُجيَّة»[٣٧].

وقد انطبق على هذين المعيارين الزماني والمكاني، مخطوطات محدودة، ورغم كونها كذلك فإني أظنها كاشفة عما نصبو إليه، وهي:

أولًا: أجزاء من مصحف عباسي من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (قبل ٢٦٢/ ٨٧٦م)[٣٨]، وتحتوي على آيات من سورة آل عمران، ومحفوظة في مكتبة كمبردج الرقمية، برقم حفظ (MS Add.1116). ويبدو أن نمط المصحف حسب المكتبة يتوافق مع النمط العباسي (D.I)[٣٩]، كما وصفه فرنسوا ديروش F. Déroche، وتشير الملاحظة المضافة في أعلى الأوراق إلى أن هذا القرآن كان وقفًا لأمير دمشق «أماجير».

(٣٧) فرنسوا ديروش، **المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي**، نقله إلى العربية وقدم له أيمن فؤاد سيد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ٣١٨.

(٣٨) Islamic Manuscripts: al-Qur'ān (cam.ac.u k).

(٣٩) ينظر: François Déroche, *The Abbasid Tradition: Qur'ans of the 8th to the 10th Centuries AD*, The Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press: 44.



وبذلك يتحقق في هذا المخطوط القرآني المعيارين الزماني والمكاني؛ إذ إن الراجح حسب ما أشرنا أن المصحف كُتب في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وأنه موقوف على أمير دمشق التي تعد جزءًا من الحاضرة العباسية وقريبة من مركز الخلافة ببغداد. ونعد تلك النسخة معيارًا للكتابة المصحفية التي نقيس عليها بعد ذلك الاختلافات، حين انتقل الخط الكوفي من كونه أداة للفن في كتابة المصاحف إلى أداة نفعية للانتساخ.

ثانيًا: الجزء التاسع من مخطوط «غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ-٨٣٨م). وقد كُتبت هذه النسخة على الأرجح في بغداد، وسبب قول ذلك: التملك الوارد عليها حيث كُتب آخر الكتاب (ملكه الفقير إلى رحمة الله تعالى وغفرانه منوشهر بن خسرو بمدينة السلام بغداد في سنة سبعمائة وخمسين). وكونه قد تملكها في هذه السنة المتأخرة نوعًا ما عن زمن كتابتها في القرن الثالث الهجري، لَدليل على أنها كُتبت في العراق على الأقل، وظلت هناك طوال هذه الفترة.

وسبب اختيار هذا المخطوط أننا نعد الخط المكتوب به خطًّا كوفيًّا وِراقيًّا. فلا تقتصر الأهمية التاريخية لهذه النسخة بذلك على كونها أول مخطوط ورقي يصلنا فقط، بل تتعدى ذلك إلى كونها مهمة في الكشف عن تطور الخطوط الوِراقية في تلك الفترة.

ثالثًا: مخطوط «مسائل أحمد بن حنبل»، محفوظ في ظاهرية دمشق (حديث ٣٣٤)، ومصور لدى معهد المخطوطات. وقد سُمع وكُتب سنة ٢٦٦هـ أي في حياة المؤلف أبي داود الذي كان على اتصال دائم بالعراق، واستقر بالبصرة، فلا يُستبعد أن تكون هذه النسخة كُتبت في هذا الوقت.

ويقترب الخط المكتوب به هذا المخطوط من المخطوط السابق، ولكن سبب اختيارنا له بالدرجة الأولى هو ما نظنه أنه يوضح فكرة التحول من الخطوط اليابسة نحو مزيد من الليونة.

رابعًا: مخطوط «المأثور من اللغة من كلام أبي العميثل الأعرابي»، الذي يحتفظ به معهد المخطوطات العربية بنسخة مصورة تحت رقم (٢٢٨ لغة)، وهي مصورة من مكتبة ولي الدين في تركيا تحت رقم (٣١٣٩)، وقد كُتبت سنة ٢٨٠هـ، ولا يُعلم تحديدًا أين كتبت، ولكن لا نستبعد كتباتها في حاضرة الخلافة العباسية كذلك لعدة اعتبارات، منها قرب كتابة النسخة من وفاة

كاتبها أبي العميثل الذي توفي سنة ٢٤٠هـ، وقد كانت للرجل علاقات وطيدة بمدن العراق منذ كان يرتحل إليها من أعماق البادية ليأخذ عنهم اللغويون والرواة اللغة والأخبار والشعر، كما ذكر ذلك ابن النديم(٤٠). ولقرب وفاته من زمن كتابة النسخة، فالأغلب أنها لم تخرج عن هذه المساحة المكانية.

وسبب اختيار المخطوط الخطُّ المكتوب به، إذ نجده يتشابه إلى حدٍّ كبير مع نسخة «غريب الحديث»، مما يوضح أن هذا النوع من الخطوط قد استُخدم فترة من الزمان في تلك المساحة الجغرافية زمن الخلافة العباسية.

خامسًا: مخطوط «الغاذي والمغتذي» لابن أبي الأشعث، الذي كُتب في الموصل في ذي القعدة ٣٤٨هـ، نقلًا من نسخة وقّع عليها المؤلف في قلعة برقي في أرمينيا في صفر ٣٤٨هـ(المكتبة البريطانية: مخطوطات شرقية OR 2600).

وسبب اختيار هذا المخطوط أننا نظن أنه يمثل أولى الكتب المنسوخة التي كُتبت بالخط اللين المدور، الذي كان قد عُرف في زمن كتابته بخط النسخ أو خط البديع كما أسماه ابن مقلة.

سادسًا: مخطوط مصحف ابن البواب، لأبي الحسن علي بن هلال (ابن البواب)، المتوفى سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م، من نسخة كتبها ابن البواب ببغداد سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، (دبلن: شستربيتي IS 1431).

وسبب اختيار هذا المخطوط القرآني كونه مكتوبًا بخط النسخ بعد ابن مقلة، ليمثل بذلك قمة استخدام خط النسخ، بعد أن اكتسب قدرًا من التبجيل، وذلك في انتقاله من خط يُكتب به في الدواوين بدون مراعاة للدقة والضبط إلى خط يتمتع بقواعد واضحة ونسب جمالية محددة، بحيث يُسمح له بكتابة المصحف الشريف.

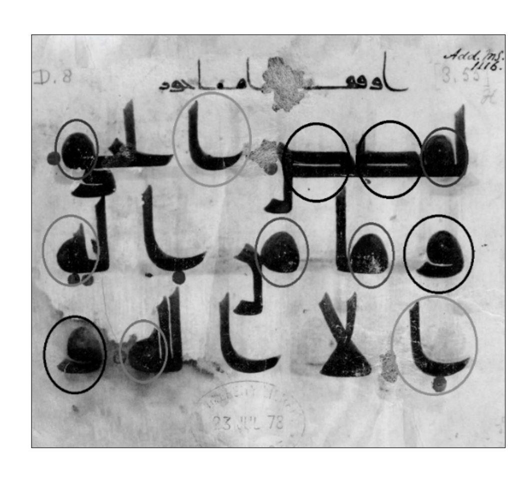
هذه إذن عينة الدراسة وسبب اختيارنا لها. وتبقّى قبل البدء بعرض النماذج والمقابلة بينها أن نحدد لأنفسنا أهدافًا واضحة، فماذا نريد من المقابلات تحديدًا؟ وكيف ستكون؟

(٤٠) ابن النديم، **الفهرست**: ٦٥ وما بعدها.

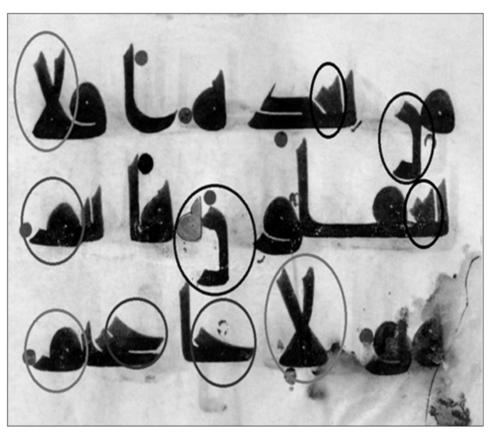


بدايةً، ليس الهدف الأساسي من إجراء هذه المقابلة مقابلة حروف بحروف في جداول لنصل من خلالها إلى تطور واضح للخطوط، فمثل هذه المقابلات تصح بكثرة النُّسَخ من ناحية، وبالتركيز على خط واحد من الخطوط، وهذان الشرطان غير متحققَيْن في هذا البحث. ولكن الهدف الأساس من هذه المقابلات هو محاولة إيجاد الروابط والعلاقات الخطية التي تجمع بين المخطوطات، في محاولة لربط بعضها ببعض بخط فكري واضح.

ونبدأ هنا بعرض نماذج من المصحف المكتوب بالخط الكوفي، لنقابل بعدها بينها وبين الخط المكتوب به مخطوط «غريب الحديث».



(ورقة ١و) من مصحف مكتبة كمبردج الرقمية.



(ورقة ٥ظ) من مصحف مكتبة كمبردج الرقمية.

إن أهم ما يمكن أن نقف عليه من خلال الورقتين السابقتين هو اتباع الخطاط لقواعد ثابتة في الحروف في مختلف أوضاعها، فنجد حروف: الواو، والهاء النهائية، والصاد، والألف، والميم، والنون، واللام ألف، والحاء، والعين، متشابهة حد التطابق في هاتين الورقتين، لتعبِّر بذلك عن التشابه والتطابق بين باقي حروف وكلمات المصحف. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل بدايةً على وصول الخط الكوفي في زمن كتابة المصحف، وهو النصف الأول من القرن الثالث، إلى قمة توهجه ووصوله إلى النضج، إذ نجده يسير وفقًا لقواعد واضحة ومحددة.

فهذا الخط إذن كتبه خطاط ملمٌّ بقواعد هذا الخط وأصوله، فجرى عليها واتبعها في كلمات المصحف جميعًا، فإن افترضنا هنا أن ناسخًا أراد أن يستخدم هذا الخط بوصفه خطًّا شريفًا في نساخة الكتب فعلى أي وضع ستكون النتيجة؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل، علينا بداية أن نؤكد على الفرق بين الخطاط والناسخ، فليس كلُّ ناسخ بالضرورة خطاطًا، ولا يُطالب الناسخ في عملية الانتساخ -خاصة إن كانت لأغراض تجارية بهدف نشر العلم- أن يصل بجودة الخط إلى درجة كبيرة من الدقة والإتقان حال كتابة المصاحف أو الكتب الخزائنية. ولذلك فالناسخ بالضرورة يختار من الخطوط أيسرها وأطوعها في يده.

وفي حالتنا هذه وقد افترضنا أن الخيارات التي أمام الناسخ في الخطوط محدودة، وقد ارتبط في ذهنه وفي خلفيته الثقافية حينها أن للخط اليابس جلالًا لا يتوافر في الخط اللين لارتباط الخط اليابس (الخط الكوفي في هذا الوقت) بكتابة المصاحف، فإنه عندها سيلجأ في انتساخه لكتب الدين والعلم إلى تطويع هذا الخط وتليينه ليصبح على نحو قريب من النسخة التي وصلتنا من مخطوط «غريب الحديث» لأبي عبيد على النحو التالي.

تمثل هذه اللوحة -حسب ما نظن- إذن رغبة الناسخ في الكتابة بالخط الكوفي، وقد اضطر تحت وطأة السرعة إلى عدم مراعاة النِّسب الصحيحة بين كل حرف وآخر؛ لأن كاتب هذه النسخة في نهاية الأمر ناسخًا وليس خطاطًا. ولكن السؤال الأهم هنا: هل تمثل هذه اللوحة بالفعل الخط الكوفي؟

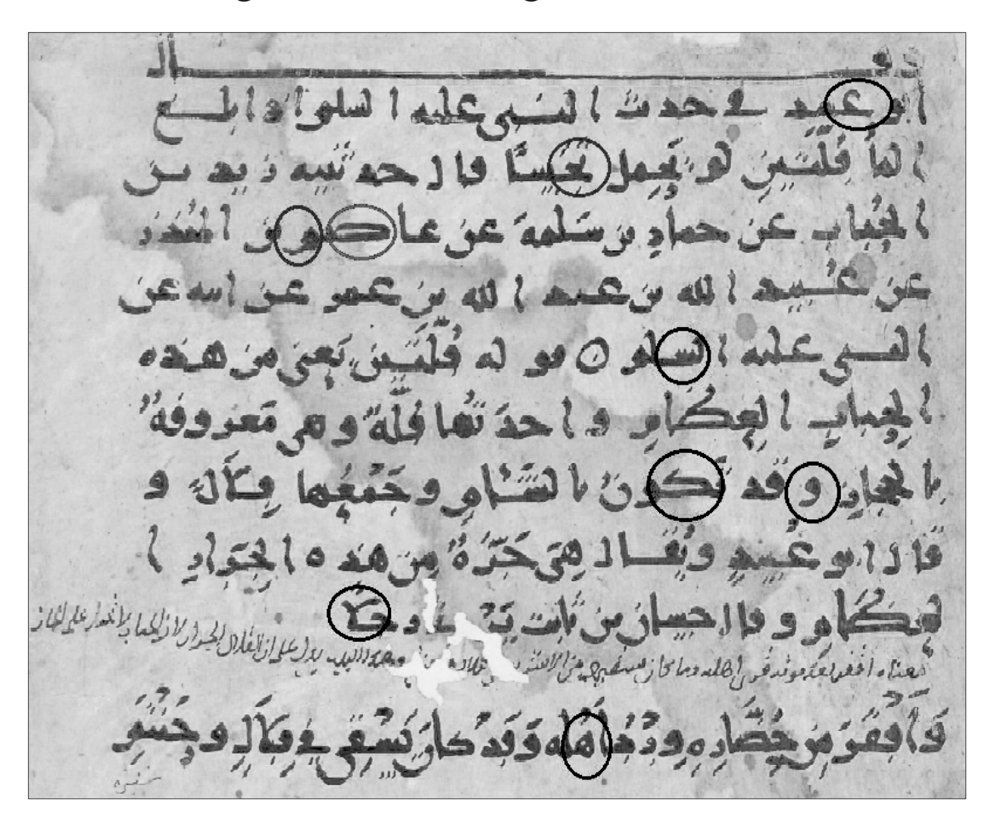


(ورقة ١ظ) من مخطوط «غريب الحديث» لأبي عبيد.

إن الإشكالية التي يواجهها كثير من المفهرسين والمحققين بالفعل هي عدم القدرة على تصنيف الخطوط للتداخل الكبير بينها، وعدم جريانها بشكل دقيق على قواعد خط من الخطوط. ولذلك لا نتعجب من أن يطلق الدكتور محمد عبد المعيد خان في مقدمته لتحقيق هذا الكتاب على هذا الخط بأنه خط مغربي(٤١)، دون تقديم أي دليل واضح على هذا. وقد يطلق غيره على هذا الخط أو قريب منه خط النسخ بلا ضابط واضح ولا رابط.

(٤١) أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، **غريب الحديث**، مراقبة: د. محمد عبد المعيد خان، ط. ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الهند، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م: يو.

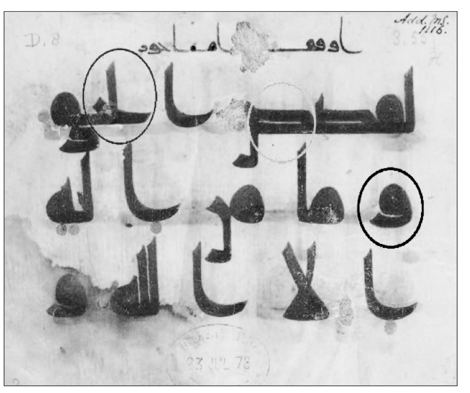
ولذلك، فإننا في السطور التالية نحاول إيجاد هذه الروابط من خلال تتبع بعض الحروف ومقابلتها بين المصحف المكتوب بالخط الكوفي محل استشهادنا، وبين هذه النسخة التي نزعم أنها مكتوبة بالخط الكوفي «النِّساخي» إن صح أن نطلق عليه هذا المصطلح.



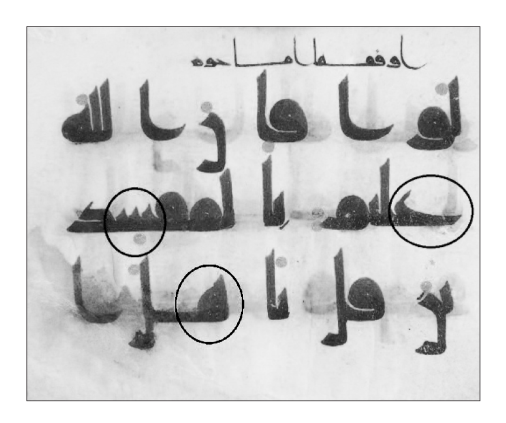
أبو عبيد في حديث النبي عليه السلام إذا بلغ
الما قلتين لم يحمل نجسا قال حدثنيه زيد بن
الحباب عن حماد بن سلمة عن عاصم بن المنذر
عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن
النبي عليه السلام قوله قلتين يعني من هذه
الحباب العظام واحدتها قلة وهي معروفة
بالحجاز وقد تكون بالشام وجمعها قلال و
قال أبو عبيد ويقال هي جرة من هذه الجرار ا
لكبار وقال حسان بن ثابت

(ورقة ١ظ) من مخطوط «غريب الحديث» لأبي عبيد.

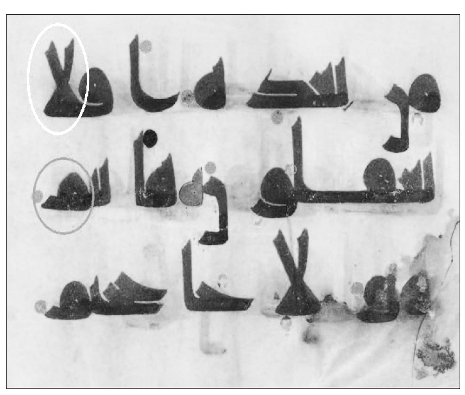




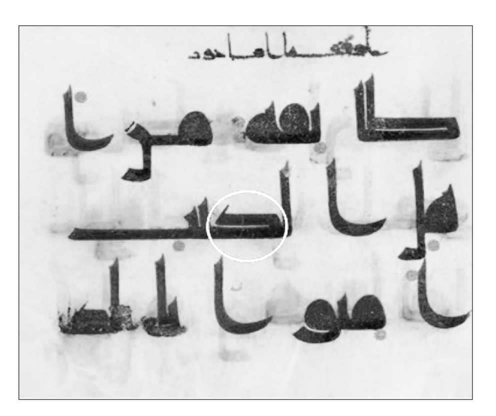
(ورقة ١و) من مصحف مكتبة كمبردج الرقمية.



(ورقة ٢و) من مصحف مكتبة كمبردج الرقمية.



(ورقة ٥ظ) من مصحف مكتبة كمبردج الرقمية.

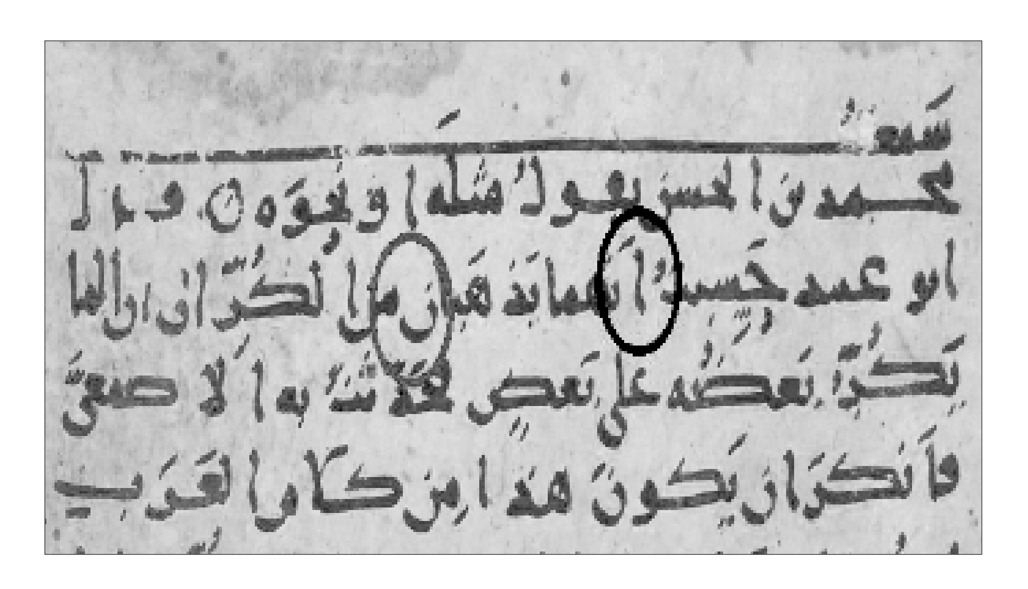


(ورقة ١٢و) من مصحف مكتبة كمبردج الرقمية.

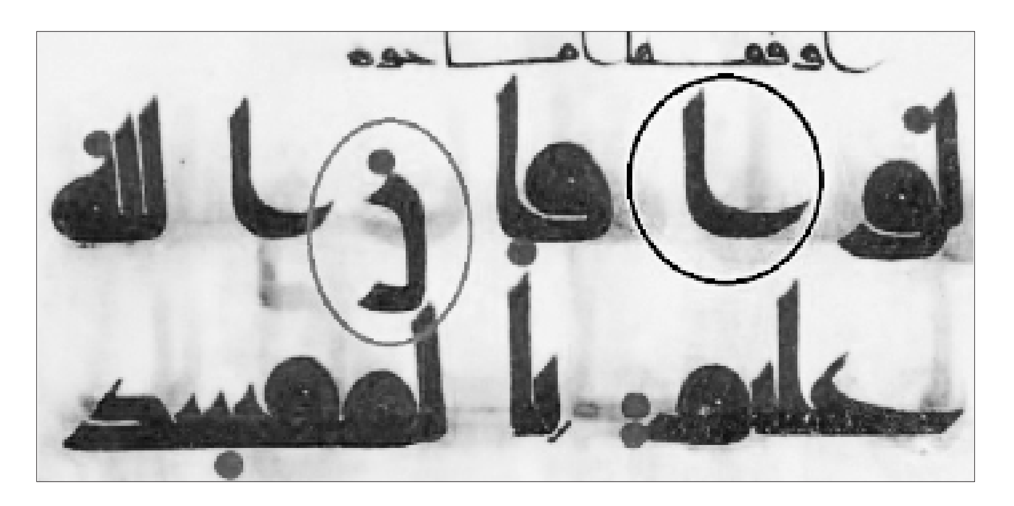
إننا من خلال اللوحات الخمس السابقة نستطيع أن نضع أيدينا على ملمح رئيس يؤكد على العلاقة بين خط المصحف وخط المخطوط، وهو التشابه الواضح بين كثير من الحروف، ودللنا على بعض منها من خلال اللوحات السابقة، إذ نجد فيها التشابه الواضح في حرف العين (ومن ثم الغين) عندما يأتي في أول الكلام، وكذلك الحاء الوسطية حيث تأتي بزاوية حادة تحت اللام أو

الباء (ومن ثم حرفا الخاء والجيم)، وكذلك حرف الصاد في الموضعين نجده قد استطال متخذًا شكل المستطيل (ومن ثم الضاد والطاء والظاء)، وتشابها في حرف السين (ومن ثم الشين)، فاتخذت سنونها شكلًا هرميًّا واضحًا، وجاءت الواو كذلك متشابهة بين موضعي الاستشهاد (ومن ثم الراء والزاي والذال والدال)، إذ تتشابه هذه الحروف جميعًا في الخط الكوفي المصحفي بوجه عام، وكذلك في الكتاب موضع الاستشهاد، ووجدنا الكاف كذلك متطابقة بين الخطين، فجاءت على هيئة ما أصبح يطلق عليه بـ«الكاف الشعبانية»، التي تبدأ بشارة حادة صغيرة وجسمها ممتد بخطين طويلين متوازيين، واللام ألف وجدناها كذلك متطابقة حين جاءت في آخر الكلام، فجاءت على هيئة اللام ألف حين تأتي منفردة، فتشابه شكلها على هذا النحو في الخطين، ووجدنا كذلك الميم النهائية وقد جاءت شظيتها من أسفل.

هذه إذن مجرد نماذج لبعض الحروف في مواضع مختلفة، نحاول من خلالها التأكيد على العلاقة الوطيدة بين الخطين. والأعجب أن التشابهات لا تجعلنا مطمئنين لهذه العلاقة فحسب، وإنما الاختلافات نفسها -أو التي تبدو هكذا- بين هذين الخطين تجعلنا أكثر اطمئنانًا، وندلل على هذا الأمر بحرفي الألف والنون؛ حيث يبدو أن ثمة اختلافًا واضحًا بينهما حال كتابتهما في المصحف وفي مخطوط غريب الحديث على نحو ما تظهره هاتان اللوحتان:







ولكن من يدقق النظر في حرف الألف أولًا في كلا الموضعين، فسيجد أن ثمة تشابهًا بينهما في حركة القلم؛ إذ يبدأ القلم من أعلى بميل خفيف نحو اليمين ثم يعتدل القلم بشكل رأسي قبل أن يتجه ناحية اليمين بطرف مقوَّس تجاه الأعلى، في حين أننا نجد في الخط الكوفي النِّساخي حركة القلم نفسها، ولكن اختُزلت حركة القلم الرأسية واتخذت الحركتين العكسيتين ليونة تشبه شكل الحلزون.

والأمر في حرف النون قريب من ذلك أيضًا، فالنون بالخط الكوفي المصحفي تتخذ عدة زوايا، ويتحرك القلم فيها ثلاث حركة تبدأ من نقطة بالأعلى بميل نحو اليمين ثم يتجه القلم رأسيًّا، قبل أن يتجه بعدها نحو اليسار، في حين اختُصرت في الخط الكوفي النساخي إلى حركة واحدة تبدأ من نقطة وتنتهي عند نقطة متخذة عمقًا معينًا، وهذا أيسر عند الكتابة من الثلاثة اتجاهات السابقة.

فيدلنا هذا كله على تلك العلاقة بين الخط الكوفي المصحفي، وبين الخط الكوفي حين يراد له أن يُستخدم بشكل أسرع في الانتساخ.

وإذا انتقلنا إلى مخطوط آخر، وهو مخطوط «مسند الإمام أحمد بن حنبل»، فسنلاحظ أن الخط المستخدم فيه كذلك لم يبتعد كثيرًا عن الخط الكوفي الذي استُخدم في نسخ الكتب على نحو ما تبينه اللوحة التالية:



(ورقة ١و) من مخطوط «مسند الإمام أحمد بن حنبل»، لأبي داود.

نلاحظ من خلال اللوحة السابقة تشابهًا كذلك مع الخط الكوفي المصحفي، مما يؤكد على الصلة كذلك بين هذا الخط الوراقي وخط المصحف، كما نلاحظ هذا بوضوح في حروف: (السين والشين)، و(العين والغين)، و(الجيم والحاء والخاء)، و(الدال والذال والراء والزاي والواو)، و(الصاد والضاد والطاء والظاء)، وغير ذلك من الحروف في مواضعها المختلفة. وإن كان ثمة فرقان بين هذه

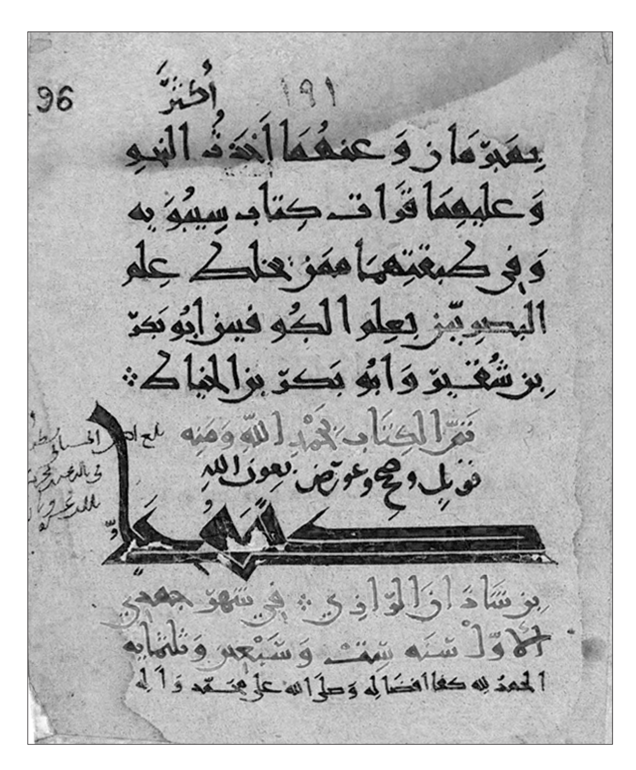


النسخة والنسخة السابقة لأبي عبيد؛ يعود الفرق الأول للسمة الشخصية لكل ناسخ وتجويده في الكتابة، حيث لم يرتقِ ناسخ هذه النسخة إلى خط كاتب مخطوط غريب الحديث، والفرق الثاني والأهم هو ما نلاحظه هنا من ميل خط هذا المخطوط إلى التسريع والتليين أكثر من المخطوط السابق، وهو ما نلاحظه بشكل واضح -على سبيل المثال- على الكاسات التي جاءت على هيئة شرطة مائلة، فتحولت من ثلاث حركات للقلم في الخط المصحفي، إلى حركة واحدة لها نقطة بداية ونقطة انتهاء متخذة عمقًا معينًا، إلى شرطة مائلة لا تحمل أي عمق، ولا يتحرك القلم إلا في اتجاه واحد تيسيرًا وتسهيلًا.

ويدور مخطوط أبي العميثل في فلك ما سبق، وهو المخطوط المكتوب في القرن الثالث الهجري، وهي الفترة القريبة من كتابة ما سبق من مخطوطات، وهذه صورة إحدى لوحاته.

إحدى لوحات مخطوط «المأثور عن أبي العميثل الأعرابي».

وتؤكد هذه اللوحة كذلك من هذا المخطوط ما أكده المخطوطان السابقان من اعتماد هذا الخط الأقرب إلى الكوفي منه إلى النسخ في الوراقة في تلك الفترة إلى حدٍّ كبير. وإن كانت اللوحة السابقة توضح اقتراب خطها لنسخة أبي عبيد منها إلى نسخة مسند الإمام أحمد بن حنبل، من حيث جودة الخط، وهي وإن كانت أمورًا تعود لفروق التجويد من ناسخ لآخر، فإننا لا نستطيع أن نغفل هنا أن مسار الخط الذي وضّحناه متشابك، فليس بالضرورة أن الخطوط الوراقية الأولى أقرب للكوفي، ثم انمحى هذا النوع من الخط في النساخة والوراقة، وإلا فقد وجدنا مخطوطات تَلَتْ المخطوطات الثلاثة السابقة مكتوبةً بخط كوفي صِرف، وهو مخطوط «أخبار النحويين البصريين ومراثيهم، للحسن بن عبد الله السيرافي، المتوفى ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م» من نسخة كُتبت سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م، بخط علي بن شاذان الرازي، وهذه صورة الورقة الأخيرة منه:


وعليهما قرأت كتاب سيبويه
وفي طبقتهما ممن خلط علم
البصريين بعلم الكوفيين أبو بكر
بن شقير وأبو بكر بن الخياط
تم الكتاب بحمد الله ومنه
قوبل وصحح وعورض بعون الله
كتبه علي
بن شاذان الرازي في شهر جمادى
الأول سنة ست وسبعين وثلثمائة
الحمد لله كما هو أهله وصلى الله على محمد وآله

خاتمة مخطوط «أخبار النحويين البصريين ومراثيهم»،
نقلًا عن الكتاب العربي المخطوط: الجزء الأول (النماذج)، د. صلاح الدين المنجد.



وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الخيارات كانت متاحة أمام الناسخين، فمنهم من يعرف قواعد الخط الكوفي ولديه بحبوحة في الوقت والعيش، فينسخ الكتب بهذا الخط، ومنهم من يعرفه ويتقنه واستخدمه في الانتساخ السريع فلم يراعِ الدقة الكاملة، وهكذا، فهي عدة عوامل متشابكة ومتداخلة بعضها في بعض.

ولكن ما لفت نظري ما كُتب في آخر المخطوط بخط لين لا لبس فيه، وهناك احتمالان؛ فإما أن هذا الخط قد كُتب وقت كتابة النسخة أو بعدها بقليل، فيدل هذا على ما ذهبنا إليه من فكرة تجاور الخطين واستدعاء الخط اللين في النسخ في أضيق الحدود، و إما أن هذا الخط قد أُلحق بالمخطوط في وقت متأخر.

ومما يستحق الوقوف عنده أننا حين نقف على رسالة الإمام الشافعي التي أوردناها في سياق المبحث الأول، والذي علقت عليها الدكتورة سهيلة الجبوري فقالت إنها نسخة يميل خطها إلى النسخ منه إلى الكوفي، مستدلِّة بذلك على أن ابن مقلة لم يبتدع الخط الكوفي ابتداعًا، فإننا في الحقيقة نستطيع أن نلحقها الآن بالخط الكوفي الوراقي أو النساخي(٤٢).

وما يلفت النظر في هذه المخطوطة كذلك ويستحق التأمل، أن كاتبها هو الربيع بن سليمان، «وقد كتب الربيع بخطه في آخرها إذنًا بنَسْخها في ذي القعدة سنة ٢٦٥هـ، وأنا أجزم بأنها كلها بخط الربيع، وأنه كتبها في حياة الشافعي، أي قبل آخر رجب سنة ٢٠٤هـ»(٤٣). وحين نعلم أن الربيع بن سليمان(٤٤) قد عاش في مصر وأن هذه النسخة بطبيعة الحال قد كُتبت في مصر، فإن هذا يفتح الباب على مصراعيه نحو مزيد من الدرس والتأمل في فكرة تأثير الحواضر العربية والإسلامية بعضها في بعض. فإن كان هذا الخط الكوفي النساخي كما أسميناه قد بدأ في بغداد، فقد امتد إلى

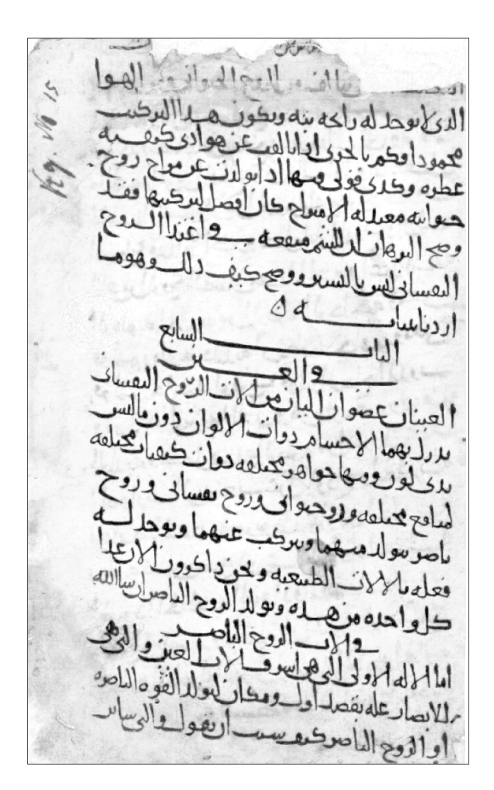
(٤٢) يُنظر النموذج المرفق لإحدى لوحات رسالة الإمام الشافعي صفحة ٩٦.

(٤٣) الشافعي، محمد بن إدريس (١٥٠-٢٠٤هـ): **الرسالة - مقدمة تحقيق**، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط.١، مصر: مطبعة مصطفى البابلي الحلبي، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م: ٦.

(٤٤) أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي بالولاء المؤذن المصري، صاحب الإمام الشافعي؛ وهو الذي روى أكثر كتبه، وهو آخر من روى عن الشافعي بمصر، وتوفي الربيع يوم الاثنين لعشر بقين من شوال سنة سبعين ومائتين بمصر، ودفن بالقرافة مما يلي الفقاعي في بحريه في حجرة هناك. ينظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، ج. ٢، بيروت: دار صادر. ج. ٢: (ت ٦٨١هـ): ٢٩٢.

غيرها من الحواضر الإسلامية، وليس أدل على ذلك من رسالة الشافعي التي تعد من أقدم ما كُتب على الورق من المخطوطات، وإن كان هذا يتطلب مزيدًا من الأبحاث والرؤى التي تحاول تتبع مسارات الخطوط على المستويين الأفقي والرأسي من خلال المخطوطات.

وأيًّا ما يكون الأمر، فإن ما لا لَبْس فيه عندنا تجاور الخطين اليابس على اختلاف أنماطه وأشكاله، واللين على اختلاف أنواعه واستخداماته جنبًا إلى جنب، وشاهدنا انتساخ الكتب بالخط اليابس حين حاول أن يتحرر قليلًا من جموده نحو التليين الذي يتناسب مع السرعة، لنجد بعد حين اعتماد النساخ على الخط اللين في انتساخ كتب كاملة، بعد أن فرض هذا النوع من الخطوط نفسه كونه الأيسر والأسهل والأجدى نفعًا في ظل انتشار العلم وكثرة الانتساخ، وأقدم ما وقفت عليه مخطوط «الغاذي والمغتذي»، المكتوب بخط النسخ بعد زمن ابن مقلة، وهذه صورة منه:



(ورقة ١و) من مخطوط «الغاذي والمغتذي» لابن أبي الأشعث.



ونلاحظ في هذه اللوحة تحولًا واضحًا في الانتساخ من خط يميل إلى الكوفي إلى خط لين كان موجودًا ومتطورًا، ولكنه في الوقت نفسه احتفظ ببعض خصائص الحروف الكوفية مثل الكاف واللام ألف وغيرهما.

ولكن هل يصح فعلًا أن نحكم على خط هذا المخطوط بأنه خط نسخ؟ وما مفهوم هذا الخط وما حدوده؟

هنا يجب أن نقف عند نقطتين مهمتين؛ أولاهما أننا يجب أن نفرق بين الخط النسخي الوراقي الذي يمثله هنا مخطوط «الغاذي والمغتذي» وخط النسخ الفني[٤٥] الذي يمثله مصحف ابن البواب كما سنورد صورة منه لاحقًا، فكلاهما خطان لينان؛ غير أن الأول استُخدم في انتساخ المخطوطات التي تحتاج في انتساخها إلى سرعة، فلا تسير الحروف وفق نظام من القواعد المعيارية الضابطة، وأما الثاني فهو الخط اللين الذي اعتمد على قواعد محددة يجب أن يتبعها الخطاط كي يدخل نَسْخه تحت إطار الفن.

وهو فرق يجب الوقوف عنده والتأكيد عليه؛ خاصة أنه «حتى الآن لم يتم عمل تمييز جوهري بطريقة متماسكة بين شكل الخطوط الـمُعتنى بها (المجوَّدة) والتي كتبها خطاطون محترفون مع الاهتمام بالانتظام بقصد الحصول على نتيجة أنيقية، من جانب؛ والكتابات التي لا تُعنى بالمظهر، والتي نفَّذها أشخاص لا يسيطرون بكفاءة على الكتابة أو لا يشعرون بالحاجة لاستخدام كتابة متجانسة، من جانب آخر»[٤٦].

وأما النقطة الثانية فهي مفهوم خط النسخ في القرنين الثالث والرابع، وهما القرنان اللذان تختص الدراسة بتناول مخطوطاتهما، إذ بدا لي من خلال الاطلاع أن مفهوم خط النسخ حتى زمن ابن مقلة ومن بعده ابن البواب لم يكن مستقرًّا إلى حدٍّ ما؛ إذ كانت تلك الفترة فترة أولى من المحاولات والتجريب والتطوير من قِبل أوائل الخطاطين هولاء من أمثال ابن مقلة وابن البواب وغيرهما.

---

(٤٥) استعرت هذا المصطلح من د. محمد عبد العزيز مرزوق، في كتابه «المصحف الشريف: دراسة تاريخية وفنية»: ٨٠.

(٤٦) فرنسوا ديروش، **المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي**: ٣٢٧.

ومن خلال النظر بعد النظر نستطيع أن نقول إن خط النسخ الذي عُرف ابن مقلة بأنه هو من وضع قواعده كما سلف وذكرنا، لم يكن يتعدى كونه خطًّا لينًا وُضعت له قواعد محددة، ودليل ذلك التداخل بينه وبين خط المحقق/ الريحاني(٤٧)، حتى قيل إن النسخ مأخوذ منه.

ومن خلال إشارة دالة لابن النديم نستطيع الوقوف على عدة أمور من خلالها، حيث ذكر: «وحدث خط يُسمَّى العراقي، وهو المحقق الذي يُسمَّى «وراقيًّا»، ولم يزل يزيد ويحسن حتى انتهى الأمر إلى المأمون، فأخذ أصحابه وكتابه بتجويد خطوطهم فتفاخر الناس في ذلك»(٤٨).

وأغلب الظن أن الخط الوراقي هذا هو الخط اللين الذي استخدمه الوراقون في الانتساخ السريع، خاصة أنه كان يسمى بالمحقق كما ذكر ابن النديم، فإذا صحت العلاقة بين خطي المحقق والنسخ، فهي صحيحة بالتبعية بين الخط الوراقي والنسخ وفقًا لما نقله ابن النديم: «وهو المحقق الذي يسمى وراقيًّا».

ويؤكد على تلك العلاقة بين الخط المحقق وخط النسخ حبيب الله فضائلي حين يقول: «ونرى أن النسخ في مرحلة تطوير الخطوط على يد ابن مقلة، مستخرج من خط «المحقق»، وبعد ذلك تأثر بالثلث، ودليلنا على ذلك:

- نقل صاحب «رسالة الخط المنسوب» أن أستاذ ابن البواب (محمد بن الأسد)، والذي كان تلميذ ابن مقلة، كان يكتب خط النسخ قريبًا من المحقق فأحكمه.
- بين أيدينا خط النسخ بقلم ابن البواب نفسه، والذي هو قريب من المحقق والريحان.
- يلاحظ -بعد التدقيق- أن الشبه واضح في أشكال النَّسخ إذا قورنت بالمحقق والريحان والثلث. فلا بد لنا من القول إن خط النسخ كان متأثرًا بقواعد المحقق والثلث»(٤٩).

---

(٤٧) الخط الريحاني هو خط يشبه المحقق مع بعض التصغير، وكلا القلمين لا تُطمس فيهما الميم والواو والعين والقاف والفاء. فهو أقل حجمًا من المحقق، وتزيد عدد كلماته في السطر الواحد عن المحقق. ولهذا الشبه بينهما قرنّاهما في سياق واحد ليصح التدليل. يُنظر: عفيف البهنسي، **معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين**، ط. ١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥: ٦٤.

(٤٨) ابن النديم، **الفهرست**: ١٢.

(٤٩) حبيب الله فضائلي، **أطلس الخط والخطوط**، ترجمة محمد التونجي، ط. ٢، دمشق: مكتبة لسان العرب، ٢٠٠٢: ٢٩٣.



وسبب تسمية الخط بهذين الاسمين وفقًا لما نراه يعود إلى الوظيفة التي يقوم بهما كل واحد منهما، فالوراقي هو هذا الخط اللين الذي استخدمه الوراقون في نسخ الكتب -مثله في ذلك مثل الكوفي الوراقي الذي وقفنا عليه سابقًا- وهو الخط غير منضبط القواعد(٥٠). أما الخط المحقق فهو هذا الخط اللين كذلك ولكن محكوم بنظام قواعدي، وهذا واضح من اسمه الذي يدلُّ على صفته ومسمّاه. وقد عُرف الخط المحقق/ الوراقي فيما بعدُ -بعدَ التطوير- بخط النسخ.

وما دفعنا إلى التطرق لهذه المسألة الشائكة، اختلاف الباحثين حول ماهية خط ابن البواب الذي كتب به مصحفه، بين فريق يقول إنه مكتوب بخط النسخ، «فالخط الذي انتهى إلى الثبات قرب نهاية القرن الرابع الهجري هو الخط الذي عُرف بعد ذلك بخط النسخ. وأقدم المصاحف المدونة بهذا الخط هو المصحف الذي كتبه أشهر الخطاطين العرب علي بن هلال ابن البواب في مدينة السلام ببغداد سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، والمحفوظ اليوم بمكتبة شيستربتي»(٥١).

وذهب فريق ثانٍ إلى أن الخط المكتوب به المصحف هو الخط الريحاني، إذ «تعد النسخة المصحفية التي كتبها ابن البواب سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، والمحفوظة في مكتبة تشستربيتي؛ أقدم النماذج المعروفة لدينا بالخط الريحاني»(٥٢)، مستندًا في ذلك -فيما استند إليه- إلى ما ورد في رسالة «في الكتابة المنسوبة» من نسبة الخط الريحاني إلى ابن البواب، خاصة أنها كُتبت في زمنه، فيذكر صاحبها عن ابن البواب: «وأبدع في قلم الرقاع والريحان وتلطيفه»(٥٣).

(٥٠) يعرِّف القلقشندي سمة الخط المحقق بأنها «ما صحت أشكاله وحروفه على اعتبارها مفردة»، وهذا يتلاءم مع التعريف اللغوي لكلمة «محقق» التي تعني المحكم والمنظَّم. كما ورد في أساس البلاغة للزمخشري: وثوب محقق النسج: محكمه. وكلام محقق: محكم النظم. القلقشندي، **صبح الأعشى في فن الإنشا**، ج. ٣: ٢٦؛ الزمخشري، **أساس البلاغة**، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط. ١، ج. ٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م: ٢٠٤.

(٥١) أيمن فؤاد سيد، **الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات**، ط.١، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م: ٣٠٨.

(٥٢) نصار منصور، «الخطاط ياقوت المستعصمي (ت ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م): دراسة تحليلية للخصائص الفنية لأسلوبه في الخط الريحاني»، **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار**، مج. ١٢، ع. ٢، الأردن: ٢٠١٨: ٤٠.

(٥٣) مجهول، «رسالة في الكتابة المنسوبة»، تحقيق د. خليل محمود عساكر، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج. ١، ج. ١، القاهرة: مطبعة مصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م: ١٢٦.



وذهب فريق ثالث إلى القول بأن المصحف مكتوب بخط النسخ المائل إلى الريحان، خاصة أن خط النسخ مستخرَج من خط الريحاني/ المحقق(٥٤)، ومتأثر بقواعده. وهذا أقرب لمنطق الأشياء الذي لا يتصور استواء خط من الخطوط دفعة واحدة، وإنما يستغرق الأمر وقتًا من تداخل الخطوط بعضها في بعض، والتأثير والتأثر، ووضع القواعد واختبارها تطبيقًا، حتى تستقر الخطوط، ويستقل كل خط بسماته الواضحة.

ولذلك فحين نطلق تجاوزًا على خط ابن البواب بأنه خط نسخ، فإننا نعني به تلك السمات الكتابية الواضحة لهذه المخطوطة المكتوبة بخط لين، والذي يتضح فيها «انتظام حروفها والنسبة بينها وبين حرف الألف، والتي نستطيع أن نصفها بأنها كتابة بخط النسخ المتأثر بالخط المنسوب. وبالرغم من هذا الانتظام فإن رسم الحروف خالٍ من أية آلية، وتلك ولا شك كما يقول Rice هي الظاهرة التي تفيض بالحيوية التي أضفاها ابن البواب على فن الكتابة؛ فقد نجح في كتابة خط ذي سلاسة توافقية مع الحفاظ على تنسيق وتناسب حروف الهجاء»(٥٥).

وإن صح هذا كله، فنستطيع أن نقول إن مصحف ابن البواب يعد علامة ودليلًا على القيمة المعنوية التي اكتسبها الخط اللين، من مجرد خط يُستخدم في المراسلات اليومية إلى خط تُنتسخ به الكتب بهدف تكثيف نقلها وبيعها، إلى خط له قواعد معيارية التزم بها الخطاطون فكتبوا بها المصاحف، ليأخذ هذا النوع من الخطوط صكًّا بالقيمة المعنوية والروحية لها. وما زال الخطاطون يجوّدون فيها ويطورن حتى استقرت القواعد، وتشعبت الخطوط، وعُرف كلُّ خط بسماته الخاصة.

---

(٥٤) حبيب الله فضائلي، **أطلس الخط والخطوط**: ٢٩٣، ٣٠٣.

(٥٥) أيمن فؤاد سيد، **الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات**: ٣٠٨.



(ورقة ٤ظ) من مخطوط مصحف ابن البواب.

الخاتمة

حاولنا إذن من خلال الوريقات السابقة أن نقف على مسار الكتابة العربية، مركزين على أهم خطين من خطوط الحضارة الإسلامية والعربية وهما الخطان الكوفي والنسخ، فتحدثنا بداية عن الكتابة العربية قبل الإسلام وبعده، ثم انتقلنا إلى الحديث بشكل أكثر تحديدًا عن خطي الكوفي والنسخ، محاولين التركيز على أهم ما وردنا عنهما، لننطلق من هذا كله إلى ما نتصوره مسارًا منطقيًّا للتحول التدريجي من كتابة المصحف بالخط الكوفي وانتهاء بكتابته بخط لين عُرف لاحقًا بخط النسخ، من خلال النظر إلى مسار التحول الفعلي في انتساخ المخطوطات الدينية والعلمية ودور الوراقين في هذا التحول، لنخلص من هذا كله إلى عدة نتائج نجملها فيما يلي:

- عرف العرب الكتابة قبل الإسلام واستخدموها في تجارتهم ومعاملاتهم اليومية، كما عرفوا الخطوط من خلال تجارتهم مع الأنباط وإقليم السواد في العراق.
- انقسمت الخطوط العربية على اختلاف أنواعها ومنذ نشأتها الأولى إلى نوعين؛ نوع جاف يُنقَش به على شواهد المقابر والمعابد، وقد اكتسب هذا النوع قدرًا من الإجلال، ونوع لين مطاوع وسريع استخدموه في معاملاتهم اليومية.
- اهتم الإسلام بالكتابة حين أدرك قيمتها في تدوين القرآن وحفظ الدين، وقد تعدى الاهتمام بالكتابة في حد ذاتها إلى الاهتمام بخطوط الكتابة نفسها.
- تجاورت الخطوط الجافة في الإسلام بجانب الخطوط اللينة، وقد كان ثمة تراوح في كتابة القرآن بين الخطوط اليابسة التي اكتسبت إجلالًا وتستغرق وقتًا، والخطوط اللينة التي لا تستغرق الوقت والجهد نفسه، وذلك وفقًا لما تقتضيه الحاجة والظروف.
- لم يبلغ الخط العربي درجة كبيرة من الإتقان والإحكام حتى زمن علي كرم الله وجهه، حيث اتُّخذت الكوفة في عهده مركزًا من مراكز جودة الخط والافتنان به.
- استمر الخط الكوفي على رأس الخطوط المستخدمة في كتابة المصاحف -إن لم يكن أوحدها- منذ عهد علي مرورًا بالدولة الأموية بدمشق وبداية الدولة العباسية ببغداد.



- تجاور بجانب الخط الكوفي منذ العصر الأموي حتى العصر العباسي خط لين خُصص في كتابة الوثائق الأقل أهمية والتراسل، ثم بدأ يكتسب هذا الخط أهميته الخاصة من خلال استخدامه في الموضوعات الرسمية، قبل أن يستخدمه الوراقون في الانتساخ.

- وإن صح ما ذكرناه من نتائج، فإن هذا يوصلنا إلى الذهاب مع من ذهب أن الخط اللين لم يُستخرج من الخط اليابس، وإن كان ثمة تأثير وتأثر بينهما لا يُغفل.

- وبناءً على ذلك، فإن خط النسخ لم يؤخذ من الخط الكوفي، كما لم يبتكر ابن مقلة خط النسخ؛ إذ كان مستعملًا قبله، وقد اقتصر دوره على تحسينه ووضع قواعد له، ثم سار على نهجه ابن البواب الذي أضفى مزيدًا من التحسينات التي انتهت بكتابة المصحف بخط النسخ.

- حين توسعت العلوم وكثرت حركة التأليف والترجمة في العصر العباسي خاصة، اضطر الوراقون إلى استدعاء الخط الكوفي للانتساخ به بوصفه الخط العالي المكتوب به المصحف، ولكن في ظل رغبتهم في سرعة الانتساخ بما لا يتناسب مع طبيعة الخط الجافة، فقد أجروا عليه تعديلات تتناسب مع سرعة النَّسخ.

- تجاور نوعان من الخطوط زمن الخلافة العباسية كما كان الحال قبلها وكما استمر بعدها، وهما الخط الصلب (الكوفي في ذلك الوقت)، والخط اللين (النسخ فيما بعد) الذي كان يُستخدم في الدواوين. وفي ظل رغبة الوراقين والنُّساخ في انتساخ كتب أكثر بسرعة أعلى، فقد استدعوا الخط اللين في الانتساخ ليحل محل الكوفي المستخدم في انتساخ الكتب.

- يمكننا وفقًا لذلك أن نطلق على الخط الكوفي المعدّل المستخدَم في انتساخ الكتب الدينية والعلمية، بالخط الكوفي الوِراقي أو الخط الكوفي النِّساخي، ليكون ذلك التقييد فاصلًا بين الخط الكوفي الذي كُتبت به المصاحف، والخط الكوفي النِّساخي الذي نُسخت به الكتب الدينية والعلمية في فترة ما من فترات الحضارة العربية الإسلامية.

- يسهِّل مصطلح (الكوفي النِّساخي) الذي يمكن أن يطلق على المخطوطات البينية التي كُتبت في فترة التحول من الخط الكوفي إلى خط النسخ، يسهِّل على المحققين والمفهرسين وضع توصيف واضح له، إذ كان يسميه بعضهم بالخط المغربي، ويسميه آخرون بخط النسخ.

- انتقل الخط اللين من مرحلة الخط اللين الوراقي الذي يستخدم في المراسلات ونَسْخ الكتب إلى خط لين له قواعد على يد ابن مقلة وابن البواب من بعده، التزم بهذه القواعد من الخطاطين والنُّساخ من التزم، وغفل عنها من غفل.
- يختلف مدلول خط النسخ في القرون الأولى عن مفهومه الآن لتداخل سمات الخطوط بعضها ببعض في بداية التكوين والتطوير والاكتشاف؛ إذ كان يطلق على خط النسخ قديمًا الخط الوراقي، والمحقق/ الريحان، ثم تطور عنهما عبر السنين حتى استقل بذاته ووضحت قواعده.
- اختلفت أسماء الخطوط اللينة وفقًا لاختلاف الوظيفة التي كانت تقوم بها، فقد تسمّى الخط اللين الذي كان يُنتسخ به بالخط الوراقي نسبة إلى استخدام الوراقين له وفقًا لرغبتهم في سرعة الانتساخ، وهو نفسه الخط المحقق الذي سِمَته اللين، ولكن محكم بقواعد ضابطة.
- يمكن تقسيم الخط اللين المستخدم في القرنين الثالث والرابع إلى قسمين؛ خط نسخ وراقي تُنسخ به الكتب وتُكتب به المراسلات بدون قواعد واضحة، وخط نسخ فني متطور عن المحقق/ الريحان، له قواعد واضحة.
- ينبغي لهذا الاحتراز أن يُعمَّم حال تصنيف الخطوط، ما بين خطوط نِساخية وخطوط فنية، فثمة خط كوفي وراقي وقفنا عنده وبيَّنا معالمه، يختلف كثيرًا عن الكوفي المجوَّد، وينطبق الأمر نفسه على الخط اللين الذي عُرف بالنسخ، الذي ينبغي أن يُحترز حال إطلاقه، فهو إما خط نسخ وراقي، وإما خط نسخ فني مجوَّد.
- سيسهم هذا الاحتراز إن عُمِّم في تقليل انطباعات المحققين والمفهرسين حين يقفون على أنواع الخطوط، فلا يطلقون بذلك صفات فضفاضة خالية من معنى معبِّر.
- لم يتطور الخط اللين على المستوى القواعدي فقط، وإنما تطور على المستوى المعنوي كذلك حين انتقل من خط غير مقدَّر بالشكل الكافي، وذلك حين كان مستخدمًا في الأغراض اليومية البسيطة، ثم انتقل إلى انتساخ الكتب العلمية، ليكتسب بذلك قدرًا أعلى من الاحترام، وينتهي به المطاف إلى كتابة المصحف، ليبلغ بذلك قمة التبجيل والتقدير.



المصادر والمراجع

أولًا: المصادر

- التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، أبو حيان (٣١٠ - ٤١٤هـ/ ٩٢٢ - ١٠٢٣م) **من رسائل أبي حيان التوحيدي: رسالة في علم الكتابة**، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠١م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ)، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، ج. ٢، بيروت: دار صادر، ج. ٢.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط.٢، ج.٩، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (ت ٥٣٨هـ)، **أساس البلاغة**، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط. ١، ج. ٢ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤هـ): **الرسالة**، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط.١، مصر: مطبعة مصطفى البابلي الحلبي، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.
- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج. ٣، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق، أبو الفرج بن أبي يعقوب (ت ٣٨٤هـ)، **الفهرست**، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ)، **نهاية الأرب في فنون من ذهب**، ج. ٩، ط. ١، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٣هـ.
- الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧هـ - ٢٢٤هـ/ ٧٤٤ - ٨٣٨م)، **غريب الحديث**، مراقبة: د. محمد عبد المعيد خان، ط. ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الهند، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

ثانيًا: المراجع

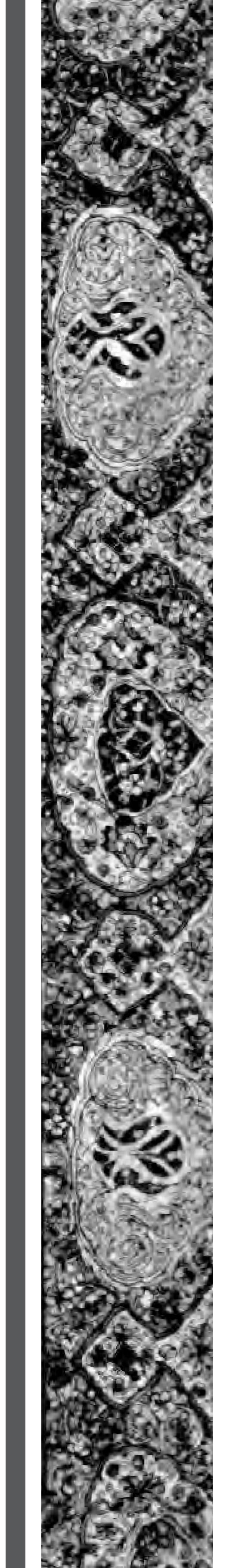
- الألوسي، عادل. **الخط العربي نشأته وتطوره**، القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨م.
- أمين، أحمد. **ظهر الإسلام**، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م.
- البهنسي، عفيف. **معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين**، ط. ١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م.
- الجبوري، سهيلة ياسين. **الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق**، بغداد: مطبعة الزهراء، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.
- الجبوري، كامل سلمان. **موسوعة الخط العربي**: **الخط الكوفي (تاريخه، أنواعه، تطوره، نماذجه)**، ط. ١. لبنان: دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الجبوري، يحيى وهيب. **الخط والكتابة في الحضارة العربية**، ط. ١، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤م.
- جمعة، إبراهيم. **دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة مع دراسة مقارنة لهذه الكتابات في بقاع أخرى من العالم الإسلامي**، دار الفكر العربي، ١٩٦٩م.
- جمعة، إبراهيم. **قصة الكتابة العربية**. القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٤٧م.
- خليفة، حاجي. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، بيروت: تصوير مؤسسة التاريخ العربي – دار إحياء التراث العربي.
- ديروش، فرنسوا. **المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي**، نقله إلى العربية وقدم له أيمن فؤاد سيد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- سعيد، خير الله. **وراقو بغداد في العصر العباسي**، ط. ١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.



- السيد، أيمن فؤاد. **الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات**، ط. ١، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن**، ط.٣، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م.
- عبادة، عبد الفتاح. **انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي**. القاهرة: مطبعة هندية بالموسكي، ١٩١٥م.
- فتيني، عبد الله بن عبده. «تاريخ فن الخط العربي من نشأة الكتابة إلى نشأة البنية الجمالية»، **أشغال الندوة العلمية لأيام الخط العربي الثانية**: **فن الخط العربي بين العبارة التشكيلية والمنظومات التواصلية** (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون – بيت الحكمة، مايو ٢٠٠٦م.
- فضائلي، حبيب الله. **أطلس الخط والخطوط**، ترجمة محمد التونجي، ط. ٢، دمشق: مكتبة لسان العرب، ٢٠٠٢م.
- القطعاني، هدى فرج. **الوراقة والوراقون في الدولة العباسية وأثرها في الحضارة الإسلامية** (٢٣٢-٤٤٧هـ/ ٨٤٦-١٠٥٥م)، رسالة ماجستير. ليبيا: جامعة بنغازي، ٢٠١٦-٢٠١٧م.
- **مجهول**، «رسالة في الكتابة المنسوبة»، تحقيق د. خليل محمود عساكر، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، مج. ١، ج. ١، (القاهرة: مطبعة مصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).
- مرزوق، محمد عبد العزيز. **المصحف الشريف**: **دراسة تاريخية وفنية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- المنجد، صلاح الدين. **الكتاب العربي المخطوط إلى القرن العاشر الهجري**، الجزء الأول (النماذج) . القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٩٦٠م.
- منصور، نصار. «الخطاط ياقوت المستعصمي (ت ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م): دراسة تحليلية للخصائص الفنية لأسلوبه في الخط الريحاني»، **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار**، مج. ١٢، ع. ٢ (الأردن: ٢٠١٨).

- ناجي، هلال. **ابن مقلة: خطاطًا وأديبًا وإنسانًا، مع تحقيق رسالته في الخط والقلم**، ط. ١، بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩١م.

- Déroche, François. *The Abbasid Tradition: Qur'ans of the 8th to the 10th Centuries AD*, The Nour Foundation in association with Azimuth Editions and Oxford University Press: 44.



صناعة المخطوط وصيانته

دراسة تحليلية
لتقنيات ومظاهر تلف مخطوط قرآني ورقي يرجع للقرن الثاني عشر هجريًّا – تقريبًا

فريق البحث

- زينب ناصر عبد الله حسن؛ أخصائية ترميم آثار، وزارة السياحة والآثار المصرية.
- د. رشدية ربيع علي حسن؛ أستاذ المخطوطات المساعد بقسم ترميم الآثار، كلية الآثار، جامعة القاهرة.
- أ. د. غادة أحمد عواد؛ أستاذ قسم كيمياء المنتجات الطبيعية والميكروبية، المركز القومي للبحوث، الدقي، مصر.
- د. محمود علي؛ أستاذ مساعد بقسم ترميم الآثار، كلية الآثار، جامعة الأقصر.
- حمدي عبد المنعم محمد عبد العال؛ أخصائي ترميم مخطوطات، ومدير عام ترميم بمتحف الفن الإسلامي.

ملخص البحث

يعالج الهدف الرئيسي لهذه الدراسة هو تحديد طبيعة الأضرار التي تصيب أوراق المخطوط، وكيفية التعامل معها. وقد استُعين في هذه الدراسة بالعديد من أجهزة الفحص والتحليل؛ منها استخدام الميكرسكوب الإلكتروني الرقمي المحمول USB لفحص أهم مظاهر التلف السطحية التي لحقت به. بالإضافة إلى استخدام الميكرسكوب الإلكتروني الماسح SEM لدراسة مورفولوجيا السطح. والميكرسكوب الضوئي للتعرف على نوع الفطريات التي أصابت المخطوط. وتحليل FTIR التحليل الطيفي بالأشعة تحت الحمراء للتعرف على نوع الوسيط المستخدم للأحبار. وتحليل EDX للتعرف على نوع الأحبار المستخدمة في المخطوط. بالإضافة إلى قياس الـ PH للعينات الورقية.

أظهرت نتائج استخدام SEM أن الألياف المكوِّنة لأوراق المخطوط عبارة عن ألياف قطن سيليلوزية. كما أظهر تحليل EDX أن الحبر المستخدم في كتابة النصوص هو الحبر الكربوني للون الأسود، كما استُخدم كبريتيد الزئبق للون الأحمر المستخدم في الفواصل بين الآيات، كما استُخدم أزرق الألترامارين لخطوط الإطار بجانب اللون البني. كما أوضح تحليل EDX زيادة نسبة الأكسجين، التي تعبِّر عن تدهور ألياف السيليلوز. أما تحليل FTIR فقد أوضح أن الوسيط المستخدم في الأحبار هو الصمغ العربي، كما أوضح أن العينات تعرضت للتحلل المائي نتيجة تعرضها للرطوبة أو البلل المباشر، مما أدى إلى شلفطة الأحبار في بعض الأجزاء. كما أظهر الميكرسكوب الضوئي أن فطر الإسبراجلس مهيمن على العينات، وأدى إلى تلفها وتبقيعها.

الكلمات المفتاحية: المخطوطات الحبر الكربوني الصبغات الفطرية – FTIR – EDX – USB

An Analytical Study of the Manifested Damage in an Ottoman Qur'anic Manuscript

Research Team

- Zainab Nasser Abdullah Hassan: Antiquities Restoration Specialist, Egyptian Ministry of Tourism and Antiquities.
- Dr. Rashdia Rabie Ali Hassan: Assistant Professor of Manuscripts, Department of Antiquities Restoration, Faculty of Archeology, Cairo University.
- Dr. Ghada Ahmed Awwad: Professor at the Department of Natural and Microbial Products Chemistry, National Research Center, Egypt.
- Dr. Mahmoud Ali: Assistant Professor at the Department of Antiquities Restoration, Faculty of Archeology, Luxor University.
- Hamdi Abdel Moneim Mohamed Abdel-Al: Manuscript Restoration Specialist, and Director of Restoration at the Museum of Islamic Art.

Abstract

The main objective of this study is to determine the nature of the damage in the manuscript folios and how to treat them. Several examination and analysis devices were used in this study, including: the USB portable digital microscope, to examine the most important surface damages that were inflicted on them; the scanning electron microscope SEM, to study the morphology of the surface; the light microscope, to identify the type of fungi that infected the manuscript; the FTIR infrared spectroscopy, to identify the type of medium used for inks; and the EDX analysis, to identify the type of inks used in the manuscript; in addition to measuring the PH of the samples.

The results of using SEM showed that the fibers that made up the manuscript papers are cellulosic cotton fibers. The EDX analysis showed that the ink used in writing texts is carbon ink for the black color, mercury sulfide for the red color used for rubrications, and ultramarine blue for the frame lines besides brown color. The EDX analysis showed that the increased percentage of oxygen reflect the degradation of cellulose fibers. As for the FTIR analysis, it was clear that the medium used in the inks was arabic gum. It also showed that the samples were subjected to hydrolysis as a result of exposure to moisture or direct wetness, which led to the smudging of inks in some parts. The light microscope showed that the Aspergillus fungus dominated the samples and led to their damage and staining.

Keywords: manuscripts - carbon ink - fungal pigments - USB - EDX – FTIR

المقدمة

تعد المخطوطات الأثرية من أهم مقتنيات التراث الثقافي المحفوظ في المكتبات والمتاحف العالمية، لما تحمله لنا من تاريخ وثقافة الشعوب السابقة. ونظرًا لهذه الأهمية توجَّب علينا البحث في السبل المختلفة المناسبة للحفاظ على هذا التراث الثقافي، وذلك بشتى الطرق والوسائل العلمية الحديثة المناسبة لمادة وطبيعة وخواص هذا التراث، ومدى تأثره بالظروف البيئية المحيطة به(١).

الورق هو مادة عضوية تتكون من السيليلوز المستخرج من النباتات(٢)، وهو عبارة عن جزيئات من وحدات الجلوكوز مرتبطة بعضها ببعض، مكوِّنة سلاسل طويلة تمتد من نحو ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ جزيء من الجلوكوز، وترتبط ببعضها بأنواع مختلفة من الروابط الكيميائية لتكوِّن طبقات متماسكة، وكلما زاد طول هذه السلاسل كان الورق أفضل حالًا وأكثر تماسكًا(٣).

تتعرض المخطوطات للعديد من عوامل التلف سواء الفيزيائية أو الكيميائية(٤)، بالإضافة إلى عوامل التلف الداخلية المتمثلة في الشوائب أثناء التصنيع. ومن هذه الشوائب اللجنين والمواد المستخدمة في عملية التبييض للب الورق مثل Bisulfite، وكذلك مواد الصقل مثل الشبَّة Aluminum Sulfate. وتتسبب كل هذه العوامل في رفع درجة الحموضة في الأوراق(٥).

---

(١) Kraková, L, Šoltys, K, Otlewska, A, Pietrzak, K, Purkrtová, S, Savická, D, Puškárová, A, Bučková, M, Szemes, T, Budiš, J, Demnerová, K, Gutarowska, B & Pangallo, D 2018, ‘Comparison of Methods for Identification of Microbial Communities in Book Collections: Culture-dependent (sequencing and MALDI-TOF MS) and Culture-independent (Illumina MiSeq)’, International Biodeterioration & Biodegradation, Vol. 131, pp. 51–59.

(٢) Seger, K., Physical –chemical characterization of ancient paper, October, 1999.

(٣) حميد، مناف لطيف، وأحمد زغير جلاب، وعلي عبد المحسن عبادة. (٢٠١٩). «تقوية أوراق المخطوط باستخدام مشتقات السليلوز والنشأ وتأثير التقادم الحراري المعجل: دراسة مقارنة». **مجلة القادسية للعلوم الإنسانية**، مج ٢٢ (ع ١).

(٤) Shahani, C.J., “Preservation Research at the Library of Congress”, in “Preservation Research and Development”, U.S.A., 1993.

(٥) Havermans, J.B.G., et al., The Effects of Air Pollutants on the Accelerated Ageing of Cellulose Containing Materials – Paper, Final Report, Ec/DGXII/ STEP Project, TNO, Delft, 1994.

تعد كلٌّ من العوامل الكيميائية والبيولوجية من عوامل التلف الخارجي[٦]، التي تؤثر في المخطوطات الورقية نتيجة لسوء التخزين، وحفظها في أماكن غير مناسبة لطبيعتها. كما يعد ثاني أكسيد الكبريت وثاني أكسيد النيتروجين[٧] من أهم الملوثات الكيميائية، التي تتحول بدورها بعد عدة تفاعلات إلى حمض الكبريتيك H_2SO_4 وحمض النيتريك HNO_3 اللذين يتسببان في جفاف الورق وهشاشته[٨].

والهدف من هذه الدراسة هو تشخيص مظاهر تلف بقايا مخطوط قرآني (ملزمة قرآنية)، عبارة عن مجموعة أوراق متلاصقة تحتوي على النص النهائي من سورة «فصلت» وفواتح سورة «الشورى». وتتمثل مظاهر التلف هذه في فقد بعض الأجزاء من هذا المخطوط، وضعف الورق المستخدم وهشاشته، وانتشار التلف الحشري والفطري، وانتشار الاتساخات والأتربة وبعض التكلسات الطينية. (شكل رقم ١)

(٦) سيلفيا دولا بوم، «المواد العضوية»، في **الحفظ في علم الآثار: الطرق والأساليب العلمية لحفظ وترميم المقتنيات الأثرية**، ك. برديكو، ماري، منسق. (٢٠٠٢). ترجمة: محمد أحمد الشاعر، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

(٧) Coll, S. J., Air Pollutions and Introduction, Newsletter, Vol. 5, N1, 2002.

(٨) محمد، بهاء الدين. (١٩٨٧). **تجارب معملية عن التلف البيولوجي لورق مخطوط مع تطبيق لبعض طرق العلاج والترميم**، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة.









شكل رقم (١) يوضح حالة المخطوط الورقي المستخدم للدراسة.

أولًا: الدراسة الوصفية لأوراق المصحف

أ- الطرق الشائعة المستخدمة في عمليات الترميم

تخضع عمليات الترميم لعدد من القواعد التي يتم الحرص على تنفيذها بكل عناية، بدايةً من عملية التسجيل العلمي للمخطوط، مرورًا بعمليات الفحص والتحليل لتوصيف وتشخيص مظاهر التلف الموجودة، ومن ثم تحديد المواد المستخدمة وطرق العلاج المناسبة وفقًا لحالة المخطوط، والتي غالبًا ما تنقسم إلى (تنظيف ميكانيكي - تنظيف كيميائي - تعقيم - تثبيت للأحبار - تقوية - استكمال - خياطة - تغليف - كبس - إعداد حافظة للتخزين)، وغيرها من عمليات العلاج والصيانة والترميم.

ب- الوصف المادي للمخطوط

أبعاد المخطوط

- نظرًا لأن مجموعة الأوراق المستخدمة في الدراسة غير مكتملة، فإن طول كل ورقة منها حسب نسبة الفقد تتراوح ما بين ١٦,٦ و١٣,٢سم تقريبًا.
- عرض الورقة الواحدة ١٥,٥سم باختلاف نسبة الفقد في كل ورقة، وعرض الملزمة ٣١سم تقريبًا.
- عدد الأوراق ١١ ورقة.
- النسخة تحوي آيات قرآنية من المصحف الشريف من سورتَي فصلت والشورى.
- استُخدم في كتابة النصوص الحبر الأسود الكربوني، واللون الأحمر السينبار أو السلاقون في فواصل الآيات، واللونان الأزرق والبني في تخطيط الصفحات.
- فاتحة المجموعة "من شهيد".
- خاتمة المجموعة "وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم".





شكل رقم (٢) يوضح أبعاد المخطوط.

بصفة عامة تتم عملية التوثيق الكاملة للمجموعة وتأريخها اعتمادًا على السجلات الخاصة بها إذا كانت مسجَّلة. ونظرًا لأن المجموعة الخاصة المستخدمة في هذه الدراسة غير مسجلة أو موثقة تاريخيًّا، كونها ملكية خاصة متوارثة لأحد الأشخاص، وكانت محفوظة بطريقة بدائية داخل أجولة محاطة بالأتربة والرطوبة والملوثات الجوية والحشرات والكائنات الحية الدقيقة، فقد أدى هذا إلى وصولها إلى هذه الحالة المتردية والضعيفة من الحفظ. ومن المرجَّح أن المخطوط يُنسب إلى القرن الـ (١٢هـ/ ١٨م).

وقد اتضح من خلال مقارنة النصوص أن الخط الذي استُخدم في كتابة الآيات القرآنية في المجموعة الخاصة هو خط النسخ[٩]، وتأثر في كتابة حرف العين بخط النستعليق. واستُخدم لكتابة هذا المخطوط حبر أو مداد الكربون Carbon ink، والفواصل من مداد السنبار أو السلقون الأحمر على ورق يدوي الصنع[١٠].

(٩) الخضري، علاء الدين بدوي محمود محمد. (٢٠٢١). «دراسة أثرية فنية ونشر لمصحف شريف من صعيد مصر مؤرخ بسنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م». **مجلة الإتحاد العام للآثاريين العرب**، مج ٢٢ (ع ٢)، ٤٨٢-٥٢٦.

(١٠) زيادة، أحمد حلمي صادق إبراهيم. (٢٠٢٢). «دراسة أثرية فنية لمخطوط مصحف جامع المشهد ببرديس بسوهاج (المؤرخ بسنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م). **مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب**، مج ٢٣ (ع ١)، ٣٤٩-٣٨١.

ت- التوثيق بالرسم

مجموعة خاصة من بقايا مخطوط قرآني، عبارة عن عدد من الصفحات المنفصلة من ملزمة قرآنية يرجَّح عودتها إلى العصر العثماني، به العديد من مظاهر التلف، منها التآكل والثقوب الحشرية، والتلف الفطري، وجفاف وتقصف الأطراف، وبقع واتساخات مختلفة. (شكل رقم ٣)



شكل رقم (٣) يوضح الحدود الخارجية لورقة من أوراق المخطوط، ومطبَّق عليها مظاهر التلف المختلفة.

الرسم الهندسي ثنائي الأبعاد باستخدام برامج الأوتوكاد والفوتوشوب والإليستريتور

تعد عملية التوثيق باستخدام البرامج العلمية الحديثة من أهم إجراءات التسجيل والتوثيق الهندسي للمخطوطات الأثرية، ووسيلة مهمة لتوضيح مظاهر التلف المختلفة الموجودة على المخطوط محل الدراسة، وكذلك أبعاد مظاهر التلف والاتساخات والبقع بشكل دقيق.



شكل رقم (٤) يوضح الحدود الخارجية لورق المخطوط باستخدام برنامج الإليستريتور.





شكل رقم (٥) يوضح خريطة تلف لورقتين من أوراق المخطوط باستخدام برنامج أوتوكاد.



ث- تشخيص مظاهر تلف المخطوط الورقي المختار للدراسة

يتضح لنا من خلال مراحل التوثيق السابقة وجود العديد من مظاهر التلف المختلفة على أوراق المخطوط، ويمكن رصدها فيما يلي:

- بقع ميكروبيولوجية وفطرية.
- أملاح متكلسة على السطح في شكل بثور بيضاء.
- شلفطة أحبار.
- اتساخات وأتربة متراكمة على السطح.
- وجود لاصق ورقي على سطح إحدى الأوراق.
- ثقوب حشرية.
- تقصف وجفاف واهتراء الأطراف.

ثانيًا: الدراسة التحليلية والفحوصات المستخدمة لتشخيص مظاهر تلف أوراق المصحف

تم إجراء الفحوص والتحاليل اللازمة للتعرف على طبيعة المخطوط، وتشخيص مظاهر التلف المختلفة؛ حتى يتسنى لنا التعرف على أسباب التلف.

أ- المجهر الرقمي USB Digital Microscope

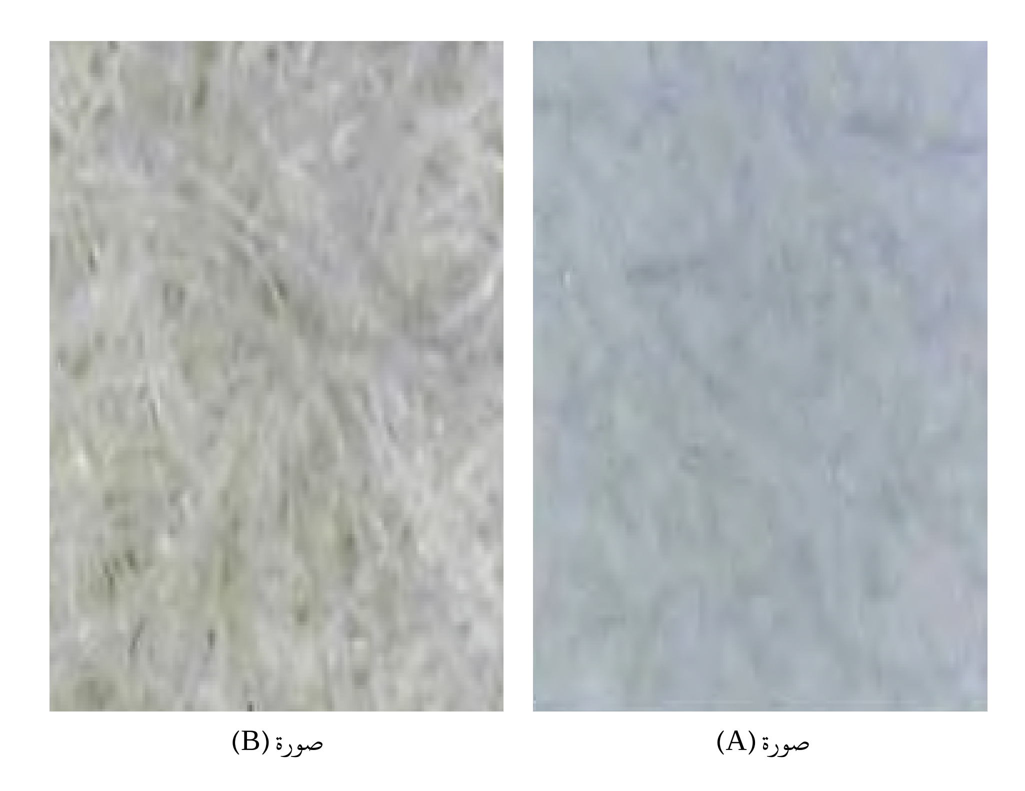
استُخدم المجهر الرقمي في فحص المظهر السطحي للورق وأحبار الكتابة، لمعرفة مدى التلف الذي تعرضت له أوراق المخطوط.

نتائج الفحص باستخدام المجهر الرقمي

من خلال مقارنة النتائج بين عينة الورق القياسية وأوراق المخطوط بالمجهر الرقمي، تبين حدوث اصفرار وفَقْد الطبقة المالئة والرابطة لألياف الورق، وهذا يدل على مدى التلف الذي تعرضت له أوراق المخطوط، وكذلك بعض مظاهر التلف الأخرى مثل البقع الفطرية، وتكلسات طينية، وتهتك وتقطع الألياف السيليلوزية، وضعف الألياف في منطقة الكعب، وفقدان خيط تجميع الأوراق، وانتشار الثقوب والتآكل الناتج عن التلف الحشري، وانتشار التبقعات الناتجة عن التلف الميكروبيولوجي، وبهتان وضعف وفقد الأحبار، وانتشار بصمات الأصابع بالمخطوط، وتزهُّر الأملاح في شكل بثور في أجزاء أخرى من المخطوط[١١] (أشكال: ٦-٧-٨-٩-١٠)

(١١) Caroline, B (2010) damaged book, Esmée Fairbairn, Preservation Advisory Center, British Library, ACR, ISBN 978 0 7123 5097 6, 5390–09/11.





صورة (A)　　　　صورة (B)

شكل رقم (٦) توضح صورة (A) الشكل السطحي للورق القياسي. وتوضح صورة (B) الشكل السطحي لورق المخطوط، ويتضح بها فقد المواد الرابطة والمالئة للألياف.

صورة (A)

صورة (B)

صورة (C)

صورة (D)

شكل رقم (٧)

توضح صورة (A) تفكك وتقشر الحبر الأسود عن الأوراق. وتوضح صورة (B) انتشار البقع والأتربة على الحبر الأحمر وبهتانه في بعض الأجزاء. وتوضح صورة (C) الخطوط المحددة للنص من اللونين البني والأزرق، ويظهر بها بهتان وتقشر للحبر. وتوضح الصورة (D) أماكن الإصابة الحشرية وبهتان أحبار الكتابة.



صورة (A)

صورة (B)

صورة (C)

صورة (D)

شكل رقم (٨)

توضح صورة (A) بهتان وانفصال طبقة الحبر الأحمر المغطى ببعض الأتربة. وتوضح صورة (B) بقع بنية اللون ناتجة عن التلف البيولوجى. وتوضح صورة (C) تهتك الألياف وفقدان الطبقة المالئة. وتوضح صورة (D) التآكل بالأوراق والثقوب.

صورة (A)

صورة (B)

صورة (C)

صورة (D)

شكل رقم (٩)

تُظهر صورة (A) بصمة أصابع بالمداد الأسود في هامش ورق المخطوط. وتوضح صورة (B) بهتان وانفصال الطبقة السطحية الكثيفة من الحبر الأسود في جزء من الكلمة، وثباته في الجزء الآخر. وتُظهر صورة (C) دكانة الأوراق وتبقعها نتيجة الإصابة الفطرية. وتُظهر صورة (D) تأثر الأحبار المستخدمة.

صورة (A)

صورة (B)

صورة (C)

صورة (D)

شكل رقم (١٠)

توضح صورة (A) تبقع أوراق المخطوط، وتهتك الألياف، وانفصال الأحبار. وتوضح صورة (B) تآكل أوراق المخطوط. وتوضح صورة (C) وجود لاصق ورقي أعلى أوراق المخطوط قد تكون محاولة استكمال قديمة. ويظهر في صورة (D) ثقوب حشرية وتآكل.

ب- الفحص باستخدام الميكروسكوب الضوئي

استُخدم الميكروسكوب الضوئي في تصوير العينات القياسية وعينة من أوراق المخطوط المتساقطة، وذلك من خلال تكبيرات مختلفة لفحص ألياف المخطوط، ومقارنتها بالعينات القياسية، لتحديد مظاهر التلف المختلفة وتصويرها بصورة واضحة.

ومن خلال هذه الطريقة يمكن إظهار التفاصيل الدقيقة الخاصة بسطح الأثر، وما به من جراثيم فطرية واتساخات سطحية تسببت في طمس الزخارف والكتابات.

صورة (A)

صورة (B)

صورة (C)

صورة (D)

شكل رقم (١١)



توضح صورة (A) شكل الألياف للعينة القياسية. وتوضح صورة (B) شكل الألياف لعينة أوراق المخطوط موضوع الدراسة. وتوضح صورة (C) الجراثيم الفطرية لفطر أسبراجلس نيجر على ألياف المخطوط. وتوضح صورة (D) تهتك ألياف المخطوط.

ت- الفحص والتحليل باستخدام الميكروسكوب الإلكتروني الماسح SEM المزود بوحدة EDX

من خلال الفحص بالميكرسكوب الإلكتروني الماسح تم التعرف على نوعية الورق المستخدمة في المخطوط، بعد مقارنتها بالعينات القياسية. ومن خلال هذا الفحص أيضًا تم التعرف على مظاهر التلف الداخلية للألياف ومدى تعرضها للتهتك والضعف[١٢]، بالإضافة إلى التعرف على مدى ارتباط مظاهر التلف المختلفة وتداخلها مع الألياف، وتوضيح أماكن الإصابات الفطرية التي تظهر من خلال نمو الجراثيم الفطرية. كما استُخدم الفحص لمعرفة مدى التلف بطبقة الألوان والأحبار من ضعف وتشقُّق وانفصال عن الطبقة السطحية للمخطوط[١٣].

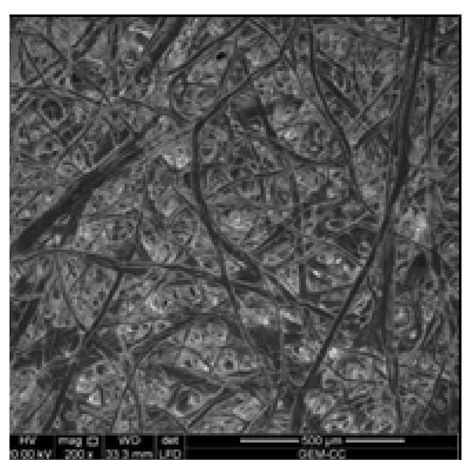
نتائج الفحص والتصوير باستخدام الميكرسكوب الإلكتروني الماسح

بعد مقارنة عينة الورق القياسية بعينة من أوراق المخطوط المتساقطة تبين الآتي:

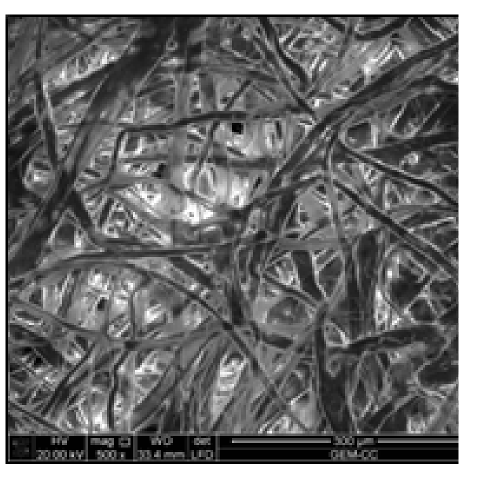
- يتكون ورق المخطوط من ألياف القطن السيليلوزية.
- تدهور وتلف وتهتك ألياف السيليلوز المكوِّنة للورق.
- انفصال وفَقْد المواد الرابطة والمالئة المستخدمة، مثل الكالسيت والنشا والكاولين.
- وجود شروخ وقطع في ألياف السيليلوز المكوِّنة للورق، مما يؤدي إلى ضعف في خواصها الميكانيكية.

(١٢) Hassan, R. R. A., Ali, M. F., Fahmy, A. G. A., Ali, H. M., & Salem, M. Z. (2020). Documentation and evaluation of an ancient paper manuscript with leather binding using spectrometric methods. Journal of Chemistry, 2020.

(١٣) حسن، رشدية ربيع علي. (٢٠١٢). **دراسة تجريبية على بعض مواد وطرق معالجة مظاهر التلف الناتجة عن التأثيرات المتبادلة مابين جلود الكتب نباتية الدباغة والورق**، رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة.



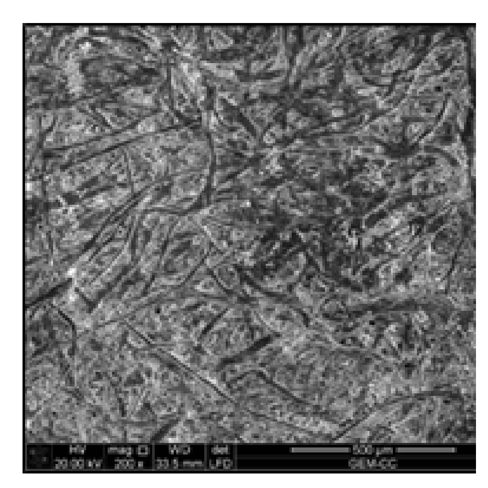
صورة (A)



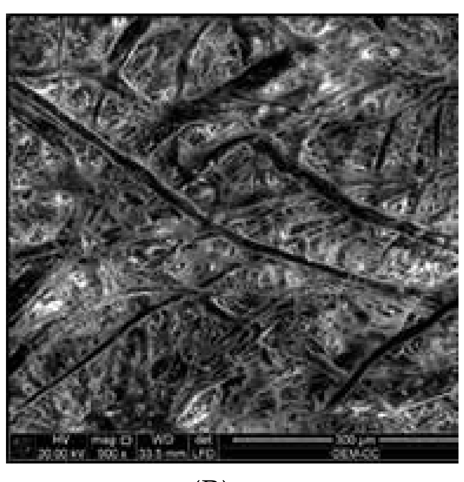
صورة (B)

شكل رقم (١٢)

توضح صورة (A) للعينة القياسية تداخل وتشابك ألياف القطن السيليلوزية (قوة التكبير ٢٠٠ مرة). وتوضح صورة (B) شكل الألياف بصورة أوضح واتصال بعضها ببعض (قوة التكبير ٥٠٠ مرة).



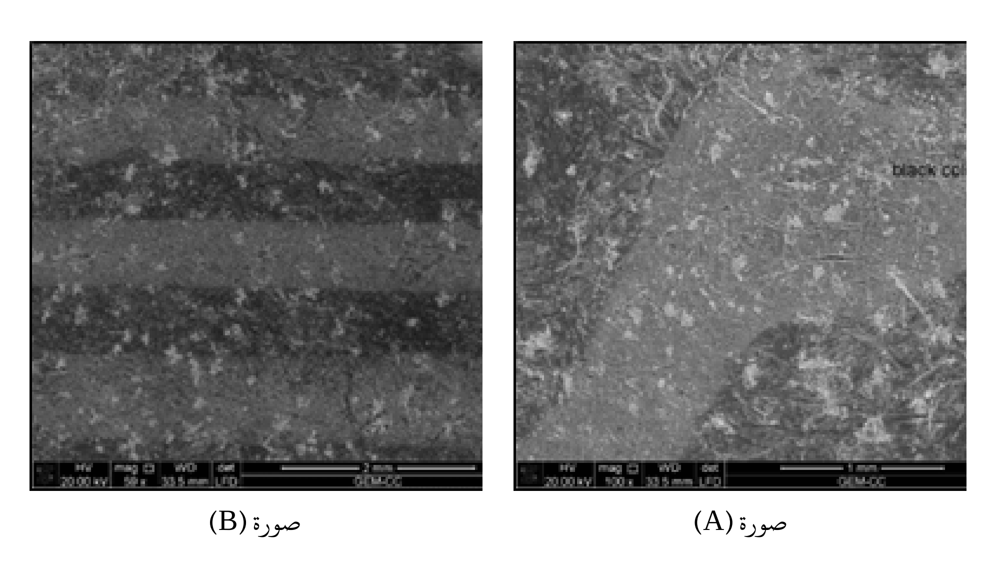
صورة (A)



صورة (B)

شكل رقم (١٣)

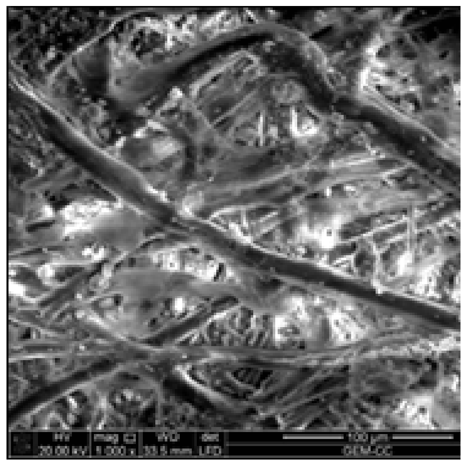
توضح صورة (A) ألياف القطن السيليلوزية المغطاة تمامًا بالجراثيم الفطرية وضعف الألياف (قوة التكبير ٢٠٠ مرة). ويظهر بصورة (B) شكل الجراثيم الفطرية لفطر الأسبراجلس نيجر بكثافة حول ألياف المخطوط (قوة التكبير ٥٠٠ مرة).



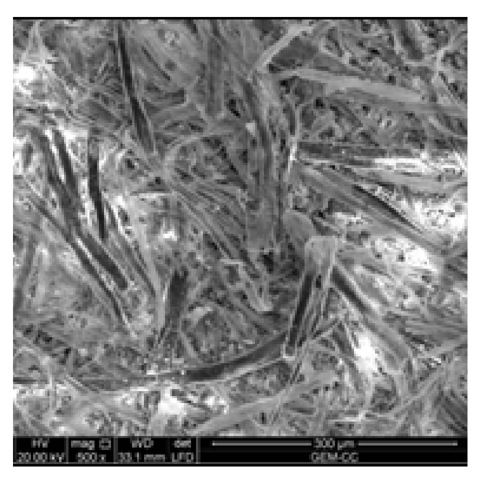
صورة (A) صورة (B)

شكل رقم (١٤)

توضح صورة (A) ألياف القطن السيليلوزية المغطاة تمامًا بالجراثيم الفطرية وضعف الألياف (قوة التكبير ٢٠٠ مرة). ويظهر بصورة (B) شكل الجراثيم الفطرية لفطر الأسبراجلس نيجر بكثافة حول ألياف المخطوط (قوة التكبير ٥٠٠ مرة).



صورة (A)



صورة (B)

شكل رقم (١٥)

توضح صورة (A) السطح الخارجي لأوراق المخطوط، حيث يلاحظ فقدان المواد المالئة، وضعف وتهتك الألياف، وتقشر طبقة اللون لحبر الكتابة الأسود (قوة التكبير ١٠٠ مرة). وتوضح صورة (B) خطوط تسطير حدود النص (قوة التكبير ٥٩ مرة).

يظهر بصورة (A) تكسر الألياف وتدهورها وضعفها وفقدان المواد الرابطة، وكذلك الجراثيم الفطرية والاتساخات والمواد العالقة بالألياف (قوة التكبير ١٠٠٠ مرة). ويظهر بصورة (B) تكسر الألياف (قوة التكبير ٥٠٠ مرة).

ث- التحليل باستخدام Scanning Electron Microscope (EDX)

استُخدمت وحدة الـ EDX الملحقة بالميكرسكوب الإلكتروني الماسح؛ حيث يعد التحليل بوحدة تشتت الأشعة السينية من الطرق الحديثة في عمليات الفحص والتحليل للعناصر الموجودة بالمخطوط. ويمكن من خلالها التعرف على الأحبار والعناصر المكوِّنة لها، بالإضافة إلى النسب المئوية لكل عنصر منها في العينة، وتتميز هذه الطريقة بأنها تعطي تحليلًا كميًّا وكيفيًّا شاملًا ودقيقًا لهذه العناصر.



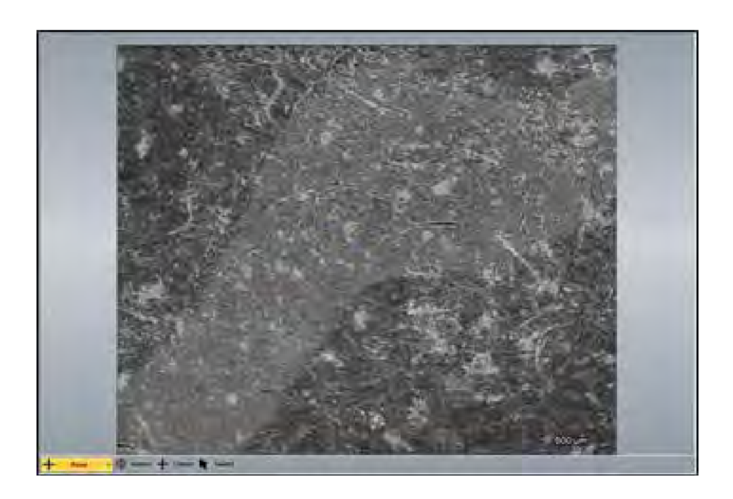
نتائج تحليل وفحص الأحبار المستخدمة في المخطوط محل الدراسة باستخدام EDX

الحبر الأسود

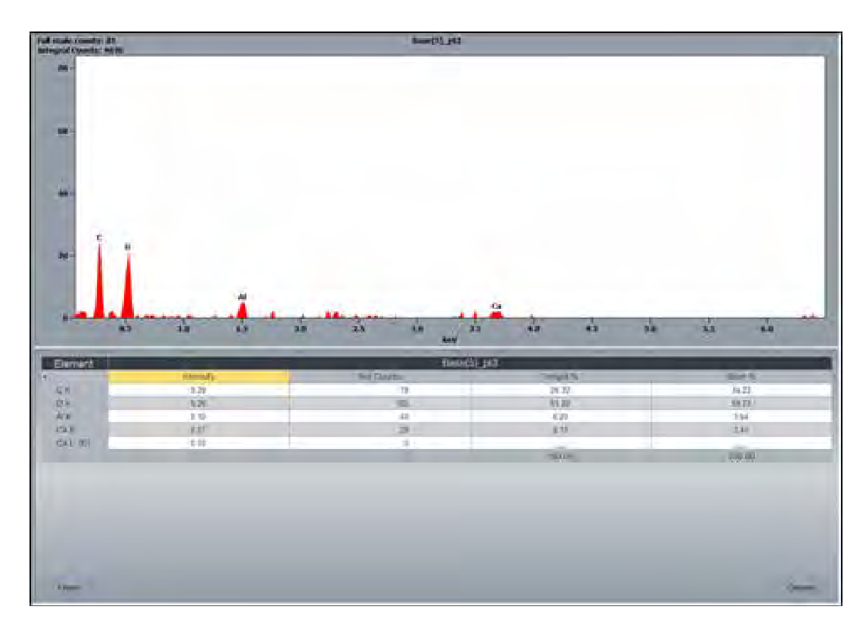
من خلال الفحص والتحليل للون الأسود المكوِّن الأساسي لحبر الكتابة، تبين أنه عبارة عن حبر كربوني، وهو أول حبر كتابة عُرف في التاريخ(١٤). وكان يجهَّز من أقراص صغيرة من المادة الصلبة، وتُطحن مادة اللون وتُمزج مع الصمغ وتُترك لتجف. وكانت المادة الملونة هي إما سناج وإما مسحوق الفحم، والمادة الرابطة هي الصمغ العربي. ويتضح ذلك من خلال الجداول المرفقة التي يتضح بها وجود عنصر الكربون والأكسجين بنسب متفاوتة (وهما العنصران الأساسيان في الورق والحبر الكربوني، بجانب عنصر ثالث أساسي وهو الهيدروجين، ولكن لا تظهر نسبته عند التحليل بطريقة التفلور بالأشعة السينية لأنه لايتأثر بها). كما يشير الجدول إلى وجود بعض العناصر الأخرى التي قد توجد كشوائب في الورق بنسبة صغيرة، أو من الأتربة البيئية مثل الألومنيوم AL، كما أن وجود عنصر الكالسيوم Ca يرجِّح استخدام كربونات الكالسيوم CaCo٣ كمادة مالئة أثناء صناعة الورق لتحسين خواص سطح الورق بإعطائه سطحًا ناعمًا متجانسًا وصالحًا للكتابة(١٥).

(١٤) Mazen, B. S. M., Ismail, B. M., Hassan, R. R. A., & Ali, M. (2021). Damage caused by black inks to the chemical properties of archaeological papyrus–analytical study. Pigment & Resin Technology.

(١٥) Waters, C.E., Inks, Circular of the National Bureau of Standards C413, U.S., Department of Commerce, Issued December 28, 1936.



شكل رقم (١٦) يوضح عينة ورقية متساقطة من المخطوط، عليها خط كتابي باللون الأسود بالحبر الكربوني، ومحدد عليها الخمس نقاط التي أُخذ عليها تحليل EDX.



شكل رقم (١٧) يوضح نسب العناصر المكوِّنة للحبر الأسود.



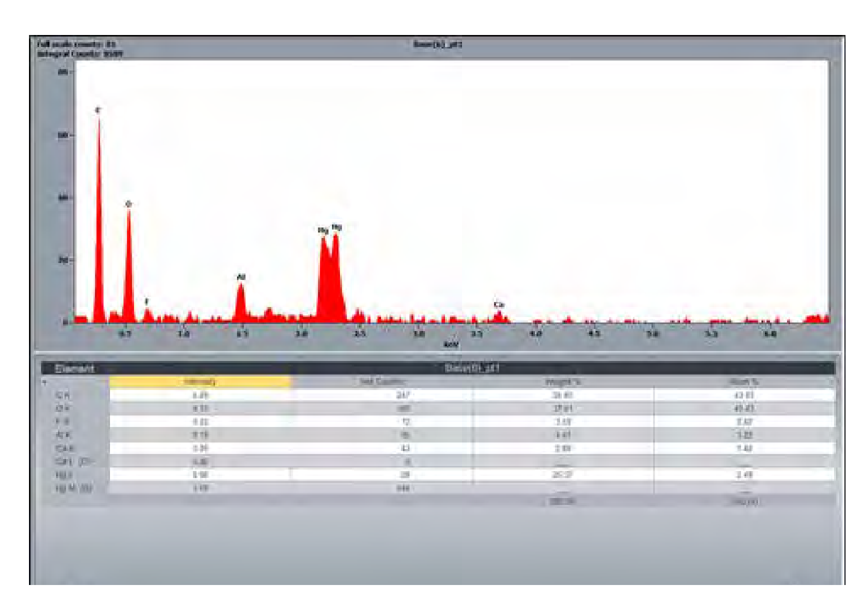
الحبر الأحمر

توضح نتائج التحليل باستخدام EDX وجود مركب سينبار، وهو معدن كبريتيد الزئبق (HgS) بنسبة كبيرة، ويعرف بالزنجفر. واستُخدم هذا المعدن كمصدر للحبر الأحمر عن طريق خلطه بعصير الرمان، وإضافة الوسيط الرابط إليه. وقد انتشر استخدام السينبار في العصر الإسلامى كمصدر للحبر الأحمر. وتظهر كذلك بعض العناصر الأخرى مثل الكالسيوم Ca، الذي قد يكون نتيجة لاستخدام كربونات الكالسيوم CaCo3 كمادة مالئة أثناء صناعة الورق، وذلك نتيجة لاستخدام الورق الطباشيري في الصناعة في تلك الفترة، وكذلك وجود عنصر الألومنيوم AL والفلور F، وقد يكون وجودهما نتيجة شوائب في الورق(١٦).



شكل رقم (١٨) يوضح عينة ورقية متساقطة من المخطوط تحوي حبرًا أحمر، وموضح عليها نقاط التحليل بوحدة تشتيت الأشعة السينية EDX.

(١٦) L. Hamerton, L. Tedaldi, N. Eastaugh, Systematic Examination of Color Development in Synthetic Ultramarine According to Historical Methods, PLOS ONE, 8(2), 2013, e50364r, www.plosone.org



شكل رقم (١٩) يوضح أهم العناصر المكونة لحبر الكتابة الأحمر.

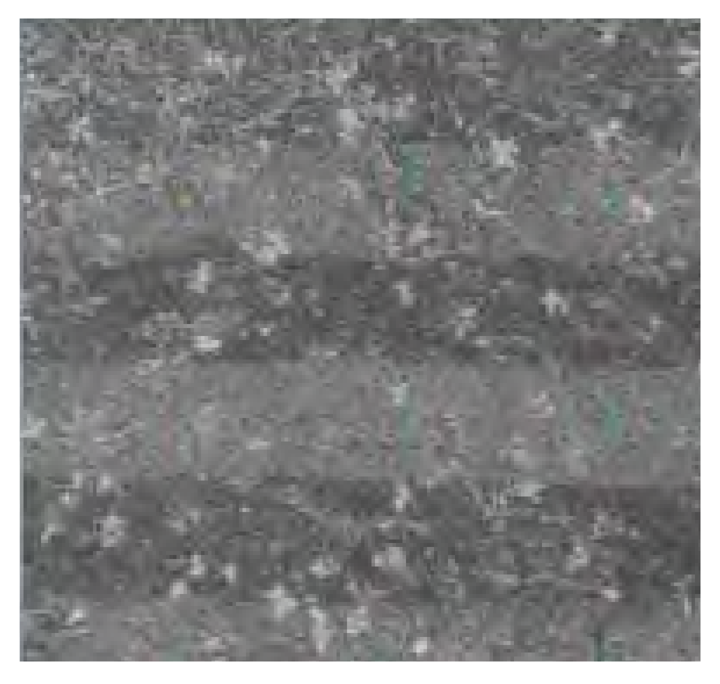
خطوط تحديد الإطار المحيط بالنص القرآني (بني وأزرق)

اللون الأزرق

الحبر الأزرق هو عبارة عن أزرق الألتراماربن $Sio_2Al_2O_3Na_2os$ Ultramarine (Lazurite)، وذلك نظرًا لوجود العناصر الآتية: السيليكا Si - الألومنيوم Al - الصوديوم Na - الكبريت S.

وظهور عنصر الكلور C_l نظرًا لاستخدام مادة الكلورين كعامل تبييض للورق، كما أن وجود عنصر الكالسيوم Ca ناتج عن استخدام كربونات الكالسيوم $CaCo_3$ كمادة مالئة أثناء صناعة الورق، وذلك نتيجة لاستخدام الورق الطباشيري في تلك الفترة، كما أن عنصر الكالسيوم كان يُستخدم لتحسين خواص سطح الورق، بإعطائه سطحًا ناعمًا متجانسًا وصالحًا للكتابة[١٧].

(١٧) Lucia Burgio, Robin J.H. Clark, Library of FT-Raman spectra of pigments, minerals, pigment media and varnishes, and supplement to existing library of Raman spectra of pigments with visible excitation London, 2000, P.1492-1514.



شكل رقم (٢٠) يوضح شكل خطوط تحديد الإطار الخارجي للنص، وهي مكونة من اللونَيْن الأزرق والبني.

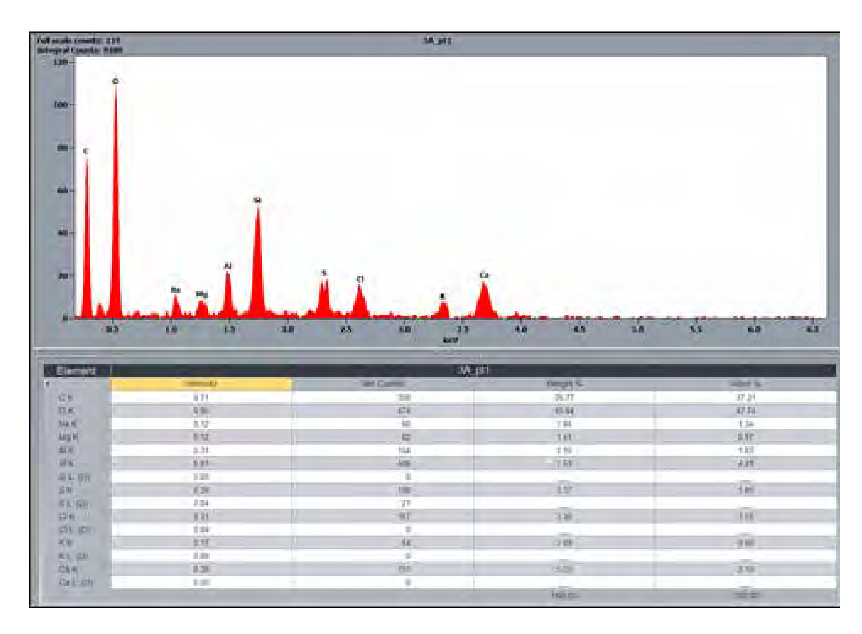
اللون البني

اللون البني كثيرًا ما يكون مستخرجًا من مصدر عضوي مثل نبات الكاد الهندي Cutch، الذي يتم الحصول عليه من أخشاب شجر السنط، والمادة الصابغة فيه هي Catechin، التي غالبًا ما تحتوي على التانين كمادة مصاحبة[١٨] $C_{15}H_{14}O_6$.

- وجود عنصر الصوديوم Na يرجع لاستخدام الصودا الكاوية NaOH في تصنيع الورق.
- وجود عنصر الألومنيوم Al والبوتاسيوم K والكبريت S نتيجة لاستخدام كبريتات البوتاسيوم والألومنيوم المائية (الشبَّة) $Al\ K(So_4).12H2o$ أثناء تصنيع الورق.

(١٨) Barrow, W.J., Manuscripts and Documents – Their Deterioration and Restoration, .Virginia Press, Charlottesville, 1995

- ظهور عنصر الألومنيوم Al والسيليكا Si ناتج عن استخدام الكاولينيت Kaolinite $Al_2Si_2O_5(OH_4)$ كمادة مالئة أثناء تصنيع الورق.
- ارتفاع نسبة الأكسجين في العينات تشير إلى تدهور ألياف السيليلوز.



شكل (٢١) يوضح أهم العناصر المكوِّنة لحبر الكتابة الأزرق والبني.

طريقة أخرى للتعرف على نوع حبر الكتابة بجانب تحليل EDX

تم التعرف على نوع حبر الكتابة المستخدم في المخطوط محل الدراسة، وذلك بعمل اختبار كيميائي للحبر باستخدام حمض الخليك المخفف ١٪ إلى جانب الورق الماص، مع إضافة نقطة من محلول مخفف من فيروسيانيد البوتاسيوم. وعند ملاحظة عدم ظهور لون أزرق بروسي يكون هذا دليلًا على أن الحبر الأسود هو حبر كربوني.



ج- قياس درجة الحموضة PH

يعد قياس PH من أهم القياسات التي تحدد درجة الحموضة للعينات الورقية الأثرية، والتي يعتمد عليها الباحثون في تقييم تلف المخطوطات الورقية، حتى يتسنى لنا تحديد مدى احتياج المخطوط لإزالة الحموضة وضبط قمة الأس الهيدروجيني لها.

أظهرت نتائج القياس أن قيمة الأس الهيدروجيني لأوراق المخطوط كانت ٨,٦، وبمقارنتها بنتائج قياس العينة القياسية كانت ٥,٢١، تبين أن قيمة الأس الهيدروجيني لأوراق المخطوط هي في المعدل الطبيعى، ولا تحتاج إلى معالجة أو معادلة الحموضة[١٩]، ويرجح ذلك نتيجة استخدام كربونات الكالسيوم القاعدية كمادة مالئة أثناء تصنيع الورق. وتمت عملية قياس الحموضة PH بالمركز القومي للبحوث بطريقة الاستخلاص على البارد، وذلك بغمر العينات في الماء المقطر عند درجة حرارة الغرفة، حيث تم غمر ٠,٢ جرام من العينة في ١٠٠ ملي من الماء المقطر لمدة ٦ ساعات (Larsen, 2004)[٢٠]. ويرجَّح أن يكون سبب اصفرار الأوراق الإصابة الفطرية التي تؤدي إلى تقادم فطري وميكروبيولوجي للأوراق، ويعطيها مظهر الاصفرار الناتج عن البقع والإفرازات الفطرية، ويتشابه مع الاصفرار الناتج عن حموضة الورق.

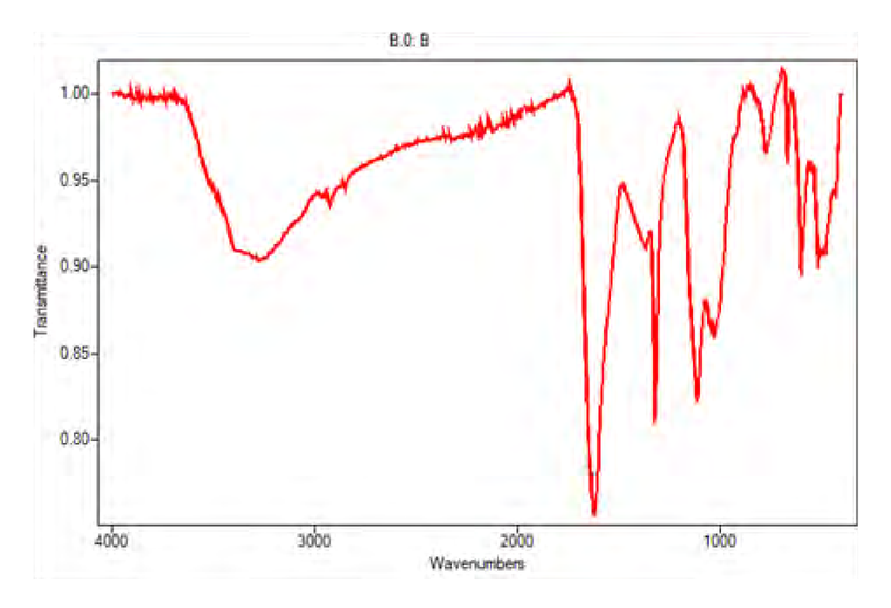
ح- التحليل باستخدام طيف الأشعة تحت الحمراء لأوراق المخطوط FTIR لمعرفة نوع الوسيط المستخدمة في أحبار الكتابة

بقياس الطيف لعينات من أوراق المخطوط المتساقطة المحتوية على أحبار (أسود، أحمر، بني، أزرق)، وتحديد المجموعات الوظيفية لها، ومقارنتها بطيف الصمغ العربي والمجموعات الوظيفية المميزة له؛ اتضح لنا وجود تشابه في كل مناطق الروابط المميزة لها، مما يدل على نقاء العينة

(١٩) ععبد الباقي، صلاح عبد العال عبد الباقي. (٢٠٢١). «تأثير الحموضة على الخواص الميكانيكية والفيزيائية للمخطوطات الورقية». **مجلة البحوث في مجالات التربية النوعية**، مج ٧ (ع ٣٣)، ١٥٣٣-١٥٥١..

(٢٠) Abdel-Maksoud, G. (2011) Analytical techniques used for the evaluation of a 19th century qur'anic manuscript conditions, Measuremen 44, 1606–1617.

وعدم اختلاطها بمواد أخرى، وأن وسيط الحبر هو الصمغ العربي[٢١]. واستُخدم جهاز التحليل لطيف الأشعة تحت الحمراء في معمل ترميم متحف الفن الإسلامي على جهاز BRUKER (ALPHA) PLATINUM-ATR باستخدام الطريقة الصلبة؛ حيث ظهرت المجموعات الوظيفية الأساسية المكوِّنة للصمغ العربي، وهي مد رابطة (OH) التي ظهرت عند ٣٢٨٢ سم$^{-1}$، ومد رابطة (C=C) التي ظهرت عند ١٦١٩ سم$^{-1}$، ومد رابطة (C-O) التي ظهرت عند ١٠٤٩سم$^{-1}$.



شكل (٢٢) يوضح تحليل عينة من أوراق المخطوط باستخدام FTIR لمعرفة نوع الوسيط المستخدم في أحبار الكتابة.

(٢١) Kipphan, H., Handbook of Print Media: Technologies and Production Methods, Springer, 2001.



الخاتمة

أولًا: الاستنتاجات

- أظهر الفحص والتصوير بالمجهر الرقمي لصفحات مختلفة من أوراق المخطوط، تعرُّضه لمظاهر مختلفة ومتنوعة من التلف وتهتك للألياف.
- أظهر الفحص والتصوير باستخدام الميكرسكوب الضوئي إصابة أوراق المخطوط بالتلف الفطري، وأن أكثر أنواع الفطريات هيمنةً على المخطوط هما فطر أسبراجلس نيجر وأسبراجلس فلافيوس، اللذان أسهما بدورهما في إصابة المخطوط ببقع فطرية على السطح.
- أظهرت الدراسة أنواع الأحبار المستخدمة في المخطوط باستخدام جهاز التحليل EDX الملحق بالميكرسكوب الإلكتروني الماسح، وهي كالتالي: اللون الأسود وهو الحبر الكربوني، واللون الأحمر وهو السينبار (كبريتيد الزئبق)، واللون الأزرق وهو أزرق الألترامارين، واللون البني وهو من التانين، كما أظهر التحليل باستخدام جهاز FTIR أن نوع الوسيط المستخدم في الحبر هو الصمغ العربي.
- أظهر التحليل باستخدام الميكرسكوب الإلكتروني الماسح أن ألياف الورق عبارة عن ألياف قطن سيليلوزية، كما أظهر بوضوح مظاهر التلف المختلفة للألياف ومناطق الإصابة الفطرية.
- أظهر التحليل باستخدام طيف الأشعة تحت الحمراء حدوث أكسدة وتحلل مائي للورق.
- أظهر قياس PH الأس الهيدروجيني لعينة من أوراق المخطوط تساوي ٥,٢١.

ثانيًا: التوصيات

- الكشف الدوري على الكتب والمخطوطات والوثائق التاريخية المحفوظة بدور العرض والمتاحف والمخازن والمكتبات، للوقوف على مدى إصابتها بالفطريات وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة، وعزل المخطوطات المصابة، وتعقيم صالات العرض في الوقت المناسب، ومعالجتها أولًا بأول، ومحاولة الوقاية منها.
- يجب تهيئة الظروف الملائمة من رطوبة وحرارة وضوء وغيرها لتثبيط الفطر، والوقاية من إصابة الكتب والمخطوطات والوثائق بالفطريات وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة مستقبلًا.
- يجب التعرف جيدًا على طبيعة المواد المستخدمة في صناعة المخطوط، ومدى قابليتها للإصابة بالفطريات وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة.
- يجب الاحتفاظ بالكتب والمخطوطات داخل خزانات محكَمة الغلق، للتحكم في درجة الرطوبة والحرارة المناسبة للوقاية من التلف الميكروبيولوجي بفعل الفطريات وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة، وكذلك حمايتها من الهواء المحمَّل بالأتربة أو الأملاح أو إذا ما كانت أماكن الحفظ بالقرب من الأماكن الساحلية.
- عدم القيام بأعمال الترميم للمخطوطات التي قد يترتب عليها محو أو تغيير أو تشويه مظهر المخطوط أو التأثير على الأحبار والكتابات، أو الإضرار بمادة المخطوط أو إضعافها، والاكتفاء بالقدر الضروري من عمليات العلاج والترميم وعدم الإفراط فيها.
- يجب استخدام مواد علاج وترميم استرجاعية، بحيث يسهل إزالتها إذا ما تتطلب ذلك مستقبلًا، ويجب ضمان أن تكون هذه المواد لا تتفاعل كيميائيًّا مع مادة المخطوط بطريقة تؤدي إلى الإضرار بها.
- ضرورة إزالة آثار المواد الكيميائية المستخدمة في إزالة البقع، وذلك يتم عادة بغمر الأوراق المعالَجة في الماء المقطر لمدة تتراوح من ١٠ إلى ٢٠ دقيقة على الأقل.



- وبعد، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللّٰهُمَّ ما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو ذلل أو نسيان فمني ومن الشيطان. وأرجو أن يتزايد الاهتمام بمجال حفظ وصيانة مواد التراث الثقافي، لما تحمله لنا من إرث حضاري لا يمكن التغاضي عنه أو تجاهله، وأن تزوَّد معامل الترميم بأجهزة الفحص والتحليل اللازمة والضرورية لكي تتم عمليات الترميم بالشكل العلمي السليم، بناءً على أسس ومعايير علمية.

المراجع

أولًا: المراجع العربية

- تركستاني، حورية عبد الله. (٢٠١٤). «التوثيق ودوره في إبراز تاريخ القطع التراثية: نموذج متحف مجالس الإحياء بجمعية أم القرى. **مجلة بحوث التربية النوعية،** (ع ٣٥)، ٤١٨-٤٤٦.
- حسن، رشدية ربيع علي. (٢٠١٢). **دراسة تجريبية على بعض مواد وطرق معالجة مظاهر التلف الناتجة عن التأثيرات المتبادلة مابين جلود الكتب نباتية الدباغة والورق،** رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة.
- حميد، مناف لطيف، وأحمد زغير جلاب، وعلي عبد المحسن عبادة. (٢٠١٩). «تقوية أوراق المخطوط باستخدام مشتقات السليلوز والنشأ وتأثير التقادم الحراري المعجل: دراسة مقارنة». **مجلة القادسية للعلوم الإنسانية،** مج ٢٢ (ع ١).
- الخضري، علاء الدين بدوي محمود محمد. (٢٠٢١). «دراسة أثرية فنية ونشر لمصحف شريف من صعيد مصر مؤرخ بسنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م». **مجلة الإتحاد العام للآثاريين العرب،** مج ٢٢ (ع ٢)، ٤٨٢-٥٢٦.
- زيادة، أحمد حلمي صادق إبراهيم. (٢٠٢٢). «دراسة أثرية فنية لمخطوط مصحف جامع المشهد ببرديس بسوهاج (المؤرخ بسنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م). **مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب،** مج ٢٣ (ع ١)، ٣٤٩-٣٨١.
- عبد الباقي، صلاح عبد العال عبد الباقي. (٢٠٢١). «تأثير الحموضة على الخواص الميكانيكية والفيزيائية للمخطوطات الورقية». **مجلة البحوث في مجالات التربية النوعية،** مج ٧ (ع ٣٣)، ١٥٣٣-١٥٥١.
- عبد المنعم، حمدي محمد عبد العال. (٢٠١١). **دراسة علمية في المعالجات الكيميائية للمخطوطات الورقية الأثرية مع التطبيقات العملية في هذا المجال،** رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة.



- عبد الناصر، محمود إبراهيم محمد. (٢٠١٨). **دراسة تجريبية لتقيم دور المواد النانوية في زيادة كفاءة الإنزيمات المستخدمة في إزالة بقع المخطوطات الورقية والمشغولات الجلدية مع التطبيق العملي على نموذج تاريخي مختار**، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة.

- علام، محمد محمود سليم. (٢٠١٨). **دراسة علمية في تقنيات علاج وصيانة الطوابع التاريخية تطبيقا على أحد النماذج المختارة**، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة.

- فريق مشروع الصيانة. (٢٠١٩). «صيانة المخطوط الرَّقِّي مصاحف رصيد ١٣٩ المحفوظ بدار الكتب المصرية». **دورية علوم المخطوط**، ع ٢، ٣١٧-٣٦٤.

- ك. برديكو، ماري، منسق. (٢٠٠٢). **الحفظ في علم الآثار: الطرق والأساليب العلمية لحفظ وترميم المقتنيات الأثرية**، ترجمة: محمد أحمد الشاعر، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

- محمد، بهاء الدين. (١٩٨٧). **تجارب معملية عن التلف البيولوجي لورق مخطوط مع تطبيق لبعض طرق العلاج والترميم**، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة.

- محمود، حسام الدين عبد الحميد. (١٩٨٤). **المنهج العلمي لعلاج وصيانة المخطوطات والأخشاب والمنسوجات الأثرية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Kraková, L, Šoltys, K, Otlewska, A, Pietrzak, K, Purkrtová, S, Savická, D, Puškárová, A, Bučková, M, Szemes, T, Budiš, J, Demnerová, K, Gutarowska, B & Pangallo, D 2018, 'Comparison of methods for identification of microbial communities in book collections: Culture-dependent (sequencing and MALDI-TOF MS) and culture-independent (Illumina MiSeq)', International Biodeterioration & Biodegradation, Vol. 131, pp. 51–59.

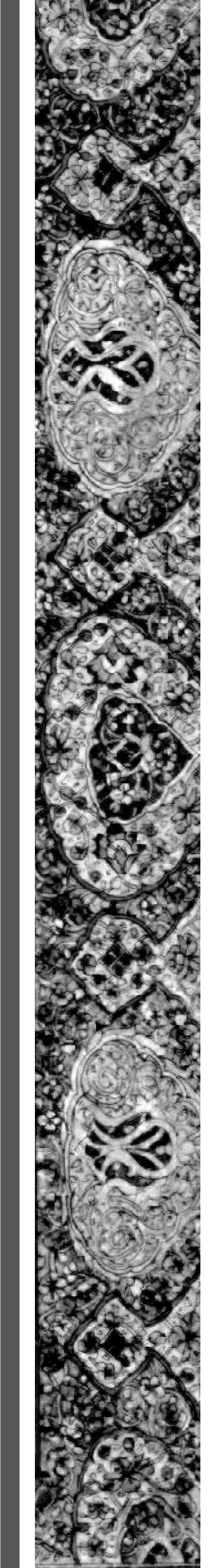
- Seger, K., Physical –chemical characterization of ancient paper, October, 1999.

- Shahani, C.J., “Preservation Research at the Library of Congress”, in “Preservation Research and Development”, U.S.A., 1993.
- Havermans, J.B.G., et al., The Effects of Air Pollutants on the accelerated Ageing of Cellulose Containing Materials- Paper, Final report, Ec/DGXII/ STEP project, TNO, Delft, 1994.
- Coll, S. J., Air Pollutions and Introduction, Newsletter, Vol. 5, N1, 2002.

Caroline, B (2010) damaged book, Esmée Fairbairn, preservation advisory center, British Library, ACR, ISBN 978 0 7123 5097 6, 5390–09/11.

- Hassan, R. R. A., Ali, M. F., Fahmy, A. G. A., Ali, H. M., & Salem, M. Z. (2020). Documentation and evaluation of an ancient paper manuscript with leather binding using spectrometric methods. Journal of Chemistry, 2020.
- Mazen, B. S. M., Ismail, B. M., Hassan, R. R. A., & Ali, M. (2021). Damage caused by black inks to the chemical properties of archaeological papyrus–analytical study. Pigment & Resin Technology.
- Waters, C.E., Inks, Circular of the National Bureau of Standards C413, U.S., Department of Commerce, Issued December 28, 1936.
- L. Hamerton, L. Tedaldi, N. Eastaugh, Systematic Examination of Color Development in Synthetic Ultramarine According to Historical Methods, PLOS ONE, 8(2), 2013, e50364r, www.plosone.org.
- Lucia Burgio, Robin J.H. Clark, Library of FT-Raman spectra of pigments, minerals, pigment media and varnishes, and supplement to existing library of Raman spectra of pigments with visible excitation. London, 2000, P.1492-1514.
- Barrow, W.J., Manuscripts and Documents – Their Deterioration and Restoration, Virginia Press, Charlottesville, 1995.

- Abdel-Maksoud, G. (2011) Analytical techniques used for the evaluation of a 19th century quranic manuscript conditions, Measuremen 44, 1606–1617.
- Kipphan, H., Handbook of Print Media: Technologies and Production Methods, Springer, 2001.
- Schwanninger, M., Rodrigues, J.C., Pereira, H. and Hinterstoisser, B. (2004). Effects of short-time vibratory ball milling on the shape of FT-IR spectra of wood and cellulose. Vibrational Spectroscopy, 36(1), pp.23–40. doi:10.1016/j.vibspec.2004.02.003.



بحوث مترجمة

طب النساء والولادة من اليونان إلى ابن سينا

ماكس مايرهوف

ترجمة: د. محمد علي الكردي(*)

(الجزء الأول)

لاحظ زميلي جواندس في دراسة سابقة له، نشرها بالقاهرة في عام ١٩٣٤م تحت عنوان: «نبذة عن طب النساء والولادة عند المصريين واليونان»(**)، أنه لم تتم بعدُ دراسة طب النساء في الحقبة العربية الإسلامية بعمق، إذ لا يزال الجزء الأعظم من الوثائق الهائلة الخاصة بهذه الفترة قابعًا في صورة مخطوطات عربية وفارسية في مكتبات الشرق والغرب. وليس من شك في أن القيام بهذا العمل على أحسن وجه يتطلب العديد من جهود الأطباء المستشرقين. وسوف نتبين فيما بعد أن عدد النصوص المنشورة منها حتى اليوم جدّ قليل، وأن عدد ما تمت ترجمته إلى اللغات الأوروبية غير معبِّر تمامًا.

نحن نخاطر إذن بمباشرة هذا الموضوع على طريقة الرواد، أي باقتفاء أهم النصوص المنشورة في هذا الصدد، ألا وهو كتاب «القانون في الطب» للطبيب الفارسي العربي الشهير ابن سينا، وهو النص الذي نُشر في مصر وفارس والهند باللغة العربية وفقًا للطبعة الأصلية Edition Princes المنشورة بروما عام ١٥٩٣م. وصحيح أن هذا النص قد تُرجم إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر؛

(*) أستاذ بقسم اللغة الفرنسية، ووكيل الدراسات العليا سابقًا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

(**) Joannidès, *Esquisse de la gynécologie et de l'obstétrique chez les Égyptiens et les Grecs*, Cairo, 1934.

كما طُبع بهذه اللغة أكثر من مرة بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر. غير أن هذه الترجمات كانت بعيدة كل البعد عن الصواب، وأحيانًا غير مفهومة على الإطلاق. ومن ثم، كان لزامًا علينا، حتى نُكوّن تصورًا محددًا لفكر هذا الطبيب الإسلامي العظيم، أن نَرجع إلى النص العربي الأصلي لمؤلِّفه الكبير، وذلك بقدر ما نجد به مصنفةً ومقننةً موسوعة المعارف اليونانية بعد أن أُضيفت إليها المعارف العربية. على هذا النحو، سوف نعثر لدى ابن سينا، بجانب النظريات الفيزيو - باثولوجية للمدارس الطبية اليونانية القديمة على ثمرة تجارب وخبرة أجيال من أطباء وقابلات العصور الإسلامية. ولقد بدا لنا أنه من الأهمية بمكان أن نفحص في هذا الكتاب، فصلًا بعد فصل، عملية تتابع النظريات القديمة مع توضيحها بواسطة ما تجمَّع لدينا من معطيات الحقب التالية. لقد استطاع واحد من كبار عباقرة العصور قاطبة أن يجمع ذلك كله بقدر كبير من التركيز في إطار نسق يفرض منطقه؛ وإن كان هذا النسق لا يمكنه، من غير شك، أن يصمد أمام العلم الحديث. إلا أنه يبقى لزامًا علينا أن نتتبع، خلال ردح من الزمن، مسيرة تاريخ الطب التي لم تكن دومًا إلا سلسلة من الأخطاء.



١- نظرة إلى الخلف: طب النساء عند اليونان وانتقاله إلى العرب

يمكننا أن نكتفي هنا بتلخيص أحدث الكتب وأفضلها توثيقًا من بين كل ما صدر في السنوات الأخيرة، ألا وهو كتاب «تاريخ طب النساء في العصر القديم» للأستاذ بول ديبجن من برلين[١]؛ إذ إننا نجد به، من بين ما يتضمنه، إحصاءً منهجيًّا لكل معارف أطباء اليونان فيما يخص الحياة الاجتماعية والصحية للمرأة في إطار الحياة القديمة بعامة.

وكان الدكتور جوانيدس قد قدم في بحثه سابق الذكر تصورًا عامًّا عن نظريات طب النساء لدى اليونان منذ إبقراط حتى سورانوس[٢] وجالينوس (القرن الثاني الميلادي). ولقد أشار إلى فقدان كتب مدرسة الإسكندرية، وضياع نتاج هيروفيلوس[٣] العظيم في مجال التشريح في القرن الثالث قبل الميلاد، والمعروف عنه أنه قد ألَّف كتابًا بعنوان «فن التوليد» *Maiotikón*، ونتاج معاصره الكبير إراسستراتوس[٤] الذي ألّف أيضًا كتابًا في طب النساء.

ولقد اقتفى كثير من التلاميذ خطى أساتذتهم؛ إذ حفظ لنا سورانوس في مؤلفاته عن طب النساء مقتطفات من أعمالهم. كما حلَّ محل باثولوجيا الأخلاط المأثورة عن مدرسة الإسكندرية ضرب آخر من الباثولوجيا المادية مثَّلتها، على الأخص، المدرسة الطبية المنهجية (Méthodique) التي تأسست وترسخت في روما منذ بداية القرن الأول الميلادي. ولقد تخرج سورانوس الإفسي في هذه المدرسة، وهو يُعد أشهر ممثل لعلم الطب النسائي في العهد القديم. فقد عاش، بعد أن أتم دراسته بالإسكندرية في روما إبان حكم الإمبراطورين تراجان وأدريانوس، ونحن ندين له

(١) P. Diepgen, *Die Frauenheilkunde der Alten Welt*; dans Handbuch der Gynäkologie von W. Stoeckel. 3e éd., vol. XII. 1. München, 1937.

(٢) عاش سورانوس الإفسي في عصر الإمبراطورين تراجان وأدريانوس، وكان رئيسًا للمدرسة المنهجية. وفي أعماله الشهيرة مبحثه عن «أمراض النساء». (المترجم)

(٣) هيروفيلوس السكندري (٣٣١-٢٥٠ ق.م) وهو يعد، مع إراسستراتوس، من أهم الأطباء المعنيين بالتشريح. ويُنسب إليه تشريح العين والكبد والبنكرياس والجهاز الهضمي، وتحديد وظيفة القلب في عملية النبض. (المترجم)

(٤) إراسستراتوس من كيو (٣١٠-٢٥٠ ق.م) طبيب إكلينيكي ذو باع كبير في علم التشريح. وهو يُعد، مع هيروفيلوس، من مؤسسي مدرسة الطب بالإسكندرية في عهد البطالمة. (المترجم)

بعملين نمتلك أشهرهما، وهو مبحث «طب النساء» *Gynaikeia*. أما العمل الآخر، وهو موجز لفن التوليد من أجل القابلات، فلم نعثر إلا على ترجمة لاتينية لجزء منه ندين بها لشخص يدعى موسكيون Muscion[٥]. ولقد تمت ترجمة هذه النسخة إلى اليونانية، مرة ثانية، خلال العصر البيزنطي. وكانت هذه الأعمال الأخيرة تزدان برسوم توضيحية تظهر أوضاع الطفل في الرحم وفقًا للتقاليد البيزنطية.

كما تخرج في مدرسة يونانية أخرى، تعرف بالمدرسة التنفسية (Pneumatique)، التي كان يرى روادها في ظاهرة التنفس سببًا للحياة، وفي اضطرابها علة للمرض، المتخصص البارز فيلومينوس (القرن الثالث الميلادي) الذي احتفظ لنا الطبيبان الهللينستيان أوريباز وأيثيوس[٦] بمقتطفات من طبه للنساء. ولقد ترك لنا جالينوس العظيم (١٣١-٢٠١م) أشهر القدماء من الأطباء بعد إبقراط من بين العديد من أعماله، ملخصًا في تشريح الرحم وملخصين آخرين عن تكوين الجنين وعن الوضع في الشهر السابع. كما تحدث كذلك جالينوس عن أمراض النساء في كثير من أعماله الكبرى عن الباثولوجيا. ولقد لاحظنا، كما هي القاعدة العامة لدى كل أطباء العصر القديم، تأثره الشديد بالفلسفة فيما يخص الأسس النظرية لأفكاره، كما نقع غالبًا في أعماله على أثر نظريات أفلاطون وأرسطو والرواقيين. ويجب علينا ألا ننسى أيضًا أن الطب الشعبي كان له نصيبه في تشكيل الفكر الطبي لهذه العصور؛ وهذا ما سوف نجده، على وجه خاص، في الأعمال الموسوعية الكبرى: موسوعة كلسوس Celse في الطب[٧]، وموسوعة بلينيوس Pline[٨] في التاريخ الطبيعي، مع بداية العصر المسيحي.

(٥) موسكيون: طبيب يوناني ترجم كتب سورانوس من القرن الثاني الميلادي وذكره سورانوس في كتابه «فن التوليد». (المترجم)

(٦) أوريباز: طبيب يوناني من القرن الرابع الميلادي (٣٢٥-٣٩٥م) قام بنشر موسوعات طبية تضم حوالي سبعين كتابًا معظمها مختارات من أعمال جالينوس في الطب والتشريح والفيزيولوجيا. أيثيوس Aetius: من أميدا ببلاد ما بين النهرين، وهو فيزيائي بيزنطي ومؤرخ للطب من بدايات القرن السادس الميلادي. (المترجم)

(٧) أولوس كورنيليوس كلسوس (٢٥ ق.م-٥٠م): موسوعي روماني لم يتبقَّ من أعماله إلا مبحثه في الطب *De Medicina* الذي يعد أفضل مصدر للتعرف على الطب في الإسكندرية القديمة. (المترجم)

(٨) بلينيوس (٢٣-٧٩م): عالم طبيعيات وكاتب لاتيني، مات في حادث انفجار بركان الفيزوف عام ٧٩م. له موسوعة ضخمة في التاريخ الطبيعي تشمل ٣٧ كتابًا.



لقد عرف الطب بعامة، والطب النسائي بخاصة، مرحلة من الركود منذ القرن الرابع الميلادي، إذ إن الغرب، الذي خرَّبته الغزوات الهمجية، سرعان ما فقد صلته بالتراث اليوناني الذي لم يظل متماسكًا إلا في قلب الإمبراطورية البيزنطية. ومع ذلك، فإن أعمال كبار الأطباء لم تَسْلَم هي الأخرى من الأفول بعد أن تم اختصارها وإعدادها، فيما تبقت من ظلال الإسكندرية، بغرض الاستخدام الميسر للممارسين. وحينما استولى العرب على الأراضي الآسيوية والإفريقية من الإمبراطورية البيزنطية وعلى بلاد الفرس الساسانيين (٦٣٤-٦٤٢م) كان انشغالهم الأول متصلًا بتنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة التي صاروا سادة لها. وكان الطب وقتئذٍ في أيدي مجموعة من العلماء المسيحيين الذين يتحدثون اللغة الآرامية المستحدثة أي السريانية، والذين كانوا قد ترجموا المؤلفات الطبية اليونانية، كما كانوا يعالجون المرضى وفقًا للنظام الطبي الكلاسيكي.

وفي غضون القرن الثامن الميلادي، بعد نقل عاصمة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد، بدأ خلفاء بني العباس يهتمون بالعلوم فكلَّفوا علماءً من السريان بترجمة الأعمال الفلسفية والطبية والعلمية ترجمة منهجية، الأمر الذي استغرق طوال القرن التاسع الميلادي. وكان رائد هذا العمل الخليفة المأمون الذي أنشأ في بغداد بيت الحكمة، وقام باقتناء العديد من المخطوطات اليونانية التي تمت ترجمتها، فيما بعد، إلى السريانية والعربية. ويعد العراقي المسيحي حنين بن إسحاق (٨٠٩-٨٧٣م) من أشهر علماء هذه الحقبة. فلقد أنجز بمفرده ليس عددًا هائلًا من الترجمات فحسب، وإنما درّب كذلك العديد من التلاميذ الذين استكملوا مهمته بعد أن عملوا تحت إمرته في مقتبل حياته. لقد ترجم منفردًا إلى السريانية والعربية مجموعة إبقراط وما يزيد على مائة وثلاثين كتابًا لجالينوس، وكذلك التصنيفات التي جمعها أوريباز وبول الإجيني[٩]؛ آخر تلاميذ المدرسة اليونانية بالإسكندرية. لقد هطلت هذه الثروة من المترجمات على الأرض القاحلة للعلم العربي كالغيث، وسرعان ما بزغ الأطباء الكبار ومعظمهم من أصول فارسية. لقد طبّق هؤلاء الأطباء العلم الجديد مستفيدين بما وفَّره لهم على مستوى النظرية والممارسة. كما كانوا، بالإضافة إلى ما يمتلكونه من ثروة في مجال الملاحظات العملية، يستخدمون معارف أطباء الهند

(٩) بول الإجيني: طبيب يوناني من القرن السابع الميلادي (٦٢٥-٦٩٥م) درس الطب بالإسكندرية. وكان العرب يبجلونه وأطلقوا عليه لقب «المولِّد» نظرًا لموهبته الفائقة في مجال الولادة. (المترجم)

الذين كانوا يُستدعون من حين إلى آخر إلى قصور الخلفاء. هذا بجانب ما أفادوه من العقاقير الآسيوية المتعددة والمجهولة عند بني اليونان، وذلك بغية إثراء مخزونهم من المعلومات الطبية.

لقد انتقل الطب في القرن العاشر، بعد أن كان حتى القرن التاسع في حوزة المسيحيين، إلى المسلمين الذين سرعان ما قاموا بتأليف الموسوعات الطبية الكبرى التي وصل إلينا الكثير منها. ونذكر بدايةً كتاب «الحاوي في الطب» الذي ألفه محمد بن زكريا الرازي حوالي سنة تسعمائة ميلادية، وهو موسوعة علاجية ضخمة تقع في أربع وعشرين جزءًا، وما زال الكثير من هذه الأجزاء موجودًا باللغة العربية بمكتبة الإسكوريال بالقرب من مدريد. ولقد تُرجم الكتاب *Continens Medicinae* كله إلى اللاتينية حوالي عام ١٢٨٠م، وطُبع في برسكيا بإيطاليا عام ١٤٨٦م. كما ألف الرازي أيضًا، مبحثًا كاملًا في الطب، هو «الكتاب المنصوري» الذي يقع في عشرة أجزاء، والذي كان قد أهداه إلى المنصور أمير خراسان. ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، كما استُخدم أساسًا للتعليم حتى منتصف القرن السابع عشر.

ويأتي بعد ذلك «الكتاب الملكي» *Liber Regius* لعليّ بن العباس الطبيب الفارسي بمستشفى بغداد في القرن العاشر. وهذا الكتاب محفوظ بكامله في نسخته العربية (طبعة القاهرة لعام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٥م)، وإن كانت توجد له ترجمة باللاتينية *Tegaleis Dispositio* طُبعت لأول مرة في البندقية عام ١٤٩٢م. ولقد تُرجم الجزء الخاص بالتشريح من هذه الموسوعة الطبية الهامة، ونُشر مصحوبًا بالنص العربي من قِبل دي كوننج(١٠). ومن الملاحظ أن وصف الأعضاء الجنسية للمرأة وفيزيولوجيا الجنين اللذين يشكلان خاتمة هذا الجزء، ويشغلان ما لا يقل عن أربع وأربعين صفحة، كانا بالغي التفاصيل. ونحن نجد في هذا الجزء مجمل المعارف اليونانية، بالإضافة إلى الإسهام العربي الكبير، وكذلك بعض التصويرات الفلكية عن تأثير الكواكب على تكوين الطفل خلال الشهور التسعة الأولى في رحم الأم. لذلك نحن نفضِّل تتبُّع طب النساء عند ابن سينا نظرًا لإيجازه وبُعْده أكثر من غيره عن الخيال.

---

(١٠) P. de Koning, *Trois traités d'anatomie arabe*, Leyde, 1903, p. 91-431.



إلا أنه يجدر بنا، في البداية، الإشارة إلى الأخطاء الثلاثة الكبرى لدى أطباء اليونان في مجال التشريح والفيزيولوجيا، وهي الأخطاء نفسها التي انتقلت إلى الطب العربي. وأول هذه الأخطاء، الاعتقاد بالشكل المزدوج القرن للرحم، وسبب هذا الخطأ هو المماثلة مع الحيوان، نظرًا لتحريم الديانات كلها التشريح خلال العصور القديمة والوسطى. والخطأ الثاني هو الوجود الافتراضي لزوائد (Cotylédons) أو أغشية مخاطية حول الرحم تعمل على تغذية الطفل. والخطأ الثالث هو فكرة رحلة الرحم (Migration) في جسم المرأة. ولعل هذا التصور الأخير يرجع إلى بعض المعتقدات الشعبية؛ وليس من المستبعد أن يكون مصدره الدين لدى قدماء المصريين. ونجد، كذلك، هذه الفكرة عند أفلاطون الذي كان يعتقد أن الرحم أشبه بـ «حيوان نَهِم إلى التناسل»، وأنه، من ثم، يقوم برحلة في الجسم إذا لم يحقق غايته المقدَّرة له، وأنه يسبب، على هذا النحو، الأمراض ومن بينها الهستريا. ولقد كان إبقراط يؤمن أيضًا بهذه الفكرة، وإن كانت مدرسة الإسكندرية قد استطاعت، بما امتلكته من معارف أكثر دقة وتقدمًا بالحقائق التشريحية، أن تزعزع هذه النظرية الغريبة، ولكنها، مع ذلك، لم تقضِ عليها تمامًا.

٢- نبذة عن حياة ابن سينا

يُعد أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ظاهرة ثقافية نادرًا ما نجد لها نظيرًا بين علماء الحضارة الإسلامية. وقد وُلد سنة ٩٨٠م بقرية من بلاد ما وراء النهر Transoxiane بآسيا الوسطى. لذلك يعتبره الأتراك، منذ فترة قريبة، واحدًا منهم(١١). وكانت لغته الأم الفارسية، وإن كان يكتب، خاصةً، باللغة العربية. ونحن ننقل من سيرته الذاتية(١٢) المقتطفات التالية التي يدل على نبوغه المبكر والشاسع: «إن أبي كان رجلًا من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح ابن منصور(١٣) واشتغل بالتصرف، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرمثين من ضياع بخارى... وبقربها قرية يقال لها أفشنة، وتزوج أبي منها بوالدتي وقطن بها وسكن، ووُلدت منها بها. ثم ولدتْ أخي، ثم انتقلنا إلى بخارى. وأحضرتْ معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملتُ العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب». ويضيف ابن سينا أن أباه وأخاه قد اعتنقا مذهب الإسماعيليين الذين كانوا يحكمون مصر (الفاطميين) ولكنه لم يتبعهما في ذلك. ويكمل قائلًا: «وأخذ [أبي] يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلي(١٤) وكان يُدعى المتفلسف، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه. وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد... ثم ابتدأت بكتاب «إيساغوجي» على النائلي». ثم يحكي لنا ابن سينا، بعد ذلك كيف فاق معلمه وأحرجه بأسئلته: «ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق.

(١١) لقد نشر معهد تاريخ تركيا، بمناسبة السنوية التاسعة لوفاة ابن سينا، مجلدًا ضخمًا من الأبحاث القيمة باللغات التركية والفرنسية والعربية عن حياة وأعمال العالم الكبير (عن الفيلسوف والطبيب التركي الرئيس ابن سينا.. إسطنبول ١٩٣٧). وتحتوي هذه الطبعة على مراجع مهمة.

(١٢) توجد هذه السيرة في المؤلَّف الكبير عن تاريخ الأطباء العرب «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة، المتوفى في دمشق سنة ٢٧٠م، الجزء الثاني: ٢-٤. ولقد أملاها ابن سينا على تلميذه الجوزجاني.

[تقع هذه السيرة في صفحات ١-٤ من «عيون الأنباء»، منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ١٩٩٨م. (المترجم)].

(١٣) حاكم بلاد ما وراء النهر (٩٧٦-٩٩٧م).

(١٤) يكتبه المستشرق: «الناتلي». (المترجم)



وكذلك كتاب إقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره. ثم انتقلت إلى «المجسطي» لبطلميوس»[١٥].

ويقول ابن سينا إنه تعلم الأشكال الهندسية بهذا الكتاب الأخير، وشرحها لأستاذه النائلي الذي ارتحل بعد ذلك إلى بخارى. ويضيف: «ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه؛ وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة. فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليّ علم الطب. وتعهدت المرضى، فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف [ما لا يوجد في الكتب][١٦].

وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه..، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفًا، فأعدت قراءة المنطق، وجميع أجزاء الفلسفة... وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي. ثم أرجع إلى القراءة ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام. وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم، حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضي، ثم عدت إلى الإلهي، وقرأت كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو»[١٧]. ثم يضيف ابن سينا كيف أنه لم يستطع فهم هذا الكتاب بالرغم من أنه قرأه أربعين مرة حتى «صار له محفوظًا»، إلى أن وقع بالصدفة على كتاب مفيد، هو «كتاب أبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة»، الذي يُعد صاحبه أول فيلسوف أرسطي شهير في العصر الإسلامي، وحينما استشاره سلطان بخارى نوح بن منصور في مرضه، انتهز ابن سينا الفرصة وطلب منه الدخول إلى مكتبته، حيث استطاع الاطلاع على ما بها من كتب نادرة ونفيسة أثْرَت معارفه في مجال العلوم والآداب ثراءً جمًّا. وفي سن الثامنة عشرة من عمره استكمل ابن سينا دراساته وتملك ناصية العديد من العلوم. ولقد

(١٥) **عيون الأنباء**، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م: ٤٠١.

(١٦) عبارة توضيحية للمستشرق.

(١٧) **عيون الأنباء**: ٤٠٢.

أفاده ذلك في تحرير أول كتاب له، وهو كتاب جامع لكل العلوم، طلبه منه صديق له[١٨]، وفي سن الواحدة والعشرين صنّف من أجل صديق آخر[١٩] كتابًا في الفقه والتفسير (الحاصل والمحصول)، وهو يقع في عشرين مجلدًا، وكذلك صنّف مبحثًا في الأخلاق (كتاب البر والإثم)، ثم فَقَد ابن سينا، بعد ذلك، والده، وغادر بخارى في رحلة طويلة عبر بلاد ما وراء النهر وشرق فارس وجنوب شرق بحر قزوين Hyrcanie، قاصدًا خدمة الأمير قابوس؛ أحد كبار حماة العلماء. بيد أن هذا الأخير فقد عرشه عام ١٠١٢م، فاضطر ابن سينا إلى مواصلة ترحاله إلى أن مرض مرضًا شديدًا بدهستان في بلاد فارس فرجع إلى جرجان.

عند هذا الحد ينتهي الجزء الخاص بالسيرة الذاتية للشيخ الرئيس، إلا أن تلميذه المخلص الجوزجاني أكمل سيرة حياته المضطربة. لقد بدأ ابن سينا في جرجان تأليف أهم أعماله، كما شرع في إلقاء عدد من دروسه. ونخص بالذكر هنا الكتاب الأول من «القانون في الطب»، الذي سوف نستخلص منه الجزء الخاص بتشريح الأعضاء التناسلية. لقد انتقل ابن سينا، بعد ذلك، إلى ميديا Médie وطبرستان (جنوب بحر قزوين). وبالرغم من هذه الرحلات، فإن الرجل حافظ على فيض إنتاجه المدهش الذي ما زالت ثماره محفوظة حتى اليوم في المكتبات في صورة مخطوطات عربية متعددة. ثم نراه يذهب، بعد ذلك، إلى همدان (إلى الغرب من بلاد فارس) حيث يعالج السلطان شمس الدولة، ويصاحبه في إحدى حملاته؛ كما يصبح وزيرًا له. ولقد اضطر إلى الاختباء إثر تمرد بعض الجند إلى أن استطاع السلطان إقرار الأمن والنظام. إلا أن ابن سينا يفقد، بعد وفاة هذا الأخير حظوته لدى خَلَفه الجديد، ويُزجّ به في السجن إلى أن يتمكن من الفرار إلى أصفهان، حيث يُحسن غريم السلطان الجديد استقباله. وبالرغم من كل هذه الفترات العصيبة، استطاع ابن سينا أن ينجز أهم أعماله الفلسفية، وهو «كتاب الشفاء»، الذي يضم ثلاثة أجزاء: الإلهيات والطبيعيات والرياضيات. وفيه أظهر قدرته على تفسير الفكر اليوناني بدقة ووضوح. ولقد أتم في أصفهان تحرير هذا الكتاب الأخير، كما قام بتصنيف كتب أخرى في المنطق والهندسة والحساب والموسيقى. وعند تكليفه ببعض الملاحظات في مجال الأرصاد، صحب سلطان أصفهان إلى هَمَدَان، حيث أُصيب

(١٨) هو أبو الحسين العروضي، المرجع السابق: ٤٠٣. (المترجم)

(١٩) هو أبو بكر البرقي، المرجع نفسه: ٤٠٣. (المترجم)



ببعض الاضطرابات المعوية (ربما الدوسنتريا) التي أودت بحياته عام ١٠٣٧م، وهو في سن السابعة والخمسين. وما زال قبر هذا المفكر العظيم قائمًا في هَمَدَان، حيث يُجلّه كل أطباء الشرق. على هذا النحو، تنتهي حياة هذا الرجل الفذ وصاحب الموهبة الخارقة. ولقد أطلق عليه معاصروه لقب الشيخ الرئيس، وهو لقب فخري تُرجم فيما بعد، إلى اللاتينية بعبارة *Princeps medicorum*.

إن ما يهمنا هنا هو إنتاج ابن سينا الغزير في كتابه «القانون في الطب»، الذي أتمه خلال إقامته بمدينة الرَّيّ في بلاد فارس. وتنقسم هذه الموسوعة الطبية الضخمة إلى خمسة أجزاء تشمل الموضوعات العامة والمواد الطبية والأمراض الخاصة، والأمراض المتصلة بمختلف الأعضاء، والأدوية والعقاقير. وسرعان ما ترجم هذا الكتاب، الذي يُعد من أوائل الكتب المطبوعة بعد اختراع الطباعة، إلى اللاتينية والعبرية. وأول طبعاته اللاتينية السابقة على المطبعة، ليست مؤرخة، أما أول طبعة عبرية له فتحمل تاريخ سنة ١٤٩١م. وأول طبعة عربية قامت بها مطبعة الميدتشي Medici بروما، وقد تمت في عام ١٥٩٣م، إلا أنها مكتظة بالأخطاء. أما الطبعات الحديثة الثلاث للنسخة العربية، فهي طبعة القاهرة (بولاق ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م)، وطبعة طهران (١٢٨٤-١٢٩٤هـ/ ١٨٦٨-١٨٧٧م)، وطبعة لكنو بالهند (١٣٣٣هـ/ ١٩٠٥م). ولقد استخدمنا طبعة القاهرة لأنها الأفضل[٢٠]، وإن كانت تحتاج إلى المراجعة من بعض الدارسين للعربية ومن بعض الأطباء الذين على دراية بالطب القديم وكتاب القانون، كما عرضناه في المقدمة، من أجل الضبط والتنظيم المنهجي لكل المعارف الطبية اليونانية والعربية المحصَّلة حتى عصر المؤلف.

إن تشريح وفيزيولوجيا طب النساء اللذين سوف يشغلاننا في البداية يقعان عند ابن سينا في القسم (الفن) العشرين من الكتاب الثالث لكتاب القانون في طبعة القاهرة (المجلد الثاني، ص٥٥٥ وما يليها)، وهما يمثلان أولى المقالات الأربع لهذا القسم[٢١]، وهذا الجزء مقسم إلى فصول لا تحمل أرقامًا.

---

(٢٠) لقد اعتمدنا على النسخة التالية المحققة للمطابقة، وهي «القانون في الطب» للشيخ الرئيس أبي علي الحسيني بن علي ابن سينا. تحقيق الدكتور إدوار القشي، وتقديم الدكتور علي زيعور، الناشر مؤسسة عز الدين بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. (المترجم)

(٢١) في الواقع، إننا نقع هنا على التباس من قِبل المستشرق، فالفن العشرون يشتمل على مقالتين مستقلتين خاصتين بأعضاء التناسل، ولم يشر إليهما الباحث قط في دراسته. أما المقالات الأربع، التي يعتمد عليها في بحثه عن ابن سينا، فتشكل مادة الفن الحادي والعشرين. (المترجم)

٣- طب النساء لابن سينا

تشريح وفيزيولوجيا الأعضاء الجنسية وفقًا لابن سينا

سوف نتابع في كل ما نعرضه تقريبًا ترجمة دي كوننج باستثناء بعض التعديلات التي يُمليها النص العربي. ونحن نلاحظ، بداية، أن ابن سينا يبدأ بمقارنة غريبة بين عضو التناسل عند الرجل وعضو المرأة، إذ يجد بينهما نوعًا من التوازي مفاده أن المرأة صورة غير مكتملة للرجل، ولعل هذا التصور يكون قد وصل إليه عن طريق أرسطو(٢٢). ويبدأ ابن سينا على النحو التالي:

فصل في تشريح الرحم

«نقول إن آلة التوليد التي للإناث هي الرحم، وهي في أصل الخلقة مشاكلة لآلة التوليد التي للذكران، وهي الذكر وما معه، ولكن إحداهما تامة متوجهة إلى الخارج، والأخرى ناقصة محتبسة في الباطن، فكأنها مقلوب آلة الذكران، وكأن الصفن صفاق الرحم، وكأن القضيب عنق الرحم والبيضتان للنساء كما للرجال، لكنهما في الرجال كبيرتان بارزتان متطاولتان إلى استدارة، وفي النساء صغيرتان مستديرتان إلى شدة تفرطح، باطنتان في الفرج، موضوعتان في جنبيه في كل جانب من قعره واحدة، متمايزتان يختص بكل واحدة منهما غشاء لا يجمعهما كليس واحد، وغشاء كل واحدة منهما عصبي. وكما أن للرجال أوعية للمنيّ بين البيضتين وبين المستفرغ من أصل القضيب، كذلك للنساء أوعية المنيّ بين الخصيتين وبين المقذف (المني النسائي) إلى داخل الرحم، لكن الذي للرجال يبتدئ من البيضة، ويرتفع إلى فوق، ويندس في النقرة التي تنحط منها علاقة البيضة محررة موثقة، ثم ينثني هابطًا متعرجًا مثوربًا ذا التفافات يتم فيها بينهما نضج المنيّ، حتى يعود ويفضي إلى المجرى التي في الذكر من أصله من الجانبين، وبالقرب منه ما يقضي إليه أيضًا طرف عنق المثانة وهو طويل في الرجل قصير في النساء. وأما في النساء فيميل من البيضتين إلى الخاصرتين كالقرنين(٢٣) مقوسين شاخصين إلى الحالبين، يتصل طرفاهما بالأربيتين، ويتواتران عند الجماع، فيسويان عنق

(٢٢) Aristote, *De generatione animalium*, 11, 3.

(٢٣) هذا هو الخطأ القديم عن «الرحم ذي القرنين».



الرحم للقبول بأن يجذباه إلى الجانبين، فيتوسع، وينفتح ويبلع المنيّ. وهما أقصر من مرسل زرقه مما في الرجال، ويختلفان في أن أوعية المنيّ في النساء تتصل بالبيضتين، وينفذ في الزائدتين القرنيتين شيء ينبت من كل بيضة يقذف المني إلى الوعاء، ويُسميان قاذفي المني»(٢٤).

ويكمل ابن سينا مناقشته، بعد ذلك، لأسباب كون أوعية النساء أكثر ليونة من حبال المنيّ عند الرجال، ويتبع كليةً جالينوس في تصوره الغائي عن خلق كل عضو لغاية مكتملة النفع.

«وفي داخل الرحم طوق عصبي مستدير في وسطه كالسير وعليه زوائد كثيرة(٢٥). وخلقة الرحم ذات عروق كثيرة تتشعب من العروق التي ذكرناها، لتكون هناك عدّة للجنين، وتكون للفضل الطمثيّ مدرة، وربطت الرحم بالصلب برباطات قوية كثيرة إلى ناحية السرة، والمثانة، والعظم العريض فما فوقه، لكنها سلسة.... وجعلت من جوهر عصبي له أن يتمدد كثيرًا عند الاستعمال، وأن يجتمع إلى حجم يسير عند الوضع، وليس يستتم تجويفها إلا عند استتمام النمو، كالثديين لا يستتم حجمهما إلا مع استمام النمو، لأنه يكون قبل ذلك معطلًا لا يُحتاج إليه، ولذلك الرحم في الجواري أصغر من الثيّبات بكثير، ولها في الناس تجويفان، وفي غيرهم تجاويف بعدد حلم الأثداء(٢٦)، وموضعها خلف المثانة، وتفضل عليها من فوق كما تفضل المثانة عليها بعنقها من تحت ومن قدام المعيّ، ليكون لها في الجانبين مهاد ومفرش لين، وتكون في حرز. وليس الغرض الأول في ذلك متوجهًا إلى الرحم نفسها. بل إلى الجنين. وهو يشغل ما بين قرب السرة إلى آخر منفذ الفرج، وهو رقبتها وطولها المعتدل في النساء ما بين ست أصابع إلى إحدى عشرة إصبعًا وما بين ذلك، وقد تقصر وتطول باستعمال الجماع وتركه، وقد يتشكل مقدارها بشكل مقدار من يعتاد مجامعتها، ويقرب من ذلك طول الرحم نفسها، وربما ماست المعيّ العليا».

---

(٢٤) هذا الفصل هو بداية المقالة الأولى من الفن الحادي والعشرين، ويقع في النسخة اللبنانية التي نستخدمها ص ١٦٢٧، المقابلة لصفحة ٥٥٦ من المجلد الثاني لنسخة بولاق. ومن الآن فصاعدًا سوف نشير إلى النسخة اللبنانية بتعبير المرجع المذكور. (المترجم)

(٢٥) هذا هو الخطأ الثاني فيما يخص الزوائد (Cotylédons)، وفي مخطوط آخر للقانون يشبهها ابن سينا بالبواسير.

(٢٦) نقع هنا أيضًا على خطأين جسيمين في التشريح اليوناني، إذ يكرر جالينوس Galien, *De usu partium*, 1. XIV. Ch. 4 هنا المفهوم الخاطئ، ويدافع عنه ضد السفسطائيين بالطريقة التالية: «لا يجرؤ أكثر الناس وقاحة أن يدعي أن العدد المتساوي لتجويفات الرحم والحلمات عند كل الحيوانات قد خُلق من قبل الخالق بلا قصد». De Joannidès, XXX, p. 15.

«وخلقت الرحم من طبقتين، باطنتهما أقرب أن تكون عرقية [ليفية]، وخشونتها كذلك، وفوهات هذه العروق هي التي تتنقر في الرحم، وتسمى نُقر الرحم، وبها تتصل أغشية الجنين، ومنها يسيل الطمث، ومنها يغتذي الجنين، وظاهرتهما أقرب إلى أن تكون عصبية. وكل طبقة منهما قد تنقبض، وتنبسط باستعداد طباعها، والطبقة الخارجة ساذجة [بسيطة] وواحدة والداخلة كالمنقسمة قسمين كمتجاورين... والرحم تغلظ وتثخن كأنها تسمن، وذلك في وقت الطمث. ثم إذا ظهرت ذبلت ويبست، ولها أيضًا ترفق مع عظم الجنين، وانبساطها يُحسب كانبساط جثة الجنين، وإذا جومعت المرأة تدافعت الرحم إلى فم الفرج. كأنها تبرز شوقًا إلى جذب المنيّ بالطبع وإذا قيل الرحم عصبانية، فليس نعني بها أن خلقها من عصب دماغي، بل أن خلقها من جوهر يشبه العصب أبيض، عديم الدم، لدن ممتد. وإنما يأتيها من الدماغ عصب يسير يُحس به. ولو كان أشد عصبانية، لكانت أشد مشاركة للدماغ»[٢٧].

«ورقبة الرحم عضلية اللحم كلها غضروفية، كأنها غصن على غصن يزيدها السمن صلابة وتغضرفًا، والحمل أيضًا في وقت الحمل، وفيها مجرى محاذية لفم الفرج الخارج، ومنها تبلغ المنيّ، وتقذف الطمث، وتلد الجنين، وتكون في حال العلوق في غاية الضيق لا يكاد يدخلها طرف ميل، ثم تتسع بإذن الله تعالى فيخرج منها الجنين. وأما مجرى البول ففي موضع آخر، وهو أقرب إلى فم الرحم مما يلي أعاليها. ومن النساء من رقبة رحمها إلى اليسار، ومنهن من هي منها إلى اليمين. وقبل افتضاض الجارية البكر يكون في رقبة الرحم أغشية تنتسج من عروق، ومن رباطات رقيقة جدًّا ينبت من كل غصن منها شيء يهتكها الافتضاض، ويسيل ما فيها من الدم فاعلم جميع ما قلناه»[٢٨].

إننا نرى أن ترجمة ابن سينا هذه تتفق تمامًا مع التشريح اليوناني في أخطائه، كما في ملاحظاته الصائبة، إلا أنه يجب علينا أن لا ننسى أن الدين كان يحرّم، سواء عند اليونانيين أو المسلمين، تشريح الجسم البشري. ومن ثم، كان التشريح يعتمد لديهم على فحص الحيوانات «المذبوحة». ولقد لاحظ اليونان والعرب ظاهرة انقباض وانبساط الرحم، إلا أنهم أرجعوها - جهلًا منهم بوجود العضلات اللينة - إلى نسيج عصبيّ أي ليفيّ يشكل كتلة جدار الرحم. كما أن وصفهم

(٢٧) ابن سينا، المرجع المذكور: ١٦٢٨.

(٢٨) المرجع المذكور: ١٦٢٩.



لأربطة الرحم غير واضح، وإن كانت معرفتهم بالسمة العامة لتعليق الرحم جيدة. ولم تكن الأوعية الدموية وعروق الرحم، أيضًا، قد دُرست بطريقة جيدة، وإن كان قد تم التعرف على وجودها بسبب نزيف الدم وأوجاع الرحم، كما كان يُنظر إلى المبيض على أنه «خِصية» المرأة المفرِزة للمنيّ الذي كان ينتقل إلى داخل الرحم عن طريق قناة الضخ، التي تمكنت من وصفها، فيما بعد بوقت طويل مكتشفها فالوب Fallope. وكان رباط المبيض والرباط العريض وشكل المهبل وعنق الرحم معروفين، إلا أن الوظيفة الفعلية لهذه الأعضاء لم تُكتشف إلا خلال القرنين السابع والثامن عشر.

فيزيولوجيا الحمل

إن هذا الفصل بالغ الطول ومليء بالتصورات الفيزيولوجية الموروثة عن فلاسفة وأطباء اليونان. ونظرًا لتعذر إيراده كاملًا بسبب اتساعه، فإننا سوف نكتفي بتقديم ملخص حرفي له من ترجمات دي كوننج (ص٧٥٤ وما يليها)، ويشمل النص العربي الصفحات من ٥٥٧ إلى ٥٦٢ من المجلد الثاني من طبعة بولاق للقانون[٢٩].

فصل في تولد الجنين

«إذا اشتملت الرحم على المنيّ، فإن أول الأحوال أن تحدث هناك زبدية المنيّ، وهو من فعل القوة المصورة. وتحريك من القوة المصورة لما كان في المنيّ من الروح النفساني والطبيعي والحيواني إلى معدن كل واحد منها، ليستقر فيه». ويشرح لنا ابن سينا، بعد ذلك، كيف يتخلّق القلب والرئتان والدماغ وعلقة الدم المتخثر الذي ينجم عن منيّ الذكر والأنثى ويثبت حول السرة. ثم نشأة الأغشية المحيطة بالجنين. ويناقش، بعد ذلك، تصورات المفكرين القدماء عن نظام خلق الأعضاء، إذ زعم إبقراط أن أوائل الأعضاء التي تكونت هي الدماغ والعينان، وأعطى آخرون (أرسطو خاصة) الأولوية للقلب، ومفكر مجهول الاسم للكبد. إلا أن ابن سينا قد دحض هذا الرأي الأخير قائلًا: «وثالث الأحوال استحالة المني إلى العلقة، وبعدها استحالته إلى المضغة،

(٢٩) وهي التي ترادف الصفحات ١٦٢٩- ١٦٣٤ من النسخة اللبنانية (المرجع المذكور). (المترجم)

وهناك تكون الأعضاء الرئيسة قد ظهر لها انفصال محسوس وقدر محسوس وبعدها استحالته إلى أن يتم تكون القلب، والأعضاء الأولى.. وتكون الأطراف قد تخططت ولم تنفصل تمام الانفصال وأوعيتها، ثم إلى أن تتكون الأطراف»[٣٠]. وتخضع هذه التحولات، في نظر ابن سينا، إلى مدة زمنية محددة، إذ تستغرق فترة زبدية المنيّ خمسة عشر يومًا، تتكون في إثرها العلقة. ثم يتشكل، بعد سبعة وعشرين يومًا، القلبُ والكبد والدماغ؛ وبعد ستة وثلاثين يومًا تنفصل الرأس عن المنكبين، وتبرز البطن والأعضاء الأخرى. من ثم، يستغرق التكوين الكامل للجنين أربعين يومًا (وهو العدد المقدس منذ الماضي السحيق). بيد أن ابن سينا يعترف بوجود بعض الاستثناءات التي تتراوح بين أربعة وثلاثين وخمسة وأربعين يومًا، وبأن تكوين الجنين الذكر أسرع من تكوين جنين الأنثى. وقد أجرى ابن سينا هذه الملاحظات اعتمادًا على نماذج من بعض الأجنة المجهضة بعد أربعين يومًا: «وذكر في التعليم الأول أن السقط بعد الأربعين إذا شق عنه السلاء ووضع في الماء البارد، يُظهر شيئًا صغيرًا متميز الأطراف»[٣١]. ثم يلجأ ابن سينا إلى تحديد بعض المدد حسابيًّا إذ يرى أن الحمل الأدنى يستغرق مائتين وعشرة أيام، وأن الجنين الذي يتكون في خمسة وأربعين يومًا يبدأ في التحرك في اليوم التسعين، أي في الوقت اللازم لتكوين لبن الأم، وأن ميلاده سيكون بعد مائتين وسبعين يومًا. أما بالنسبة للأطفال الذين يولدون في الشهر الثامن فتكون مدد تكوين الجنين «أربعين يومًا، ثم ثمانين، ثم مائة وعشرين يومًا».

ويكمل قائلًا: «واعلم أن دم الطمث في الحامل ينقسم ثلاثة أقسام: قسم ينصرف في الغذاء، وقسم يصعد إلى الشدي، وقسم هو فضل يتوقف إلى أن يأتي وقت النفاس فينتقص. والجنين تحيط به أغشية ثلاثة: المشيمة، وهو الغشاء المحيط به، وفيه تنتسج العروق المتأدية ضواربها إلى عرقين [متصلين بالسرة]، وسواكنها إلى عرقين، والثاني يسمى فلاس، وهو اللفائفي وينصب إليه بول الجنين، والثالث يقال له أنفس وهو مفيض العرق، ولم يحتج إلى وعاء آخر لفضل البراز، إذ كان ما يغتذى به رقيقًا لا صلابة له، ولا ثقل، إنما تنفصل منه مائية بول، أو عرق. وأقرب الأغشية إليه الغشاء الثالث، وهو أرقها، ليجمع الرطوبة الراسخة من الجنين. وفي جمع تلك الرطوبة فائدة في إقلاله كي لا

(٣٠) المرجع المذكور: ١٦٣٠.
(٣١) المرجع نفسه: ١٦٣٠.



يثقل على نفسه وعلى الرحم، وكذلك في تبعيد ما بين بشرته والرحم. فإن الغشاء الصلب يؤلمه بمماسته كما يؤلم المماسات ما كان من الجلد قريب العهد من النبات على القروح، ولم يستوكع [يشتد] بعد. وأما الغشاء الذي يلي هذا الغشاء إلى الخارج فهو اللفائفي (Amnios) لأنه يشبه اللفائف، وينفذ إليه من السرة عصب للبول ليس من الإحليل... وجعل للبول مفيض خاص به، لأنه لو لاقى البدن لم يحتمله البدن لحرافته وحدته وذلك ظاهر فيه... والمشيمة (Chorion) ذات صفاقين رفيقين، وتنتسج فيما بينهما العروق، ويتأدى كل جنس منهما إلى عرقين أعني الشرايين والأوردة. فأما عرق الأوردة [السُّرية] فإذا دخلا استقصرا المسافة إلى الكبد، فاتحدا عرقًا واحدًا ليكون أسلم، وبعدًا إلى تحديب الكبد... وبالحقيقة فإن هذا العرق إنما ينبت من الكبد، وينحدر إلى السُّرة، المشيمة، ويفترق هناك، فيصير عرقين، ويخرج ويتحرك في المشيمة إلى فوهات العروق التي في الرحم... وكذلك فإن الشرايين تجتمع إلى شريانين، إن أخذت الابتداء من المشيمة وجدتهما ينفذان من السرة إلى الشريان الكبير الذي على الصلب شركين على المثانة، فإنها أقرب الأعضاء التي يمكن أن يستند إليها هناك مشدودين بأغشية للسلامة، ثم ينفذان في الشريان الدائم الذي لا ينفخ في الحيوان إلى آخر حياته، فهذا هو ظاهر قول الأطباء. وأما في الحقيقة، فهما شعبتان منبتهما الحقيقي من الشريان [الحرقفي]... ويذكر أن الشريان والوريد النافذين من القلب والرئة، لما كان لا يُنتفع بهما في ذلك الوقت في التنفس منفعة عظيمة، صرف نفعهما إلى الغذاء، فجعل لأحدهما إلى الآخر منفذ ينسد عند الولادة[٣٢]. وأن الرئة إنما تكون حمراء في الأجنة، لأنها لا تتنفس هناك، بل تغتذي بدم أحمر لطيف، وإنما تبيضها مخالطة الهوائية، فتبيض. [بعد الولادة]»[٣٣].

ويقوم ابن سينا، إثر ذلك، بعرض النظريات القديمة عن التكوين شبه اللفائفي (Allantoide) لمنيّ الأنثى وفوائده المزعومة، ويعمل على دحضها. كما يعرض أيضًا الافتراضات المطروحة حول جنس المولود، وفقًا لتكوين القلب، وكذلك وجوه التشابه وما يتصل بها من أمزجة مثل الشبه بين المولود الذكر وبين أمه خارجيًّا والعكس. وهو يُرجِع اختلافات البنية (القدود) إلى المادة الأولى

(٣٢) يتبع ابن سينا، هنا، كليةً خطوات جالينوس الذي لاحظ ثقب «بوتال» (Botal) أو الثقب البيضوي، ولكنه اعتبره نقطة اتصال بين الوريد الأجوف ووريد الرئة.

(٣٣) المرجع المذكور: ١٦٣١-١٦٣٢.

للجنين، وإلى قلة أو وفرة الغذاء، وإلى سعة أو صغر رحم الأم. ويقول ابن سينا في ذلك: «والسبب في التوأم كثرة المنيّ حتى يفيض إلى بطني الرحم فيضًا يملأ كلًّا على حدة»[٣٤]. وينسب ابن سينا غزارة الإخصاب إلى الاختلاجات المتتابعة للرحم عند التلذذ: «وربما وافق زرقه ذكورية صبه أنثاوية، فاختلطا، ويليها زرقات مثل ذلك مرة بعد مرة، فحملت المرأة ببطون عدة، إذ كل اختلاط ينحاز بنفسه... وقد تقبل المرأة والحجرة (الأنثى من الخيل) منيًّا على منيّ وتلدهما جميعًا»[٣٥].

«وأما الولادة، فإنما تكون إذا لم يكفِ الجنين ما تؤديه إليه المشيمة من الدم. وما يتأدى إليه من النسيم وتكون قد صارت أعضاؤه تامة، فيتحرك حينئذ عند السابع إلى الخروج كما تتم فيه القوة. وإذا عجز أصابه ضعف ما لا تثوب إليه معه القوة إلى التاسع، فإن خرج في الثامن، خرج وهو ضعيف[٣٦] لم ينزعج عن قوة مولده... وخروج الجنين إنما يتم بانشقاقه الأغشية الرطبة، وانصباب رطوبتها وإزلاقها إياه، وقد انقلب على رأسه في الولادة الطبيعية، لتكون أسهل للانفصال. وأما الولادة على الرجلين، فهو لضعف الولد فلا يقدر على انقلاب، وهو خطر، ولا يفلح في الأكثر. والجنين قبل حركته إلى الخروج، فقد يكون معتمدًا بوجهه على رجليه، وبراحتيه على ركبتيه، وأنفه بين الركبتين، والعينان عليهما، وقد ضمّهما إلى قدامه، وهو راكن عنقه ووجهه إلى ظهر أمه حماية للقلب، وهذه النصبة أوفق للانقلاب. على أن قومًا قالوا إن الأنثى تكون نصبة وجهها على خلاف هذه النصبة، وإنما هذا للذكر، ويعين على الانقلاب ثقل الأعالي من الجنين، وعظم الرأس منه خاصة، وإذا انفصل انفتح الرحم الانفتاح الذي لا يقدر في مثله مثله، ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل، ومدد عناية من الله تعالى معدة لذلك، فترده عن قريب إلى الاتصال الطبيعي، ويكون ذلك فعلًا من الأفعال القوية الطبيعية والمصورة. وبخاص أمر متصل من الخالق لاستعداد لا يزال يحصل مع نمو الجنين لا يشعر به، وهذا من سر الله، فتعالى الله الملك الحق المبين، وتبارك الله أحسن الخالقين. فحاصل هذا أن سبب ولادة الجنين الطبيعية، احتياجه إلى هؤلاء أكثر، وغذاء أكثر، وعند انتباه قوى نفسه لطلب سعة المجال والنسيم الرغد والغذاء

(٣٤) المرجع المذكور: ١٦٣٣.

(٣٥) يتفق هذا الرأي وكلام أرسطو: «ليس من بين الحيوانات جميعًا إلا المرأة وأنثى الخيل اللتان تسمحان بالجماع خلال فترة الحمل». Aristote, *De generatione animalium*, livre IV, Chap. 5.

(٣٦) انظر فيما بعد تصورات القدماء عن مخاطر الولادة في الشهر الثامن.



الأوفر، هرب عن الضيق وعن عوز النسيم، وقلة الغذاء، وإذا لم يكن يحصل النوم والانتباه. فإذا تحصلا منه ضحك بعد الأربعين يومًا»[٣٧].

إننا نلاحظ في هذا الفصل أيضًا، باستثناء بعض التفاصيل أن فيزيولوجيا الجنين عند ابن سينا تعتمد، بجلاء، على اليونان، إذ إن «رغوية» أو «زبدية» المنيّ قد أكدها جالينوس[٣٨]، كما ذكر أيضًا عملية امتزاج «المنيَّيْن» في تكوين الجنين[٣٩]. بيد أن فكرة أولوية خلق السرة غير موجودة في الطب اليوناني، ولعلها فرضية شرقية المصدر. إن نظرية «المنيَّيْن» عامة لدى فلاسفة اليونان (فيثاغورث، ألكميون، برمنيدس، إمبدوقليس، ديموقريطس، أبيقور)، وقد تبنَّتها المدرسة الإبقراطية. ولكن أرسطو دافع عن فكرة تخلق الجنين من منيّ الذكر ودماء حيض المرأة، وهو ما دحضه اكتشاف مبايض المرأة على يدي هيروفيلوس؛ طبيب التشريح السكندري الكبير في القرن الثالث. وقد تخلى عن هذه الفرضية أيضًا جالينوس وابن سينا ومَن تبعه مِن الأطباء العرب. أما بالنسبة لتصور ابن سينا للأغشية الجنينية فهو مطابق لتصور اليونانيين، وكذلك بالنسبة للسائل الرهلي أو السلي الناجم على بول وعرق الجنين. وإذا أخذنا في الاعتبار صعوبة الحصول على أجنة بشرية فتية، نجد أن أطباء اليونان والعرب قد جمعوا عددًا لا بأس به من التفاصيل. ولقد لاحظوا في هذه الأجنة، بدءًا من يومها العشرين، ظهور الثنايا والطيات التي تتكون وتسبق تكوين الأعضاء. كما لاحظوا ظهور الحركات الأولى للطفل بين اليوم السبعين واليوم التسعين.

أما بالنسبة لفكرة ابن سينا عن التوأم فهي مستوحاة من المدرسة الإبقراطية. وبالنسبة لفكرة الحمل على الحمل فترجع إلى مؤلف الكتاب السابع المجهول عن «تاريخ الحيوان» المنسوب إلى أرسطو. إذ إنه هو الذي تحدث عن تواتر التوائم في مصر، وعن وجود توائم ثلاثية ورباعية وخماسية. ولعل ما يلفت النظر هو غياب أية فكرة واضحة عن السخد (Placenta) لدى أطباء العصور القديمة والوسطى. أما مصدر عدد الأيام المعتمدة لتطور الجنين حتى ولادته فترجع إلى فيثاغورث الذي حددها بمائتين وعشرة أيام على الأقل، وهو ما تبعه فيه ابن سينا. ولقد تصور

(٣٧) المرجع المذكور: ١٦٣٤.

(٣٨) في كتابه *De usu partium*, 1. XIV. Ch. 11.

(٣٩) في كتابه *De Semine,* 1. I. Ch. 8.

الإبقراطيون أيضًا كيف يبدأ الطفل بدفع نفسه بسبب نقص الغذاء، وكيف يوسع الممر الذي سيخرج منه بنفسه، كما رأوا أن عملية قلبه السابقة على خروجه تعود إلى قوة الجذب التي يتعرض لها. إن المدعو أرسطو هنا هو أول من وصف وضع الجنين في رحم الأم كما نقع عليه عند ابن سينا. أما فيما يخص التصورات الأخرى، فإن ابن سينا يتبع فيها جالينوس حتى فيما يتعلق بتقدير الخالق وإجلاله في تدبيره لعملية الولادة. إن جالينوس الوثني، المؤمن بتعدد الآلهة، ينسب هذا التدبير إلى الطبيعة في قوله: «لقد وجدت الطبيعة فيما يخص هذه الاستعدادات وغيرها الخاصة بالولادة وسائل مدهشة. ويجب أن يذكرنا هذا الأمر بالمزايا التي ضحتنا إياها براعة الفنان الذي خلقنا، كما يجب أن يُظهر لنا ذلك. بوضوح، ليس فحسب حكمة هذا المبدع، وإنما قدرته أيضًا»[٤٠]. على هذا النحو، يُمجد ابن سينا قوة الله، الخالق الأوحد، كما يعبر في كلمات بالغة التأثير عن عمق إيمانه وتقواه؛ إلا أن ذلك لم يمنع متشددي العصور التالية من لومه على هدم المعتقدات الإسلامية باتباعه الفلسفة الأرسطية.

أمراض الرحم

يشمل هذا الجزء من المقالة الأولى للفن الحادي والعشرين من كتاب «القانون» لابن سينا سبعة عشر فصلًا مختلفة الطول، ويمثل من نسخة بولاق العربية الصفحات ٥٦٢-٥٧٠ من الجزء الثاني[٤١]، كما يشكل من نسخة الترجمة اللاتينية كبيرة الحجم التي قام بها جيرار دي كريمون G. de Crémone ست صفحات عريضة، دقيقة الحروف[٤٢].

وتشرح لنا الفصول الخمسة الأولى كيف يمكن للرحم أن يعاني من أمراض عامة وعضوية وأخرى تعرض للجسم كله. ثم يعرض ابن سينا أمزجة الرحم الأربعة (الحرارة، البرودة، الرطوبة، اليبوسة) وفقًا لنظرية جالينوس الذي بيّن دلائل وسمات هذه الاستعدادات الأولية (المبادئ) المزعومة، أو هذه التكوينات (Constitutions)، كما نقول اليوم.

---

(٤٠) *De usu partium*, XV. Ch. 7.

(٤١) الموازية في النسخة اللبنانية المنقولة عنها للصفحات ١٦٣٤-١٦٤٤.

(٤٢) جيرار الكريموني (١١١٤-١١٨٧م): كاتب ومترجم إيطالي، له عظيم الفضل في إنقاذ العديد من الكنوز العلمية للعصر القديم. (المترجم)



الفصل الثامن يتحدث عن «العقر وعسر الحبل»: «سبب العقر. إما في منيّ الرجل، أو في منيّ المرأة، وإما في أعضاء الرحم، وإما في أعضاء القضيب وآلات المنيّ، أو السبب في المبادئ كالغم، والخوف، والفزع، وأوجاع الرأس وضعف الهضم، والتخمة..»[٤٣]. ويعدد ابن سينا هذه الأسباب، الواحد تلو الآخر، ويناقش كل سبب بإسهاب وهو يرى جزءًا من هذه الأسباب في الأمزجة المتعارضة لمنيّ الرجل والمرأة. وفي ضعف المنيّ لدى المرضى، والسُّكارى، والشيوخ، ولدى من يعانون من سوء الهضم، ومن يكثرون من الجماع (الباه) فالمنيّ، كما يقول إبقراط، «يأتي سليمًا من السليم ومريضًا من المريض». وهذا الأمر ينسحب على الجنسين، ولعل عقم الرحم نفسه يرجع إلى «سوء مزاجه» أو إلى مزاجه البارد، وهو ما يفسد المنيّ ودم الطمث، ويعمل على تقليص المسام التي يصل عن طريقها هذا الدم لتغذية الجنين. كما يمكن أن تنقص الرحم «قوة الجذب» اللازمة لسحب منيّ الرجل، أو أن يكون مسدودًا، بسبب ضيق عنقه أو إثر قرحة خلّفت ندبة، أو بسبب لحم زائد ثؤلولي (Polype) أو انحراف أو «مزلق»، أو انسداد مانع إياه عن الوصول لانضمام الرحم. وهناك أسباب أخرى لعقم المرأة، وهي البدانة بصفة عامة، وسمنة الأجزاء المحيطة بالأعضاء التناسلية، أو إصابة تعتري الرحم كالأورام والقروح والبواسير أو الزوائد اللحمية.

كما قد تعاني المرأة أحيانًا من انسداد فتحة الرحم بواسطة لحمة صلبة تشبه القضيب، أو بسبب قروح مندملة أو عوائق أخرى تسد فتحات العروق الموصلة لدم الطمث إلى الجنين لتغذيته. ويُضيف ابن سينا إلى ذلك أسبابًا أخرى مثل ضعف أوعية المنيّ أو فسادها إثر إصابة في المثانة أو لعيب في مئية القضيب والمهبل يعوق وصول المنيّ إلى فتحة الرحم. ويضفي ابن سينا أهمية كبرى على عملية تزامن قذف الذكر والأنثى (يقصد حد الإشباع عند المرأة)، كما أشار إلى أطباء اليونان[٤٤]. ويستشهد ابن سينا بكلام إبقراط في تأكيده على أن مزاج الرجل ليس أبرد من مزاج المرأة لا في جسمه وأعضائه ولا حتى في منيه. ويردف قائلًا: «واعلم أن المرأة التي تلد وتحبل أقل أمراضًا من العاقر، إلا أنها تكون أضعف منها بدنًا، وأسرع تعجيزًا. وأما العاقر فتكثر أمراضها، ويبطؤ تعجزها، وتكون كالشابة في أكثر عمرها»[٤٥].

(٤٣) المرجع المذكور: ١٦٣٥.

(٤٤) Soranus I, 37-38.

(٤٥) المرجع المذكور: ١٦٣٧.

يتطرق ابن سينا، بعد ذلك، إلى المسألة الدقيقة الخاصة بتشخيص العقم وتحديد أعراضه. وهو يبدأ كلامه بمجموعة من الأقوال يفتتحها بعبارة «قالوا»، ومعظمها مستمد من المعتقدات الشعبية، ويضيف بأنه يستحيل عليه التأكد من صحتها. على هذا النحو، يقول بأن بعض الناس ذهبوا إلى أنه يجب وضع قليل من مني الرجل والمرأة في الماء، فأيهما طفا يكون صاحبه العقيم. كما نصحوا أيضًا بصبّ بعض البول لكلٍّ منهما على حدة، على جذور حبتين فأيهما تجف خلال بضعة أيام تكون دليلًا على عقم صاحبها. كما نُصح، أيضًا، بأن يبول كلٌّ من الرجل والمرأة على سبع حبات من الحنطة أو الشعير، وعلى سبع باقلات موضوعة في إناء من الخزف، فإذا نبت الحبّ في غضون سبعة أيام، يكون ذلك دليلًا على انعدام العقر لدى صاحب البول، ويُعد هذا الاختبار الأخير طريفًا بقدر ما كان يلجأ إليه قدماء المصريين (بردية Brugsch في الطب ببرلين)، إذ كان يُستدل من بول المرأة الحامل على حفنة من الحنظل أو الشعير على جنس المولود المتوقع: ذكرًا كان أم أنثى. وهناك اختبار آخر يستحسنه ابن سينا، وهو أن تقف المرأة على وعاء به نجور عطر، فإذا نفذت الرائحة من جسمها إلى فيها وأنفها كان ذلك دليلًا على انفتاح مسام جلدها وعلى قابليتها للحمل. إلا أن ما يعتبره ابن سينا مؤكدًا في تشخيصه يظل ملاحظة مزاج جسم المرأة وسرعة نبضها، وهيئة المنطقة التناسلية وحال شعر العانة، ولون البول والمنيّ ووفرتهما، بالإضافة إلى جودة وكمية دم الطمث، والفحص المباشر للأورام ولانسدادات الرحم المذورة من قبل. ويلاحظ أن المرأة التي تعاني من ميلان أو انقلاب في الرحم غالبًا ما تشعر بالألم عند الجماع.

أما بالنسبة للنظام العلاجي، الذي يتبناه ابن سينا، لعلاج العقم، فإنه يقدم لنا العديد من النصائح في فصل بالغ الطول. ونذكر في هذا الشأن، ما يقدمه من تفاصيل دقيقة حول أفضل الطرق للجماع، ووضع المرأة خلال وبعد الاتصال الجنسي لنفاذ المني إلى الرحم. وهو يوصي باستخدام بعض الأبخرة الخفيفة بعد الجماع خاصة من الصموغ كالمُقل (Bdellium) وبعض الطيوب الحارة لتصحيح «المزاج البارد للرحم». وينصح، كذلك، بجلب الحرارة مباشرة إلى فتحة الرحم بواسطة أنبوب يوضع طرفه الآخر في رماد حار. ويضيف إلى ذلك العلاج بواسطة وضع محاجم معدلة للحرارة حول الرحم أو عن طريق فصد الوريد الصافن. ويرى ابن سينا أن بعض الأشكال الأخرى من العقم تتطلب استخدام الحمامات الساخنة، والحقن الحارة، وكل ذخيرة



أدوية العصور الوسطى البسيطة منها والمركبة. ونذكر منها بعض الأدوية اليونانية مثل ترياف مثروذيطوس (Mithridate) المشهور، وهو، في البداية، نوع من المضاد، إلا أنه استخدم فيما بعد، باعتباره دواءً عامًّا، ودماء الثياذريطوس (Théodorète)، وهو طبيب بيزنطي غير محدد العصر. وينصح ابن سينا، في سبيل تضييق فتحة الرحم، باستخدام مجسات ثابتة تسمى بالعربية «ميل» في مختلف الأحجام. وليس هذا إلا استنساخًا للكلمة اليونانية (*unhn*) التي تنطق حديثًا (mili) وليس (mêlé). ومعظم الأدوية التي يوصى بها من البذور. أما الدواء الوحيد الذي ينتمي إلى عائلة الأدوية المنفردة، فهو بول الفيل الذي ينصح بتناوله قبل الجماع، ويمكن أن تستبدل به نشارة العاج. ويبدو أنه كان يُنسب إلى أعضاء الحيوانات غليظة الجلد تأثير خاص على خصوبة النساء. كما يقدم ابن سينا وصفات عديدة للتدليك ببعض الزيوت طيبة الرائحة وبعر الحيوانات، ولبعض الفرزجات والشيافات وبعض المواد غير المجدية، وفقًا لمعرفتنا الحالية، كدهن البلسان والبان والسوسن، وحب الغار والمسك وجوز السرو والشبت والكمون والخروع وصمغ المصطكا وغيرها.

وليس من شك في أن هذا الفصل مستوحى من الطب اليوناني. إلا أنه يُعد تطويرًا منهجيًّا لموضوع العقم أفضل مما نجده في العصور القديمة. ونحن نُذكّر بأننا نجد بالفعل في المجموعة الإبقراطية *Corpus Hippocraticum* مبحثًا من ثلاثة كتب عن النساء العاقرات[٤٦]. أضف إلى ذلك أن أرسطو يعتبر المظهر الذكوري للمرأة والمظهر الأنثوي للرجل إحدى علامات العقم[٤٧]. خلا ذلك، فإن ابن سينا يقتفي نظرية جالينوس ويستشهد حتى بالمقارنة التي يقيمها هذا الأخير بين اضطراب الطمث عند المرأة وبين الأرض الجدباء التي لم تُعدّها الطبيعة للإنبات. أضف إلى ذلك أن عيوب الرحم التي تعوق الإنجاب قد تم وصفها أيضًا في مجموعة المؤلفات المزعومة لجالينوس[٤٨].

(٤٦) TTeoi â clóewv Peri aphórôntd. Litter, t. VIII, p. 408-463.

(٤٧) Aristote, *De generatione animalium*. Ch. 7.

(٤٨) *Historia philosophica*, éd. Kuehn, vol XIX, p. 316 et suiv.

فيزيولوجيا الحمل (علامات الحبل وأحكامه)

نجد هذه الفيزيولوجيا في الفصل الحادي عشر، وفقًا للترقيم اللاتيني. ويحمل هذا الفصل في النص العربي العنوان التالي: «علامات الحبل وأحكامه». وهنا يبدأ ابن سينا في إعادة عرض عملية الجماع ومزج المنيين. يعتبر أن أول مظاهر الحمل هو احتباس الطمث، ثم ظهور الآلام بين السرة والقُبُل (Pubis)؛ كما يحدث عند بعض النساء نفور من الجماع ثم يظهر الغثيان والتقيؤ المعروفان؛ وهما، في نظر ابن سينا أكثر حدة عند حمل المرأة بالذكر. وتلي ذلك الأحاسيس بثقل البدن وعمليات الجشاء والصداع، ويحدث أحيانًا خفقان بالقلب وظلمة بالعينين. ونلاحظ خلال شهرين، في الأغلب ظهور شهوات خبيثة في الذوق واصفرار في بياض العينين اللتين تغوران ويحتد نظرهما بسبب لمعان يحدثه تمدد الحدقتين. وتعد هذه الأعراض أقل بروزًا عند النساء الحاملات بالذكور. وتبدأ، بعد ذلك أوجاع الظهر والورك والجانبين، وهي أوجاع غالبًا ما تختفي قرب نهاية الحمل. وكذلك تنتفخ الحلمتان وتكتسب لونًا يتراوح بين الأصفر والحمرة؛ كما يظهر نوع من الالتواء في العروق. وترجع هذه العلامات الأخيرة إلى احتباس الطمث وبداية تحسن حالة الأم مع كبر الجنين وتغذيته بدم الطمث المتبقي. أما حمل البنات، التي لم تبلغ بعد خمس عشرة سنة، فيتسم بالخطورة، وقد يؤدي إلى المنية بسبب صغر حجم الرحم. أما النساء البالغات فقد يتعرضن للحمّى الحادة التي تؤدي بحياة الجنين وحياتهن أحيانًا. ولعل الأخطر من ذلك الأورام الحارة (الخراجات والفلغمونيا (Phlegmons) التي تصيب المنطقة التناسلية، وكذلك المشارة «كلمة سريانية» وتعني الحُمرة).

ثم يقوم ابن سينا بتقديم بعض الطرائق، المأخوذة من غير شك من الموروث الشعبي، لتشخيص الحمل: كأن تُسقى المرأة، قبل النوم، أوقيتان من العسل الممزوج بأوقيتين من ماء المطر، فإن سبّب لها هذا الشراب مغصًا فهي حامل. ومن بين الوسائل الأخرى القيام بتبخيرها بعد صيام يوم حتى خروج الدخان والرائحة من الفم والأنف، أو إيلاج ثومة في الفرج خلال الليل وما يتبع ذلك من إحساسها بالرائحة في الأنف. وتدل كلٌّ من الطريقتين السابقتين على انفتاح مسام الجسم ومن ثم على انعدام الحمل. ويكون البول، في بداية الحمل، أصفر صافيًا ثم يميل، فيما بعد، إلى الزرقة (العتمة) والعكر؛ ثم يرجع في أواخر الحمل، إلى الاصفرار وإن شابته ضبابية؛ وتتكون فيه أحيانًا



حبوب بالغة الدلالة، ويميل أخيرًا إلى الاحمرار. وحينما نحرك قارورة بول الحامل في بداية حملها، يظل بولها صافيًا، ولكنه ينتهي بالعكر في نهاية الحمل.

أسباب الإذكار والإيناث

يُعير ابن سينا هذه الأسباب أهمية كبيرة نظرًا للامتيازات الشرعية التي يحظى بها الذكور في المجتمعات الإسلامية والشرقية بعامة. من ثم، نراه يكرس لها فصلين طويلين ولكننا لن نوليهما اهتمامنا الأكبر. ومن بين الأعراض الدالة على الحمل بالمولود الذكر، يشير ابن سينا إلى الطابع المخفف للاضطرابات المزاجية عند المرأة وإلى الإحساس بحركات الجنين الإيجابية كالثقل على الجنب الأيمن، وإلى انتفاخ الثدي بشكل ملحوظ وحمرة الحلمتين مع سواد خفيف، وإلى عدد من العلامات الأخرى التي نعلم أنها لا تسمح بتشخيص دقيق. وتعد محاولات ابن سينا لتحديد ميلاد الذكر والأنثى أدنى للأخذ في الاعتبار من الأسباب الأخرى، خاصة حينما يحاول تحديد نوع المولود عن طريق تدبير بعينه. ذلك أننا نعثر هنا، في الواقع، على الأفكار السائدة في الطب اليوناني، منذ مجموعة إبقراط التي تنسب إلى الجنب الأيمن قوة أشد تساعد على ولادة الذكور. وسوف ننتقي من بين الوسائل التي أوصى بها أطباء اليونان لإنجاب الذكور ما تبناه ابن سينا نفسه، وهي: الجماع في الوقت الأخير من الطمث أو في وقت الطهر، مع اتباع نظام (Régime) جاف. أما النظام السائل أو المائي فهو أدعى إلى إنجاب الإناث[٤٩].

الحبل على الحبل (الحمل المتعدد)

يتطرق ابن سينا إلى هذا الموضوع في الفصل السابع عشر وعنوانه «فصل في سبب التوأم والحبل على الحبل». وهو يرى أن الحمل بالتوأم غالبًا ما ينجم عن جماع واحد؛ وسببه كثرة منيّ الرجل الذي ينقسم إلى جزأين يتجه كل جزء منهما إلى جوف من جَوْفَي الرحم حيث ينمو كلٌّ على حدة. وغالبًا ما تكون المتئم من النساء البدينات غزيرات الشعر والدم، أو باختصار صاحبات «المزاج الحار». وإذا حدث بعد العلوق وقوع الطمث مرة أخرى، وهذا محتمل، فإن الحمل على

(٤٩) Fischer, *Die Gynäkologie bei dioskurides und plinius*. Wien, 1927. p. 28.

الحمل قد يتم، ولكنه خطر على الأم والطفلين معًا. وحتى بالنسبة للنساء القويات، فإن التزاحم بين الولدين قد يؤدي إلى حمى وانتفاخ في الوجه (نظرًا لالتهاب كلية الحامل؟) وإجهاض، كما أن العلامة المائزة لوجود أطفال أُخر في الرحم بعد ميلاد الأول هي بروز عقدة أو أكثر في سُرة هذا المولود وفقًا لعدد الأطفال الذين ما زالوا بعدُ داخل الرحم!

يلي ذلك فصل قصير عن أعراض نهاية الحمل واقتراب الولادة وهي، بوجه خاص، إحساس بالثقل في أسفل البطن، وبانتفاخ في عنق الرحم، وآلام في الأربية.

ولقد سبق لنا الحديث عن معارف أطباء اليونان في مجال الحمل بالتوأم والحمل على الحمل. ونضيف إلى ذلك أن هذه الظاهرة الأخيرة كانت تُنسب إلى ضعف في قابلية تقلص فتحة الرحم بعد الحمل الأول. وكان الاعتقاد السائد هو أن التوائم قد يولدون في فترة تتراوح بين ثلاثين وأربعين يومًا، أي بفارق عشرة أيام؛ وأنه في حالة ميلاد توأم قد يشبه أحدهما الزوج والآخر عاشق الأم!

أما الفصلان التاسع عشر والعشرون فبالغا القصر، ويتناولان أعراض ضعف المولود قبل وبعد ولادته. والعلامة الأولى، التي تخص الجنين، هي انعدام أو ضعف حركته. أما بالنسبة للمولود حديثًا، فأسباب الضعف هي ضيق سرته، وقلة حركته أو غيابها، وعدم عطسه، وعدم انتظام قدرته على الإفراغ، الأمر الذي يؤدي، في هذه الحالة الأخيرة، إلى انعدام صلاحيته للحياة، ومن ثم، إلى وفاته.

والمقالة الثالثة من الفن الحادي والعشرين لكتاب القانون (الثانية من نسخة المؤلف القديمة) تحمل عنوان: «في الحمل والوضع»، وتشمل تسعة وثلاثين فصلًا بعضها طويل والآخر قصير. والفصل الأول مكرس لعدد من الملاحظات والاعتبارات العامة.

مدة الحمل

يمكن أن يولد طفل قابل للحياة ابتداءً من الشهر السابع ومع ذلك، يموت كثير من أطفال الشهر السابع، وهو ما يرده ابن سينا إلى شدة حركة الجنين قبل ولادته. وبالنسبة لمواليد الشهر



الثامن فالخطر أشد لميلهم إلى الخروج (التفصي) من الرحم قبل اكتمال قوة الخلقة المطلوبة. وأحيانًا يكون انقلاب الطفل سببًا في ضعفه، بينما يتمتع طفل الشهر التاسع بالقوة والحيوية إذ إنه قد ثابت إليه قوته بعد جهد الانقلاب، أما أطفال الشهر العاشر فظروفهم أقل يسرًا لأن أجنتهم لم تتمكن، بسبب ضعف حركتها، من الانفصال عن الرحم في الوقت الملائم؛ إنهم يُشبهون في ذلك أجنة الشهر الثامن، ومع ذلك، فبعضهم يولدون في قوة أطفال الشهر التاسع.

إننا نقع في هذا الفصل على عدة مفاهيم يونانية في الأساس. ذلك أن الفكرة الغريبة عن الخطر الداهم الذي يتهدد طفل الشهر الثامن، والذي يجعله، إلا في النادر غير قابل للحياة، موجودة في مجموعة إبقراط. ونذكّر في هذا الصدد بمبحث «*Peri Oktamênou*» أي «عن الجنين في الشهر الثامن»[٥٠]. أما نظرية قابلية طفل الشهر السابع للحياة أكثر من قابلية الطفل الثامن، فلقد انتقلت من الطب اليوناني والعربي إلى الطب الغربي، وما زالت قائمة حتى اليوم في الطب الشعبي لكثير من الأمم. كما أن ديبجن Diepgen قد ذكر في كتابه (ص١٦٢) أن بعض علماء اليونان قد حارب هذا الافتراض، إذ يستشهد أرسطو ببعض الحالات التي عاش فيها أطفال الشهر الثامن، أضف إلى ذلك ما يقوله مؤلف الكتاب السابع من «تاريخ الحيوان» (المنسوب خطأً إلى أرسطو) عن موت أطفال الشهر الثامن دومًا في اليونان، وعن كونهم يعيشون في مصر بفضل حرارة المناخ. أما النظرية الخاصة بضعف أطفال الشهر العاشر فلا وجود لها لدى اليونان الذين كانوا يظنون أن هؤلاء كانوا أقوياء، ومن ثم قابلين للحياة بقدر أطفال الشهر التاسع.

التدبير الكلي للحوامل

هذا عنوان الفصل الثاني في المقالة، ويقول فيه ابن سينا: «يجب أن يُعتنى بتليين طبيعتهن دائمًا بما يليّن باعتدال مثل الإسفيذباجات الدسمة، ومثل الشيرخشت[٥١] ونحوه، إذا اعتقلت الطبيعة جدًّا، وأن يكلفن الرياضة المعتدلة، والمشي الرفيق من غير إفراط، فإن المفرط يسقط»[٥٢].

(٥٠) Ed. Litter, VII, p. 452-461.

(٥١) يشرح المستشرق أحيانًا أصل المصطلحات المستخدمة، فالإسفيذباجات فارسية ومعناها «اللحم الأبيض»، والشيرخشت لفظ فارسي أيضًا ويعني «المنّ».

(٥٢) المرجع المذكور: ١٦٤٦.

ويستحسن أن يتجنبن الاستحمام حتى موعد اقتراب الولادة. وعليهم كذلك الامتناع عن دهن رءوسهن بالزيوت، إذ قد يسبب ذلك لهن نزلة من البرد وسعالًا، الأمر الذي يزعزع الجنين ويُعدّه للإسقاط المبكر، كما عليهن تجنب الحركات العنيفة والوثبات والضربات والسقوط والغضب والجماع والإفراط في الغذاء المسبِّب للتُّخْمة. ويرى ابن سينا أن المخاطر تزداد بشكل خاص في الشهر الأول، وأن الانفعالات سيئة دائمًا. كما يوصى بنظام غذائي يقوم، بجانب اللحم الأبيض، على الزيرباحات (الحساء الدسم) مع الخبز جيد النضج، ويحرم، كذلك، كل ما هو حرّيف ومرّ كالكبر والترمس والزيتون الفج (الأخضر)، وغير ذلك كاللوبيا والحمص والسمسم. ويرى، على النقيض، أهمية حساء السَّويق من الحنطة نظرًا للفائدة الغذائية السريعة، وشراب الريحاني المذاب، ويستشهد في هذا الصدد بكلام إبقراط الذي يفضل النبيذ الأحمر (الرقيق الأسود). كما يضيف إلى هذا التدبير الغذائي الزبيب والكمثرى المثيرة للشهية والتفاح والرُّمان المزّ. ثم يقدم وصفته لمحلول جوارشن (لفظ فارسي) اللؤلؤ[٥٣]، وبعض الاقتراحات بوصفات أخرى تحتوي على معظم العقاقير الشرقية في زمنه.

تدبير النفساء

هذا هو عنوان الفصل الثالث. ولقد عبرت الترجمة اللاتينية عن لفظة «النفساء» العربية بكلمة «*Enixa*».

يجب، في البداية، أن تجتهد النفساء في أن يعود إليها درور الطمث، وأن تحافظ على نظام غذائي خفيف؛ إذْ إن التغيير المفاجئ والانتقال إلى الأغذية الثقيلة قد يُسببان لها الحمّى ويُضعفان «القوة المغيّرة في كبدها» (حيث كان القدماء يرون العضو المعدّ للدم ولقوة الحياة). إن ذلك قد يُسبب لها العطش وتصلب الكبد والاستسقاء المهلك. وإذا اعتلت النفساء، ثم جاوزت يومها العشرين أو الرابع والعشرين من غير أن تُتوفى، فإنها تكون قد تخطت خطر الانقضاء.

إن هذا الفصل القصير لا يوفر لنا أفكار الطب اليوناني التي سوف نجدها في الفصول التالية.

---

(٥٣) «يؤخذ لؤلؤ غير مثقوب درهم، عاقر قرحا درهم، زنجبيل ومصطكي، من كل واحد أربعة دراهم، زرنباد ودرونج وبزر كرفس، وشيطرج وقاقلة وجوز بوا وبسباسة وقرفة من كل واحد درهمان...». المرجع المذكور: ١٦٤٦. (المترجم)



شهوة الحوامل

يتحدث ابن سينا، في هذا الفصل الرابع، وفقًا للترقيم اللاتيني، بداية عن فقدان الشهية لدى الحوامل. فإذا حدث ذلك، يجب حرمانهن من الأغذية الدسمة وشديدة الحلاوة، وأخذهن بالقصد في شرب الماء. وإذا عرض لهن غثيان وقيء يقدم إليهن شراب الريحان الرقيق الذي سبق ذكره، والذي يعمل، بجانب نفعه، على رد الشهية إليهن. ويشير ابن سينا، بعد ذلك، إلى مجموعة من الأدوية القابضة و«الحارة» المعيدة للشهية مثل عصا الراعي (Aviculaire) المطبوخ بالشبث (Aneth) والزراوند (Aristoloche) وغير ذلك. وعلى العكس، إذا اشتدت شهية الحوامل يجدر معالجتهن بعقاقير مضادة مثل عسل الورد (ماء الجلنجبين بالورد الفارسي)، ورُبّ الحصرم بالعسل وماء السكر والنشا الذي يساعد، في الوقت نفسه، على غذاء الجنين. كما يوصي ابن سينا، بالنسبة للنساء اللواتي يشتهين الجبن، بالجبن الرطب غير الحرّيف، أما ضد رياح المعدة فينصح باستعمال جوارشن (معجون) من الكمون والكُندر والسعتر الفارسي ومن عناصر أخرى. كما ينصح أيضًا بوضع الأضمدة على معدهن، وباستخدام بعض المنقوعات والدهانات المتنوعة.

يلي هذا الفصل فقرتان بالغتا القصر، حيث يناقش ابن سينا خفقان القلب ودوام سيلان الطمث. ويرد ابن سينا هذا الخفقان إلى اعتلالٍ أو «خلط» في فم المعدة (Dyscrasie)، ويطلب علاجه بتجرع الماء الحار وبعض التمرينات الخفيفة. كما ينصح بمعالجة سيلان الطمث ببعض القوابض والضمادات الموضعية.

وفي فصل ثالث بالغ القصر، ينصح بمداواة تورم أقدام الحوامل بضمادات تؤخذ من الخل الممزوج بالنبيذ وبواسطة مواد متنوعة كالشبث والأترج.

الإسقاط وعلاجه

يشغل هذا الباب ستة فصول طويلة لن نستطيع أن نقدم منها إلا ملخصًا وجيزًا وبعض الترجمات الجزئية.

يُعدّد ابن سينا، في البداية، أسباب الإجهاض، وهي التي سبق ذكرها في قسم أمراض الرحم. وسوف نستبقي منها إطالة الاستحمام، والأسباب التي تؤدي بحياة الجنين. وأهم هذه الأخيرة: وَهَن الجنين وبعض العيوب في تكوين الرحم مثل وجود رياح به تعوق تغذية الجنين، وكذلك الأورام والقروح وأمراض أخرى سبقت الإشارة إليها. ويزعم ابن سينا أن الإجهاض يكثر في البلدان الجنوبية والمناخات الحارة، ويقل في الشمالية منها؛ ويعتقد كذلك أن آلام الإجهاض أكثر شدة من آلام الولادة.

ومن علامات الإجهاض، يذكر ابن سينا ضمور الأثداء بعد اكتنازها؛ فإذا حدث ذلك في أحد الثديين، فإننا نكون بصدد توأم قد مات أحدهما «من ذلك الجانب»؟ ومن الأعراض الأخرى يذكر أوجاع الرحم، وشدة احمرار الوجه، والرعشة والإحساس بثقل في الرأس وببعض الآلام الموضعية بحجاج العين وأخرى مشابهة، أما أعراض وفاة الجنين، فهي سكون حركته وإحساس بثقل في البطن، كما لو أن به حجرًا يتدحرج من جنب إلى آخر، وأخيرًا إفراز صديدي مُنتن. وعلاماته عند الأم ارتداد العين أو غورها، وظهور كمدٍ في بياضها، وابيضاض الأذنين وطرف الأنف مع حمرة شديدة في الشفة وحالة شبيهة بالاستسقاء.

إن تعلق الجنين بالرحم أشبه بـ«تعلق الثمرة من الشجرة»؛ من ثم يجب علينا أن نحول دون سقوطه، كما نمنع سقوط الثمر. وتعد خطورة الإجهاض أشدّ قبل الشهر الرابع وبعد الشهر السابع، لذلك علينا الاعتناء بالحالة المزاجية للأم وبما قد يصيب الرحم من أمراض موضعية. ويجدر بنا، بوجه خاص، أن نقي الأم من حالات سوء الهضم والإسهال بواسطة حقن قابضة ومدرات للبول وغسول مطهر للفرج.

أما الفصل التالي فيحتوي على وصفات عديدة من المنقوعات القائمة على زيت الخروع، ومن طبيخ الحسك والحلبة وأرياج جالينوس الملينة. وإذا استثنينا الوصفات القديمة في الزمن فإننا نصل إلى الفصل الثاني عشر وعنوانه «تدبير الإسقاط» أي الإجهاض الصناعي. ومن دواعيه عند ابن سينا، صغر سن الأم بحيث «يُخاف عليها من الولادة والهلاك» وأورام الرحم وآفات أخرى لدى النساء البالغات. ولكننا لا نجد لديه أي إشارة إلى عَظْم الحوض. ويوصي ابن سينا لتحقيق الإجهاض بالحركة والوثبات، وبوضع ضمادات فوق البطن، وإيلاج كاغد (فتيل) أو ريشة أو



خشبة مبريّة من الأشنان في فتحة الرحم، وبوسائل أخرى. وتأتي في عقب ذلك إشارات متعددة أخرى إلى ضروب من الأدوية المرة المؤدية إلى الإجهاض، وإلى وصفات من الفرازج العاملة على عودة الدورة الشهرية لدماء الطمث. كما يقدم ابن سينا أيضًا وصفًا لآلة تسمى الزراقة، وهي بمثابة مسبار الرحم الحالي ويصفها على النحو التالي: «يجب أن تكون الزرافة مثلثة الطرف، طويلة العنق بقدر طول قرن الرحم من المرأة المعالجة، وبحيث تدخل في فم الرحم، وتحس المرأة أنها قد صارت في فضاء داخل الرحم، فيزرق فيها ما يقتل، وما يزلق وما يخرج»(٥٤).

يحتوي القسم التالي من هذا الفصل وصفًا لعملية الاستخراج اليدوي للجنين الميت، وهو أقل تفصيلًا من وصف سورانوس (الفصل الخامس والستون)، وهو الوحيد الكامل المتبقي لنا من العصر القديم، ولكنه واضح. لذلك سوف نقدم ترجمة حرفية للنص العربي (ما يوازي ص٥٧٦-٥٧٧ من طبعة بولاق للقانون، الجزء الثاني)(٥٥).

(٥٤) المرجع المذكور: ١٦٥٢.

(٥٥) الموازي لصفحة ١٦٥٢-١٦٥٣ من المرجع المذكور. (المترجم)

الخاتمة

لقد قمنا بمراجعة موسوعة المعارف الخاصة بأمراض النساء والولادة التي ألّفها ابن سينا في حوالي العام الألف من التقويم المسيحي. وتمثل هذه الموسوعة، بصدق وأمانة، مجمل معارف عصره؛ وهي معارف - كما نرى - هائلة. وإذا تبيّنا كل ما يتعرض له طبيب النساء في العالم الإسلامي من عقبات جسيمة لم تختفِ كلية إلا خلال القرن التاسع عشر، فلن نتوانى عن إظهار إعجابنا بما بذله المؤلف العربي - الفارسي من جهد في سبيل جمع هذا القدر الهائل من الملاحظات.

كما يجدر بنا ألا ننسى أن طبيب الحقبة الإسلامية لم تُتَح له إمكانية تشريح الجثث أو الحيوانات الحية مثل ما كان بمقدور جالينوس في روما، أو فحص النساء عن طريق اللمس أو إجراء عمليات لهن، إذْ كان ذلك موقوفًا على القابلات فقط. بل وكان أقصى ما هو متاح له الملاحظة عن طريق جس البطن وتبين وجود الأورام الكبيرة أو الوضع التقريبي للجنين. لقد لاحظنا أن ابن سينا، مثله في ذلك مثل كل أطباء العصر الإسلامي، قد استعار كثيرًا من معارفه عن اليونان الذين كانوا يتمتعون بقدر أكبر من الحرية في الفحص والممارسة مقارنةً بالعرب الذين كانت تخضع المرأة لديهم، منذ بداية الإسلام، للمحظورات الدينية. ومع ذلك، فلقد شخّص ابن سينا كثيرًا من الظواهر التي لم نقع عليها في مؤلفات اليونانيين التي وصلت إلينا. بل، وزد على ذلك، أنه قد استطاع ملاحظة مجموعة من الحقائق التي لم يطرأ عليها أي تغيير حتى يومنا هذا.

نشير أيضًا إلى حقيقة أخرى جديرة بأن نشيد بها، ألا وهي تحرر ابن سينا من كل خرافات عصره، إذْ لم نجد لديه أي ذكر للتعاويذ أو للإشارات الفلكية والكيميائية التي تغص بها أعمال سابقيه وتابعيه.



ملحق اللوحات

امرأة فارسية تستشير طبيبًا من الدراويش – رسم بارز في كشكول فارسي، مجموعة مايرهوف.

وضع المولود وفقًا لمخطوطة من العصور الوسطى - مخطوطة لوديان رقم ٧٢٤ - المكتبة البودلية بأكسفورد.



ابن سينا يشرح للأطباء تشريح الجهاز العصبي – منمنمة من كتاب التشريح المنصوري، مخطوطة فارسية من القرن السابع عشر، مجموعة مايرهوف.

مشهد للولادة – منمنمة فارسية على مرآة، مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة،
مهداة من جلالة الملك فؤاد الأول للمتحف.

المصطلحات الطبية وترجمتها

دُمل	Abcès
دُمل بمحيط الرحم	Abcès paramétritique
النفساء	Accouchée
عسر الولادة	Accouchement difficile
شبه اللفائفي	Allantoide
احتباس الطمث	Amenorrhea
السلي – الرهل	Amnios
شهوة الحوامل	Appétit des gravides
الشريان الحرقفي	Artère iliaque
الشريان السُّري	Artère ombilicale
انسداد فتحة الرحم	Atrésie
إجهاض – إسقاط	Avortement
قرقرة	Borborygmes
ثقب بوتال	Botal
سرطان	Cancer
كرسي الولادة	Chaise obstétricale
المشيمة – السلاء	Chorion
الحمل – الحبل	Conception
لقموم (ورم) حُليمي	Condylome papillaire
الحاوي في الطب	Continens Medicinae
حبال المنيّ	Cordons spermatiques
أجسام مسمارية	Corps pédiculés

مجموعة إبقراط	Corpus Hippocraticum
تآكل	Corrosion
زوائد	Cotylédons
مفتت الجمجمة	Cranioclaste
ثقب الجمجمة	Craniotrippie
صنّارات	Crochets
سقطة	Culbute
في تناسل الحيوان	De generatione animalium
في المنيّ	De Semine
في فن ممارسة التوليد	De usu partium
انحراف - ميل	Déviation
تشخيص	Diagnostic
آلام، أوجاع الرحم	Douleurs utérines
عسر الطمث	Dysménorrée
سيلان	Écoulement
تفتيت، تقطيع الجنين	Embryotomie
صرع	Épilepsie
مرض الحُمرة	Erysipèle
بتر	Excision
استخراج بالكُلّاب	Extraction au forceps
الرحا - الحمل الكاذب	Fausse gravidité
حُمى النفاس	Fièvre puerpérale
ناسور الرحم	Fistule de l’utérus
ناسور المثانة والرحم	Fistule vésico-utérine/vaginale

انتفاخ	Flatulence
سيلان	Fluor
استسقاء الرأس	Hydrocéphalie
كلابات - جفت	Forceps
الأكالة - غنفرينا	Gangrène
سيلان	Gonorrhée
حمل - حبل	Gravidité
انسداد الرحم	Gynatrésie
هيئة - مظهر - شكل	Habitus
نزف	Hémorragie
بواسير الرحم	Hémorragie utérine
قياس ثقل السوائل	Hydrométra
استسقاء	Hydropisie
غشاء البكارة	Hymen
اختناق الرحم - هستريا	Hysténie
غشاء شبكي	Membrane réticulaire
غزارة الحيض	Ménorragie
التهاب الرحم	Métrite
ارتحال الرحم	Migration de la matrice
المولى	Mola
شبق المرأة - إفريسيموس النساء	Nymphomanie
دمل بالقدم	Œdème des pieds
قلة الطمث	Oligoménorrhée
المبايض	Ovaires

بوق الرحم	Oviducte
خفقان القلب	Palpitations cardiaques
أورام حُليمية	Papillomes
بردية بروش الطبية	Papyrus médical de Brugsch
التهابات حول الرحم	Paramétrites
عجان	Périnée
التهاب الصفاق	Péritonite
الفَرْزَجَة	Pessaires
مشيمة	Placenta
تنفس - هوائي	Pneumatique
نفخة الرحم، رياح	Pneumatose utérine
سائل الرحم (سليلة)	Polypes de l’utérus
أورام مسمارية - ذات سويق	Polypes pédiculés
اختناق الرحم	Praefocatio matricis
حمولة - لبوس	Priapiscus
قسوح - إفريسيموس	Priapisme
تدلّي	Procidence
تدلّي	Prolapsus
حكة الفرج	Prurit vulvaire
بثور	Pustules
التدبير الملكي	Regalis disposition
تدبير المرأة المفتضة	Régime de la femme déflorée
غشاء المشيمة	Secondines (placenta)
مرآة طبية	Spéculum

Stérilité	عقم
Suffocation matrice	اختناق الرحم
Superfécondation	الإخصاب المتعدد
Superfétation	الإخصاب المتعدد
Tamponnade	اندحاس – انضغاط القلب
Testicule	الخصية
Thériaque de Mithridate	ترياق مثروذيطوس
Tympanisme	ورم طبلي
Ulcérations	قروح
Vagin	مهبل
Vaisseaux spermatiques	أوعية المنيّ
Veines ombilicales	عروق السُّرة
Ventosité	النفخة
Verrue	برّوقة – زائدة لحمية
Version du fœtus	ميلان، انقلاب الجنين
Vulve	فرج

المصطلحات اليونانية والشرقية

Akla	أكالة – غنغرينا
Allantois	اللفائفي
Amnios	السلي
Anfos	السلي الرهل
’asâbât	رباط، شريط للتعصيب

عنق الرحم	Awkhên (aixήν)
باذروجين	Bâdh-doroughîn
باسور	Bâsour
بيضة (مبيض)	Bayda
الشيخ الرئيس	Chaikb Wa-Raíŝ
تشقق - تمزقات	Chiqâq
نبات الشيرخشت	Chir-khouchl
الدحمرتا (سريانية)	Dahmorta
ذكر	Dhakar
جوارشن	Djawâtich
دُبَيْلة (ورم بمحيط الرحم)	Do beūla
فن (قسم)	Jann
فرِج	Fardj
فرزجات	Forzadjât
كيس لفائفي يسيل به بول الجنين	Filas
في الرحا	Fi´r-raba
إفريسموس	Frîsîmous
طب النساء	Gynaikeia
حاشا (سعتر)	Hâchâ
حمل	Hame
حبوب فيكرا	Hiéra picra
اختناق الرحم	Hystérikî pnix



اختناق الرحم	Khtinag ar-reham
انغلاق - انسداد	Inghilâq
انقلاب	Inqilâdj
الكظ	Kaff
كلاليب	Kalâlîb
الكليتان	Kalbatân
كاتياس - مبضع	Katias
القرقس	Kerkos
كتاب الشفاء	Kitâb-al-Chifâ
الكتاب الملكي	Kitâb al-Malaki
الكتاب المنصوري	Kitâb al-Mansouri
الكتف	Kitf
لولب	Lawlab
التهاب الصلبة	Logadia
فن الولادة	Maiotikón
مقالة	Maqâla
مأزق	Mâ´zim
مبضع	Mibda’
مرآة	Mirârat
مولى	Mylé
المستفرغ	Al-mustafrigh